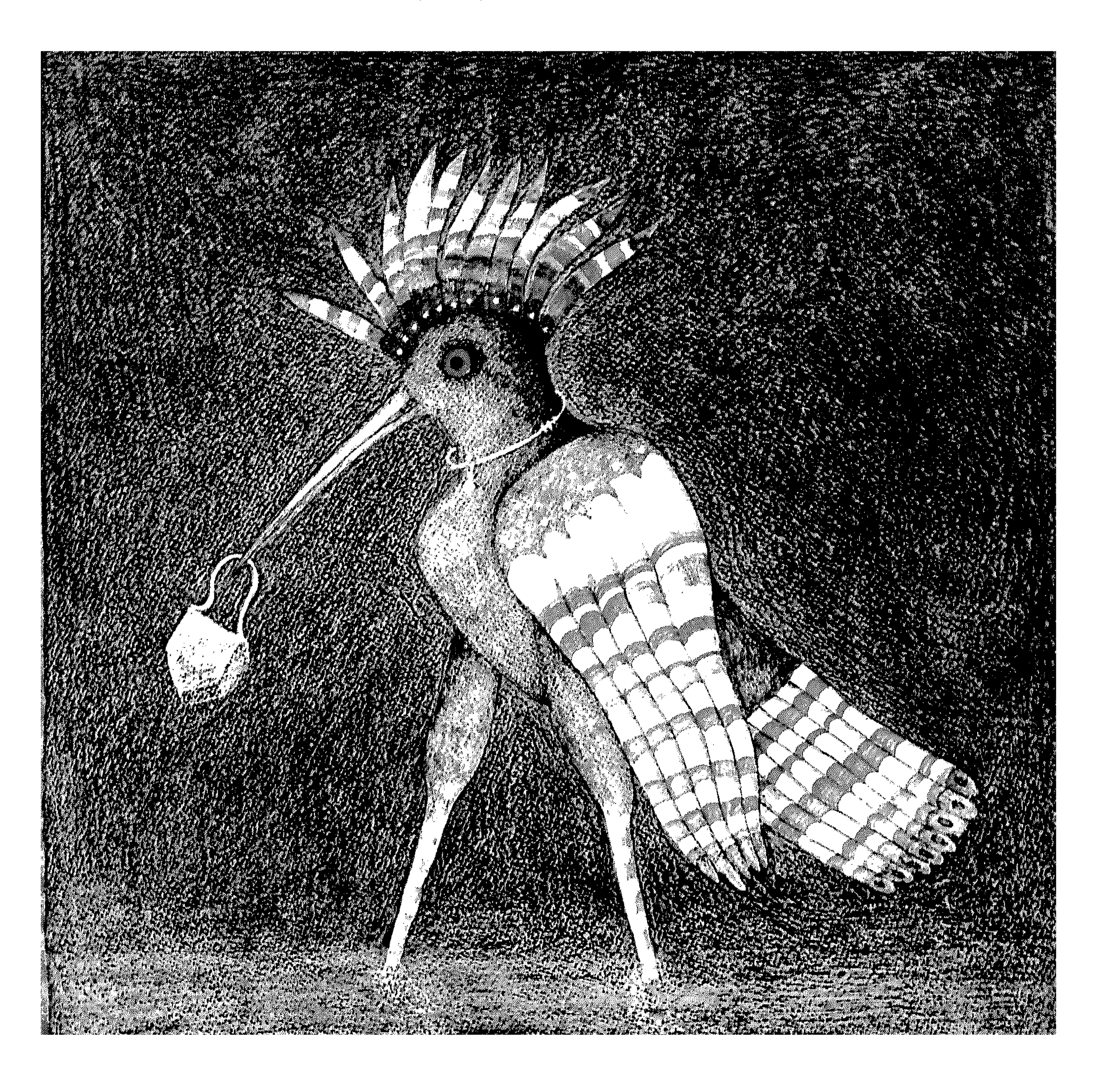
أحمد بهجت

لوحات
إيهاب شاكر

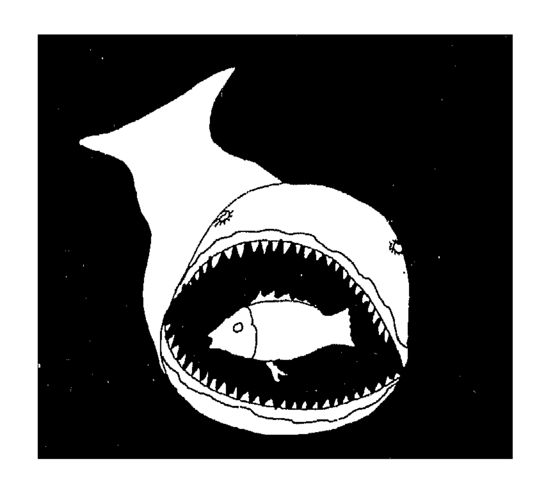
قصص الحيوان في القرآن



دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

قصص الحيوان في القرآن



أحمد بهجت

الطبعة الثانية
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

الطبعة الثالثة
١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

الطبعة الرابعة
١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

قصص الحيوان في القرآن

أحمد بهجت

دار الشروق

لوحات
إيهاب شاكر

إهْـدَاء

إلىـ

أُمي

رَحِمَهَا الله تعَالىٰ مِنّة مِنهُ وَرَحمَة

أحمد رجب



المقدمة

يقدم لنا القرآن الكريم في قصص الأنبياء والأولياء مجموعة من الحيوان الذي لعب دوراً في التاريخ.

الغراب الذي بعثه الله لابن آدم ليريه كيف يوارى سوأة أخيه.

الطير التي ذبحها إبراهيم وفرقها على قمم الجبال، وبعثها الله من الموت.

بقرة بني إسرائيل التي أمر موسى بذبحها لكشف جريمة قتل غامضة.

الذئب الذي اتهم ظلمًا بالتهام يوسف.

هدهد سليمان الذي أطلعه على نبأ بلقيس.

دابة الأرض التي أكلت عصا سليمان وهو ميت على كرسيه فخر عليه السلام على وجهه.

حمار عزير الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه أمام عيني صاحبه.

الحوت الذي ابتلع يونس في جوفه زمناً ثم قذفه إلى البر لأنه كان من المسبحين.

كلب أهل الكهف الذي نام مع أصحاب الكهف ثلاثمائة عام وتسع سنوات.

نملة سليمان التي نادت على النمل أن يدخل مساكنه حتى لا يحطمنهم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون.

فيل أبرهة الذي كان مكلفاً بهدم الكعبة ثم سمره الخوف من الله تعالى في مكانه فلم يتقدم.

وقد ورد ذكر هذه المجموعة من الحيوان في القرآن الكريم، وورد معها ذكر مجموعة أخرى كانت في بعض صورها الظاهرة طيراً أو حيواناً أو نباتاً ولكنها في حقيقتها كانت آية من آيات الله، مثل عصا موسى التي تحولت إلى ثعبان مبين، وطير عيسى الذي صنع منه كهيئة الطير ثم نفخ فيه

فصار طيراً بإذن الله، ومثل الطير الأبابيل التي أرسلها الله تعالى على أصحاب الفيل فرمتهم بحجارة من سجيل..

وقد ورد ذكر هذه المجموعة من الحيوان في القرآن الكريم..

وهناك حيوان ورد ذكره في السنن الصحاح.

عنكبوت الغار التي نسجت بيتها على باب الغار الذي اختبأ فيه رسول الله ﷺ.

نحن أمام مجموعة من أفراد المملكة الحيوانية التي لعبت دورها في الحياة وظهرت على مسرح الأحداث فترة ثم أسدل عليها الستار، ذكرها القرآن الكريم مجرد ذكر، أو قص موقفاً أو أكثر من مواقف حياتها في ومضات سريعة، وبقيت حياتها نفسها غارقة في الغموض.

في طفولتي..

أحببت هذه المجموعة من الحيوان..

كنت أقرأ قصص الأنبياء أو أستمع إليها فلا أستطيع لحداثة سني أن ألتقط قمم المعاني منها، فكنت أكتفي بالتفكير في الحيوان الذي صاحب النبي أو كان في خدمته..

وحين كبرت أكثر.. أخذ حبي للحيوان بعداً آخر.. كل كلب ضال في الطريق هو كلب أريد أن أطعمه وأربت على رأسه.. من يدري.. ربما كان حفيداً بعيداً لكلب أهل الكهف.. وكل حمار هزيل في الريف هو بالنسبة لي مخلوق صديق وحبيب، لم لا يكون إبناً بعيداً لحمار عزير الذي مرت به تجربة الموت والبعث.

ولقد ظللت طوال شبابي أبحث عن هدهد.. ثم أهدى إليّ أحد أصدقائي هدهداً نجح في اصطياده.. وصحبت الهدهد إلى بيتي وأطلقته في فضاء الغرفة ورحت أتأمله.. كان الهدهد منكسر النفس لو صح هذا التعبير.. كان الأسر وفقدان حريته يوشك أن يتجمع دموعاً في عينيه.. وقد مات هذا الهدهد في اليوم الثاني بعد أن أضرب عن الطعام والشراب، وأتذكر احساسي العميق بالحزن وهو يموت.. لم أكن أعرف ماذا أفعل له وهو يحتضر.. وأخرجت القرآن الكريم ورحت أقرأ له قصة سليمان والهدهد.. وأذكر أن الهدهد رفع رأسه الجميل والتفت مرة أو مرتين وهو يسمع الآيات ثم أراح رأسه وأسلم الروح.. وخيل إليّ أنه مات راضياً ينصت لأمجاد جده البعيد..

وقد أوقعني حبي للحيوان في مشاكل عديدة..

ما أكثر المرات التي عدت من الطريق وأنا أحمل كلباً صغيراً أو قطاً أجرب إلى أهلي.. ويبدأ الصراع بيني وبينهم ويرفض أهلي هذا الضيف الجديد الغريب، وأحاول عبثاً أن أقنعهم بأنني سأموت لو تخليت عنه.

كنت زائراً شبه يومي لحديقة الحيوان.

كنت أقف أمام أقفاص الحيوان محاولاً كسر حاجز الصمت الذي تلتف به هذه الخلائق، محاولاً فهم ما تريد قوله ولا نستطيع نحن التقاطه..

وتقدم العمر بكاتب هذه السطور..

وجاء عليه وقت آمن فيه أن الصدق هو أعظم ما في الوجود من قيم.. ولقد وجد الصدق كمادة خام في الحيوان، مثلما نجد الماس خاماً في الأرض لم يصقل بعد. إن للحيوان نظرة صريحة مستقيمة ثابتة حين ينظر إليك.. نظرة تخلو من الخداع والكذب والمداراة، حتى لو كان الحيوان وحشاً من وحوش الغاب ونظر إليك، فإنك لواجد في عينيه رغبة روحه في التهامك.. لا يدلس عليك أو يخدعك..

هو الصدق الوحشي العاري ذاته.. وذلك صدق لا وجود له بين بني الإنسان.. وإذا كانت وحشية الحيوان صادقة، فإن ألمه أصدق، وبكاءه أعظم صدقاً، أحياناً يبكي الإنسان كجزء من خطة موضوعة.. أما الحيوان إذا بكى.. فذلك هو الألم الصادق الذي يستحيل على أرجاء الكون ألا تهتز له بالتأثر.

وتقدم العمر بكاتب هذه السطور أكثر.

راح حبي للحيوان الذي عاصر الأنبياء ينمو في قلبي يوماً بعد يوم. كان حبي بغير جسد.. لم يكن ممكناً أن ألمس هذا الحيوان، واستبدلت بالجسد أجنحة الروح، وقرأت كثيراً عن طباع الحيوان وعاداته.

ومن المدهش، أن القرآن الكريم تنزل منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، وفيه هذه الإشارة السريعة لقصص الحيوان الذي عاصر الأنبياء والأولياء.

ورغم ذلك، فليس هناك كتاب واحد يحكي قصص هذه المجموعة من الحيوان،

لماذا؟ أي سر يكمن وراء هذا التجاهل؟

أرقني السؤال كثيراً.. ثم هديت إلى السر.

أيكون السر أن هذه المجموعة من الحيوان كانت تخدم الأنبياء والأولياء.

لقد حكيت قصص الأنبياء والأولياء في عديد من الكتب، ولم يكن ممكناً في قصص جادة وخطيرة، يتعلق بها خلاص الإنسان وآخرته، أن يلتفت أحد لهذه الأصوات الضعيفة القريبة من الأرض، أصوات الحيوان، أو يتابع مجرى تفكيرها ـ لو كان لتفكيرها مجرى ـ أو يصور لنا دهشتها ـ لو كان ممكناً أن يدهش الحيوان ـ وهي تعيش مع الأنبياء وتشهد هذه المعجزات أو تكون هي نفسها جزءاً من المعجزات.. وهكذا ظلمت هذه المجموعة من الحيوان وانطفأت سيرتها الخاصة على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان. وإذا كانت شدة الظهور تلد الخفاء، فقد حدث نفس الشيء هنا.

ومثلما يحدث لنجوم الليل حين تظهر الشمس في الصباح.. حدث لهذه المجموعة من الحيوان.. لم تغادر مكانها ولكن ضوءها ذاب في الضوء الأقوى.. ذاب في شموس الأنبياء وعلى سبيل المثال.. لم يعد مهما في قصة عزير الذي أماته الله مائة عام مع حماره، ثم بعثه وبعث الحمار أمام عينيه، لم يعد مهما في القصة غير النبي عزير، أما الحمار فمن يلتفت إليه أو يفكر في تأثير التجربة عليه غير حمار من بني جنسه.

أيضاً لم يعد مهمّا في قصة يوسف، وقد القى أخوته تبعة اختفائه على أنياب الذئب.. لم يعد مهمّا في القصة غير أحزان يعقوب وأساه على ولده، أما الذئب فمن يهتم ببراءته أو يلتفت إلى أحزانه غير ذئب من بني جنسه..

وما ينطبق على الحمار والذئب ينطبق على الكلب والحوت وبقية الحيوان الذي عاصر الأنبياء.

لقد ظلت تجربة هذه المجموعة سراً صامتاً يبحث عن لسان للتعبير عن نفسه.. ولقد مات سليمان وداود عليهما الصلاة والسلام.. ومات بموتهما من كان يعرف منطق الطير ولغة الحيوان ويستطيع التفاهم معهما.

أحسب أني غبطت داود وسليمان كثيراً.

لم أغبط سليمان على الذهب الذي كان يغطي به جدران قصوره، فإنني أعلم أن سليمان حين مات لم يصحب معه من هذا الذهب شيئاً، إنما ولد عارياً تتقبض أصابعه على الهواء، وعاد إلى الأرض وقد تقبضت أصابعه على الهواء.. ولقد أدرك سليمان قبل أي انسان آخر أن الذهب خادم للإنسان فالزمه مكانه كخادم، وكان إحساسه به أقل من إحساسه بزنابق الحقول التي تخرج من التراب..

لم أغبط سليمان على تسخير الجن له.. فإنني لا أحب أن يكون كل جن الأرض تحت إمرتي..

لم أغبط سليمان على الإسلام، فقد تلقيت الإسلام عن شمس الأنبياء وأول المسلمين وأكملهم..

إنما غبطت سليمان على شيء واحد..

هذه القدرة على فهم لغة الطير والحيوان ومخاطبته..

أن يجلس الإنسان ليحدث هدهداً.. ويأمره فيستجيب، ويناقشه ويستمع..

أن يبتسم الإنسان من كلام نملة تحذر بقية النمل منه.

تلك قدرة تثير دوار العقل والقلب معاً..

على أي حال..

إذا كان داود وسليمان قد ماتا.. فإن الفن باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها..
ليكن الفن لساناً للتعبير عن حياة الحيوان الذي عاصر الأنبياء أو كان في خدمتهم.

ولا بأس أن يستعين الفن بالعلم في الجزء الذي يمس طباع الحيوان وعاداته وسلوكه.. لا بأس أن يستعين الفن بالخيال في الجزء الذي يمس حياة الحيوان ومشاعره وأفكاره.. أما الجزء الذي يتصل بقصص الأنبياء.. فتلك حقائق على الفن أن يحني رأسه لها ويأخذها كما هي، بل إن الفن هنا ليشرف كثيراً حين يصير خادماً يدعو إلى الله بطريقته الخاصة..

أيقال لنا أن للحيوان غرائز تسيره، وأنه بلا عقل..

أيقال لنا أن الحيوان مخلوق أبكم ليست له لغة..

إنقسم العلماء قديماً إلى فريقين فيما يتصل بإدراك الحيوان ولغته..

فريق يرى أن الحيوان مجرد من الوعي أو العقل من أي نوع. . ورأي هذا الفريق ليس جديداً، وإنما ينحدر من رأي ديكارت. . الذي كان يعتبر مجموع الحيوان مجرد آلات ذاتية الحركة. . أما الفريق الآخر فكان يرى أن الحيوان مهيأ بجميع مميزات البشر العقلية. . ويعرف هذا الرأي بمذهب التشبيهية الإنسانية Anthroponorphism.

وهو مذهب قديم لم يبدأ مع نظرية دارون عن نشوء واصل الأنواع، بل إلى ما قبل ذلك بكثير. .

وقد تأثر كثير من العلماء المشهورين بمذهب التشبيهية الإنسانية هذا. . وكتب العالم الألماني الشهير بريم Brehm صاحب الموسوعة الكبيرة عن حياة الحيوان يقول:

«إن للثدييات ذاكرة وذكاء ومزاجاً، وكثيراً ما تكون لها شخصيات فردية محددة، كما يمكنها أن تفرق بين الأشياء وأن تعي الفروق في الزمن والحيز واللون والنغم، كما أنها قادرة على أن تتعرف على الأشياء وتحكم عليها ثم تتعقل، وهي تعرف الأخطار وتفكر في الطرق التي تتجنبها بها، وهي تظهر الحب والكراهية، وتحب الأليف والصغار، وتعبر عن الشكر والولاء، والاحترام والازدراء، والغضب والرقة، والمكر والمهارة، والأمانة والخيانة، والحيوان الماهر يحسب للأشياء حسابها قبل أن يقدم على شيء منها، والحيوان الحساس الشهم يخاطر بحياته وحريته طواعية من أجل خير المجموع الذي يعيش فيه».

هذه كلمات عالم شهير وقف حياته على دراسة الحيوان. .

أما لغة الحيوان فقد ثبتت بشكل علمي قاطع. . مع اختلاف مدلول اللغة الانساني عن مدلول اللغة الحيواني، مثلاً ثبت أن لكل جماعة من الحيوان أسلوباً للإتصال والتفاهم. . أحياناً بالصوت أو باللمس أو بالرقص أو بالرائحة أو بالإشارة. . المهم أن هناك أسلوباً للتخاطب. صحيح أن العلم لم يحل (بشكل مبدئي ولا نهائي) مفردات هذا الأسلوب. . غير أنه ثبت علمياً أن هناك لغة للحيوان يستخدمها في حياته. . وهي لغة لا تشبه لغتنا البشرية. .

هذا الذي أثبته العلم بعد دراسات استغرقت جهد أجيال من العلماء والباحثين. .

أثبته القرآن الكريم منذ ١٤ قرناً من الزمان. .

منذ ١٤ قرناً من الزمان. . كان الحيوان يعتبر شيئاً نجساً لا عقل له ولا منطق ولا لغة ولا قيمة. . اللهم إلّا القيمة التي يستفيدها الإنسان منه. .

ثم جاء القرآن بنصوص صريحة تثبت أن للحيوان لغته الخاصة، بل وآراءه الخاصة. .

تأمل ما قالته النملة لبقية جنسها وهي تحذرهم من سليمان وجنوده. .

«قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون».

إن النملة تجهل أن سليمان يعرف لغتها، وهي تجهل أنه يسمعها ويحس بها، وهي تفترض أن جيش سليمان وجنوده سيحطمون النمل وهم لا يشعرون. .

إن النملة تستخدم في تعبيرها كلمة «يشعرون».

هذا دليل على أن الشعور شيء يعرفه النمل، وإلّا فكيف يستخدم في لغته ما لا يعرف. .

ثم تأمل كلام الهدهد مع سليمان. .

إن الهدهد يقول لسليمان كلاماً لا يقوله أعظم الفلاسفة الآدميين العقلاء على الأرض. .

إن الهدهد لا يعجبه أن قوم ملكة سبأ يسجدون للشمس. . وهو يسخر منهم ويسأل سليمان دهشاً كيف لا يسجدون لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض. .

هذا الذي أثبته القرآن منذ ١٤ قرناً من الزمان، ولم يزل العلم يحاول كشف طرف منه. . هو معجزة تشهد لهذا القرآن بأنه وحى الحق تبارك وتعالى. . كما تشهد للمسلمين القدامى بعظمة إيمانهم وعمقه، فقد كان التيار السائد على عصرهم ان الحيوان لا ينطق ولا يشعر ولا يعي ولا يدرك، ثم حدثهم القرآن بعكس ذلك فآمنوا ولم يرتابوا. . وصدقوا بغير طلب للدليل أو بحث عنه. .

إنبعثت نفسي للكتابة عن الحيوان الذي عاصر الأنبياء وكان في خدمتهم. .

قدرت أساساً أن تكون قصص هذه المجموعة من الحيوان من وجهة نظر الحيوان ذاته وبأسلوب المذكرات.

قلت أستعير عقولها وغرائزها وأحلامها وأحزانهاواكتب مذكراتها مستهدياً بكلمة الفنان فان جوخ.

ـ حين أرسم زهرة. . أصير أنا الزهرة. .

كان شهر رمضان يقترب، وكنت مطالباً بأن أكتب شيئاً لصفحة الدين في الأهرام، وقررت أن تكون هذه المجموعة من الحيوان ضيوفاً على الصفحة. . لم تكن المهمة يسيرة أو سهلة. . ولكنها كانت ممتعة رغم ذلك. .

ربما كان سهلاً أن أتحول إلى كلب أو ذئب. . لكن كيف أصير هدهداً. . وكيف أتشكل في أهاب الحوت الأبيض الهائل الذي ابتلع يونس. .

حيرتني البداية. . ثم هبت نسائم الرحمة الإلهية فهان كل صعب. . وسهل كل عسير. . وذابت الأحجار في قمم الجبال التي عبرها هدهد سليمان أثناء طيرانه وحكت لي قصته. . كما ارتدت موجات صوت كلب أهل الكهف رموزاً ليلية عميقة تعيد رواية حكايته، وحدثتني قوقعة قذفت بها مياه البحر إنها شهدت حفل التسبيح المهيب الذي أقامه يونس في جوف الحوت. .

وهربت من القاهرة كلها إلى بيت صديقي محمود لطفي عبد الوهاب في الزقازيق وهناك عكفت على القراءة والكتابة، وكان لا بد أن أنخلع من حياتي اليومية في القاهرة وأخلو تماماً لما سأكتب. .

وقد اعتمدت على قصص القرآن كمرجع فيما يتصل بالجزء الذي يمس الأنبياء من القصة. . واستقيت معلوماتي عن طباع الحيوان وعاداته من موسوعة المملكة الحيوانية التي ألفها ثمانية من علماء متحف التاريخ الطبيعي في جامعة واشنطن. . وفيما عدا ذلك أطلقت العنان للخيال بغير حدود. .

وبقدر ما كانت فترة البحث والقراءة ممتدة وصعبة، كانت الكتابة نهراً من اليسر والسهولة، وانقدح في عقلي أثناء الكتابة أن كثيراً من الحيوان الذي عاصر الأنبياء كان رمزاً عميقاً لقدرة الله

أو رحمة الله أو رمزاً لأشياء أخرى عديدة.. كان جسد الحيوان جسداً لحيوان وإشارة لشيء أخطر..

وحل شهر رمضان وأنا لم أزل أكتب..

وبدأت أنشر في جريدة الأهرام مبتدئاً بذئب يوسف..

كان ضيق المساحة حائلاً دون نشر القصص كاملة، وهكذا اخترت بعض القصص ونشرتها بعد اختصار يومي كان يجعلني أشد شعري وأصرخ في المطبعة..

وأذكر مثلاً أنه قيل لي وأنا أكتب عن كلب أهل الكهف: اختصر..

فكتبت في نهاية قصة الكلب أقول:

«خيل إليّ اننا ندخل باب الكهف من جديد، لننام بحق هذه المرة.. خيل إليّ ان «ناهيش» هناك.. في هذا الركن المظلم. لن أحكي ما وقع لنا بعد ذلك.. ربما حكيت ذلك يوماً في كتاب.. إنهم يقولون لي إختصر.. ليس عندهم كلام إلا إختصر.. إنني أهوهو غاضباً، وأريد أن أحكي.. ولكنني أختصر»..

ومرت شهور..

وجاءني «المختار الإسلامي» يطلب نشر المجموعة في كتاب...

وعدت إلى خلوتي وعكفت على استكمال القصص.

ونشر الكتاب وطبع مرتين، وترجمت قصصه إلى اللغة الفرنسية وأعدتها السيدة نفيسة البقلي للبرنامج الأوروبي في الإذاعة المصرية، وصارت هذه الحلقات جزءاً من الإنتاج المتبادل مع الإذاعة الفرنسية، وقد طارت إلى باريس وأذيعت من الراديو الفرنسي..

وكنت أدرك طوال الوقت أن هناك عملاً بدأته ولم يتم..

لم أكن قد كتبت بقية قصص الحيوان.. وكنت أحلم باستكمالها ونشرها في كتاب ملون بالصور..

ثم فاجأني أن مجلة ميكي رأت صلاحية الكتاب للأطفال فنشرته مع رسومات ملونة للفنان إيهاب شاكر..

وجاء شهر رمضان، وأكملت بقية الكتاب، وهكذا نشر الكتاب على امتداد ثلاث سنوات في شهر رمضان.. وآثرت أن ينشر في طبعته الأخيرة في دار الشروق بعد أن أقنعني الصديق إبراهيم المعلم.

وأعترف للقارىء إعترافاً صغيراً..

ان متعتي بهذا الكتاب وأنا أكتبه كانت أكبر من متعتي بعد أن قرأته.. وللعلم.. فإنني لم أقرأه أبداً بعد أن كتبته.. ولكنني مارست خلال كتابته أعذب شعور يمكن أن يمارسه كاتب.

كنت أحس طوال الوقت ان صفحة هذه المجموعة من الحيوان والخلائق قد طويت من زمان، ولكنني كنت موقناً أن لا شيء يضيع، لا الكلمة ولا الإحساس ولا الصورة ولا الموقف..

يظل كل شيء مختبئاً في قلب الكون وذاكرته، يتحول هذا كله إلى أسرار، والمعروف ان البحث عن الأسرار صعب، ولكنني أعترف ان رحلتي لهذه الأسرار كانت ممتعة..

كنت أكتب بسهولة كان أحداً داخلي يهمس لي بكل الأسرار التي تعب هو في البحث عنها وجمعها.

قد يسأل قارىء..

هل هذا كتاب في الدين أو في الفن أو في العلم.

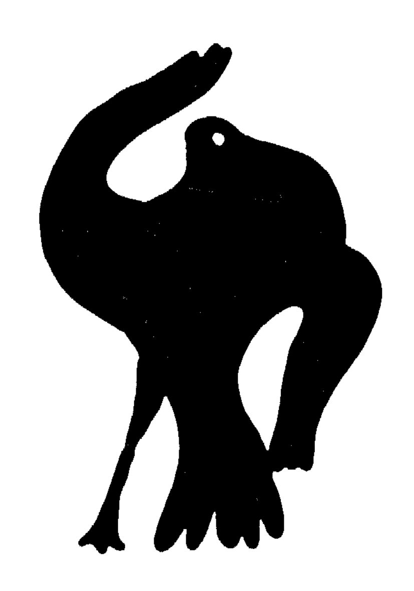
أحسب ان هذا الكتاب أصلاً كتاب في الفن، ان نسيجه الرئيسي فن.. بمعنى الاختراع والتخيل والإبداع.. غير أن هذا النسيج الأصلي يمتزج بنسيجين آخرين هما النسيج الديني والنسيج العلمي..

يبدو النسيج الديني في قصة النبي الذي كان الحيوان في خدمته، وقد أخذت هذا الجزء من القرآن كما أسلفت القول واستعنت فيه بتفسيرات المفسرين للقرآن، كتفسير ابن كثير وقصص الأنبياء وتفسير القرطبي والمنار للقرآن الكريم، وراعيت الالتزام بأحداث القصة الأصلية كما وردت في أرجح التفاسير، ولم أخرج عليها..

ويبدو النسيج العلمي في طباع الحيوان وعاداته التي استقيت من موسوعة علمية.. وقد حرصت أثناء الكتابة على عدم التحرك بحرية في هذين النسيجين.

أما النسيج الأصلي للكتاب.. فقد تحركت فيه بحرية كاملة، مدركاً أن الفن يمنح الخيال حريته بغير حدود، وهكذا سخرت من ظلم الانسان لأخيه الحيوان ما شاءت لي السخرية.. واخترعت أسماء لهذه المجموعة من الحيوان.. وتصورت مواقف سابقة في حياتها قبل التحاقها بخدمة النبي الذي التحقت به.. ولم أكن مقيداً في ذلك إلا بإطار الفن وحده..

احمد بهجت



غُرابُ إبْنِيْ آدَمْ

﴿ فَبَعَثَ الله غُراباً يَبْحَثُ في الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ، قَالَ: يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكونَ مِثْلَ هٰذَا الغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْأَةَ أَخي ﴾.

(سورة المائدة ـ آية ٣١)

يشيب على الأرض كل شيء باستثناء ريش الغراب.

من رأى ما رأيناه واحتمل.. لا يشيب مهما رأى بعد ذلك.

كمخلوق.. كنت شاهد الإثبات الوحيد في أول جريمة قتل ترتكب على الأرض.. شاهدت أول دم إنساني يسفك غدراً، وكنت أعرف ان الله سبحانه يسمع ويرى ويشهد.

كان يوماً قانى الرعب..

أعرف ان الشيطان هو السبب..

ما أغرب تصرفات الشيطان وما أسهل انقياد أبناء آدم له.

يحب الناس الله ويعصونه، ويكرهون الشيطان ويطيعونه، فما أغرب هذا النوع المسمى بالإنسان وما أفدح تناقضاته، وما أعظم حلم الله عليه ورحمته به. ثائر أنا قليلاً فمعذرة.

يقول الناس عن الأيام السوداء التي تمر بهم.

ـ كانت أياماً أسود من ريش الغراب.

أعرف ان لون الغراب الأسود يثير ضيق الناس، رغم أن أعظم الريش سواداً في جسم الغراب لا يقارب سواد قلب الإنسان إذا اسود قلبه.

أعرف أن الناس يسخرون من مشية الغراب، إنه يحجل أثناء سيره كأي مجنون يمشي على الجمر، فهو يتواثب ولا يستقر خطوه.

نفترض أن مشيتنا غريبة. ليكن اننا نقفز ونحجل..

أليس هذا أمراً طبيعياً بعد ما رأيناه من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

كنا نسير قبل خلق الإنسان فنتهادى على الأرض ملوكاً بلوننا الأسود، ومشيتنا القافزة.. ثم شاهدنا أخاً يقتل أخاه فاضطربت مشيتنا من الهول، وورث أبناؤنا عاهتنا وقضي الأمر.



يعتقد الناس ان صوت الغراب بالغ البشاعة. . ولا يكاد أحد من بني جنسنا يصرخ فوق شجرة حتى يتشاءم الناس. .

قد يكون صوتنا أقل في جماله من صوت البلبل. . غير انه لا يمت بنسب إلى الشؤم. . الشؤم كلمة إنسانية تنطبق على تصرفات ابن آدم.

أحياناً يتصرف الإنسان تصرفاً رهيباً، فإذا صرخ غراب فوق شجرة هناك، نسي الإنسان تصرفه وذكر صوت الغراب وتشاءم!!

حيلة قديمة يلجأ إليها ابن آدم. . وليس كابن آدم مخلوق يستطيع أن يخدع نفسه أو يدلس عليها. .

يتهم النوع الإنساني جنس الغربان بالسرقة والخطف، وعقوق الوالدين والأهلين. . يقول الناس عنا إننا نسرق الكحل من العين ونسرق الصابون من أسطح المنازل. . ونحن لا نعرف ما هو الكحل أصلاً. . كما اننا لا نستخدم الصابون حين نستحم. . لا نحتاج إليه. .

أجسادنا وأفكارنا في درجة التلوث القصوى لا تحتاج إليه.

أعتذر عن لهجتي الحادة.

من رأى ما رأيته ينبغي أن يفقد صوابه.

قاض أنا في دنيا الغربان. .

وشاهدعلى دنيا الناس. .

يفقد القاضي عدله ونزاهته حين يفقد حيدته وأعصابه وينحاز.

وقد لعبت الدورين معاً. . قاضياً كنت في الغربان. . عادلاً كنت ومحتفظاً بأعصابي وحيدتي، فلما هبطت للشهادة في دنيا الإنسان انخلع عني تاج القضاة وفقدت أعصابي وصرخت. . ثم بعثني الله لألقن ابن آدم درساً في الرحمة.

قلت يومها لقابيل ناعياً ناعباً بصوتي الحاد.

ـ نعرف انك وحش قاتل. .

رغم ذلك فإنك تجهل. .

رغم انك إنسان. . يفترض فيه العلم. .

جاهل يجهل انه جاهل. . جاهل لا يعرف كيف يواري سوأة أخيه.

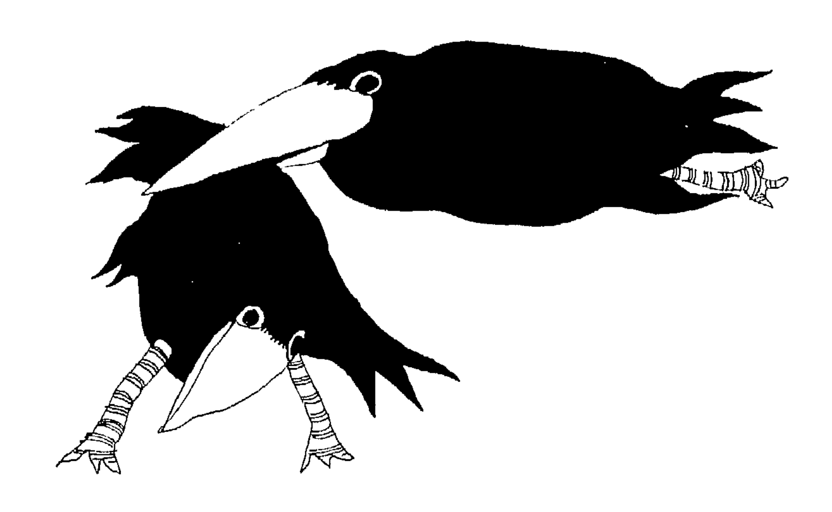
لم أزل منفعلاً فمعذرة.

أحياناً أفكر فيما حدث بهدوء وحيدة كالقضاة.

إن الاعتداء جزء من شيمة المخلوقات. . هذا صحيح. . أحياناً يعتدي أحد الغربان على الجماعة. . عندئذٍ تنعقد له محكمة. .

من المعروف عن الغربان ان لها محاكم تلتزم قوانين القسط والعدالة. .

وتدور هذه المحاكمات عندما يغتصب أحد الغربان عش غراب آخر. . أو يحاول اغتصاب أنثى غراب آخر. . أو يعتدي على طعام الغربان الصغار. .



ولكل جريمة من هذه الجرائم عقوبتها الخاصة. .

في حالة اغتصاب العش نكتفي بهدم العش المغتصب ونصرخ مؤنبين السارق ونلزمه ببناء عش لمن اغتصب منه العش.

في حالة اغتصاب أنثى غراب آخر، تقتل الجماعة المعتدي ضرباً بالمناقير.

في حالة اغتصاب طعام الصغار تنتف الجماعة ريش المعتدي حتى يصبح كالصغار بغير ريش.

وأحياناً يضاف إلى عقوبة التأنيب أو نتف الريش عقوبة الطرد من الجماعة. وتنعقد محاكم الغربان عادة في أرض فضاء أو حقل واسعة وهناك ينتظر الذين سبقوا بالحضور بقية جنسهم ممن تأخر. .

ويستمر الانتظار أياماً وليالي إلى أن يتكامل العدد. .

عندئذٍ ننحي المعتدي ونقيم عليه حراساً وتبدأ محاكمته.

يشرع الباقون في النعيب والنعيق جماعات. .

ويرد المتهم ناعباً ناعقاً. .

ويعاود الشهود النعيب ويصفقون بأجنحتهم حانقين ثائرين. .

وينعق الغراب المتهم ويصفق بأجنحته هو الآخر. .

ثم يخفض الجاني جناحيه وينكس رأسه ويمسك عن النعيب. .

هذا اعترافه بالذنب. .

عندئذٍ يصدر حكم القاضي فيثب الغربان جميعاً على المذنب ويوسعونه تمزيقاً بالمناقير حتى يموت. .

ثم تنعب الغربان نعيباً متوالياً وتطير. .
يحمل أحدها القتيل لدفنه ومواراة جثته. .
قد يكون الغراب القتيل مذنباً. .
لكن للموت حرمة ينبغي معها إكرام الجسد بدفنه. .
وهكذا يعدل الغربان في الحالتين. . في الحياة والموت. . والعدل في جنس الغربان أقوى ما فيها من غرائز. . والأصل ان العدل في دنيا الإنسان مكتسب ونسبي، بينما هو في دنيا الغربان غريزي ومطلق. .
ثمة قواعد أساسية لا تتبدل ولا تتغير ولا تتطور عندنا. من خرج عليها خرج على الجماعة واستحق نبذه وقتله. .
هذه القواعد والقوانين ليست من وضع الغربان. . إنما هي حاكمية خلقها الله فينا وأودعها فطرتنا وألزم جبلتنا بها. .
لا نشرع القوانين لأنفسنا. .
نعرف ان النفس تميل مع الهوى، وتنحاز لما فيه مصلحتها، وترى الخشبة البارزة في عينيها قشة، وترى القشة في عين الغير شجرة. .
تجاوز جنس الغربان هذا كله إلى شاطىء الأمان حين استسلم لتشريع الخالق. . إن عمل القانون يستلزم التجرد من الهوى، وأي مخلوق يتجرد من الهوى غير الملائكة. .
يذكرني الملائكة بأيام الخلق الأولى. .
كانت الأرض سلاماً عظيمًا قبل هبوط الإنسان فوقها. .
أمواج البحر عذراء لم تمخرها سفينة، والرياح نقية لم تلمس جبهة إنسان، والحقول الموجودة في الأرض كلها لم تطأها أقدام بشر. . لم تزل الدنيا نقية لم تلوثها كذبة واحدة. . كل شيء ينبض بالصدق. .
الجبال تتألق بالثلوج البيضاء تحت أشعة الشمس المنكسرة. . والبحار تتنهد فيرتفع صدرها الأزرق المزبد وينخفض. . ومن الحقول الخضراء يتصاعد عطر ذكي ينتشي به الهواء. . كل شيء بالغ الجمال والسحر، رغم ذلك كان هناك شيء موحش في الصورة. . إن شيئاً ينقص المشهد. .
أن يدب الإنسان على الأرض وسط هذا الجمال ويرفع يديه لأعلى ضارعاً لله ويسأل. .
عندئذٍ يبرز المعنى الحقيقي وراء خلق الجمال المجرد. .
تكتسب الأشياء جمالاً أقل ومعنى أكبر حين تعرف وتخطىء وتتوسل. .
هذا شأن المعرفة دائمًا. . تخدش البراءة في البداية ثم تولد المعرفة بعد ذلك. . يتمتع ملائكة الله بالبراءة. . أما الإنسان فقد خدشت براءته في الجنة. . اغتصبها الشيطان لحكمة أزلية عليا هي تعمير الأرض وسكناها. كنا نعرف أن الإنسان قادم من الجنة. .
في البدء كانت الدموع. .
كان بكاء آدم وحواء على الأرض مشهداً مؤثرا للغاية. . . وعرفنا من صوت الدموع قدر الذنب ومعنى العصيان وصدق التوبة. .

كان آدم مقيمًا في التوبة إن صح هذا التعبير..

يا لجلال وجهه المهيب..

كان في العينين حنان أبوة يكتسح السدود ولا يتوقف عند ولد دون ولد.. أما حواء فكانت أماً لكل النساء على الأرض..

«ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين».

كانت هذه دعوتهما معا لله..

وضعت حواء أول بطن لها.

لايبيض الآدميون مثلنا نحن الطيور، إنما يلدون..

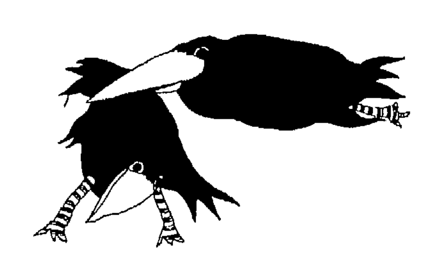
كانت حواء تضع في البطن الواحد ولداً وبنتاً..

وفي البطن الثاني ولداً وبنتاً.. وكان ولد البطن الأول يحل لبنت البطن الثانية..

ولدت حواء قابيل وأخته أقليما..

ولدت هابيل وأخته ليوثا..

كبر الأخوة معاً..



انحدر هابيل من التل وهو يضحك.. وجهه يترقرق بطفولة أعوامه الثمانية، ووراءه يندفع قابيل وهو يمسك في يدِه بفرع شجرة محاولاً أن يلحق أخاه.. يلعبان معاً كالعادة..

لست أعرف لماذا يبدو أحد الأخوين رقيقاً كزنابق الحقل.. ويبدو الثاني قاسياً كشوك الجبال.. يحدث دائمًا في اللعب أن يختار قابيل دور الصياد، ويختار لهابيل دور الفريسة، ويحمى اللعب وتلمع عينا قابيل بالكراهية وهو ينهال على هابيل ضرباً بما في يده..

في البدء كان هابيل يضحك.. ترن ضحكته بين التلال والأشجار مثل ينبوع يضيء بالصفاء والمرح، ويقسو قابيل ويمسك فرع الشجرة بيديه معاً بدل يده الواحدة.. ويتحول وجه هابيل من السرور إلى الألم، وينتهي رنين ضحكته بما يشبه الصرخة..

ويهرع آدم إليهما فيجد هابيل جريحاً وقابيل ماضياً في اعتدائه.. ويصرخ آدم:

ـ قابيل.. ماذا فعلت بأخيك هابيل..

ويرد قابيل ـ نحن نلعب.. وقد اختار هابيل دور الفريسة.

ويصرخ آدم مؤنباً قابيل.. ويفصل بين الأخوين.. يلوم قابيل ويمسح جراح ابنه الطيب.. ويحدثهما إنهما شقيقان خرجا من أم واحدة.. ويعيشان فوق أرض واحدة وينبغي أن يجمع بينهما الحب لا الكراهية.. وكان أعظم ما يثير دهشتي.. ان قابيل كان يغلق فمه القاسي ولا يدافع عن نفسه.. بينما كان هابيل يدافع عن أخيه ويتوسل لأبيه أن يصفح عنهما معاً..
في العشرين من عمره..

إرتفعت يد قابيل وهوت على وجه هابيل بضربة قوية وهو يصرخ: هذا كوخي أنا.
تركت أصابع الأخ على خد شقيقه علامات حمراء واضحة.. فوجىء هابيل بالإهانة، واحتدم داخله الغضب وتجمعت في عينيه دموع سريعة معذبة.
قال هابيل ببراءة - أنظر إلى يدي.. لقد تسلختا في بناء الكوخ..
قال قابيل بحسم - لن تبيت في الكوخ بعد الغروب القادم للشمس.. لقد تكلم قابيل.
رد شقيقه بوداعة - يريد هابيل أن يقول كلمة هو الآخر.. إنني أحبك يا قابيل فلماذا.. لم يسمع قابيل شيئاً.. كان قد غادر المكان..
لم أر هابيل يحدث آدم بما وقع.. لا أعرف لماذا.. ربما كان يحس ان قلب الأب يمتلىء بأحزان مصدرها تصرفات قابيل، وخشي أن يزيد أحزانه عمقاً، وربما قال لنفسه أن تهديد قابيل كلمة لا يعنيها.. وحين جاء الغروب القادم للشمس.. فوجىء هابيل بأخيه قابيل يقتحم عليه كوخه وقد تقبضت أصابع يديه على حجر مدبب..
وقبل أن يفتح هابيل فمه بكلمة، كان الحجر يشق جبهته ويفجر منها الدم.. وحمله قابيل وألقاه خارج الكوخ.. وضمد هابيل جرحه بالأعشاب ونام في مكانه.. وفوجىء آدم بابنه ينام خارج كوخه.. وفوجىء بدمه المتجمد على جبهته.
وصرخ آدم نفس صرخته التقليدية وإن كانت تشرب هذه المرة من ينابيع حزن أعمق.
- قابيل.. ماذا فعلت بأخيك هابيل.

كان قابيل لا يشبه هابيل..
وكانت إقليما شقيقة قابيل لا تشبه ليوثا شقيقة هابيل.
كان قابيل أقسى من هابيل.
وكانت ليوثا أقل جمالاً من إقليما.
وكان المفروض أن يتزوج هابيل من إقليما، ويتزوج قابيل من ليوثا..
بيني وبين نفسي.. كنت أفضل هابيل على شقيقه، وكنت مرتاحاً لأنه سيتزوج الأجمل.. إن هابيل لا يغضب عندما نأكل من طعامه..
شاهدني يوماً أقف أمام بيض الدجاج الذي يربيه فمد يده وناولني بيضة.. وسررت من تعاونه مع جنس بسيط كجنسنا.
هذا رجل يدرك حكمة التعاون بين الخلائق، ويدرك معنى الرحمة..

هو رجل يعرف الله، ويحبه، ويخافه.

أريد أن أركز عقلي لأضع شهادتي على جميع الخرائب والأطلال، وأحكيها للرياح التي تصفر في أعظم الأماكن وحشة.

صرخ قابيل ـ لا.. أنا خير منه.

كان الشيطان يقف وراء الكلمة..

قالها إبليس عن آدم، ويلقنها اليوم لابن آدم ليقولها عن أخيه.

عاد قابيل يصرخ أمام أبيه: لن أتزوج ليوثا.. سأتزوج إقليما.. كانت معي في بطن واحد.. أنا أولى بها.

أفهم آدم ولده أن أخته لا تحل له..

رفض قابيل أن يتزحزح عن موقفه.. أدهشتني جرأته، ولم أعرف كيف يتصرف آدم.

قال آدم: ليقرب كل منكما قرباناً إلى الله.. من تقبل الله قربانه كان على الحق.

تنحى آدم عن الفصل بينهما وترك ذلك للسماء.

لم أعرف كيف يتقبل الله القربان. ولم أعرف ما هو القربان أصلاً..

انتظرت أياماً شغلتني فيها دنيا الغربان بقضاياها ومشاكلها.

كان هناك غراب مغتصب هارب نبحث عنه لمحاكمته.

وجاء يوم تقديم القرابين إلى الله.

جاء هابيل يحمل أسمن كباشه ووضعه على الجبل وصلى لله تعالى أن يتقبل.

وجاء قابيل بقمح لم يزل أخضر في سنابله.. جاء بقمح لم ينضج بعد.. كان قابيل حريصاً وبخيلاً إلى الحد الذي فشلنا فيه ـ نحن الغربان ـ أن نذوق طعامه. قدم قابيل قربانه ومضى..

وقف الشقيقان بعيداً..

تمنيت في قلبي ـ بوصفي قاضياً غير منحاز ـ أن يتقبل الله من هابيل.

هبطت من السماء نار أكلت قربان هابيل إشارة إلى القبول.. وصرخ هابيل صرخة الحمد والفرح وصرخ قابيل بكلمة القتل..

كان قابيل يقف وقد مد أمامه كفيه وراح يتأمل بنظره نقطة هناك عند الأفق.. ورغم صمته المطبق فقد كانت تنبعث منه موجة من العداء تكاد تحس جسدياً.

كان يوماً رائعاً من أيام الله.. الشمس تنشر دفئها في الجو، وأشجار الصنوبر الممتدة على طول الأفق تستحم في أشعة الشمس، وتأخذ جذوعها لون الكهرمان الذي تقذفه البحار، ومن الجبال القريبة كانت تهب الرياح وهي تحمل من أعماق الوهاد والشعاب المغطاة بمخمل الغابات الأخضر، عبير الغابة البكر والزهور الإلهية..

عاد قابيل يصرخ ـ لأقتلنك..

لم يدر هابيل سر غضب قابيل عليه..

لا يدرك النقاء عادة دوافع الإثم وشروره..

لقد تقبل الله من أحدهما ولم يتقبل من الآخر.

قال لشقيقه إن الله يتقبل من المتقين.

عاد قابيل يتمتم - سأقتلك.

رد هابيل وهو يستدير عائداً لكوخه وأزهاره..

«لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك.. إني أخاف الله رب العالمين.. إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين».

إنصرف هابيل مع زوجته إقليما..

تزوجا وعاشا أياماً..

حين ظهرت أعراض الحمل عليها كانت نفس قابيل قد طوعت له قتل أخيه..

عثرنا على الغراب المغتصب الفار وبدأت محاكمته..

إستلقى هابيل على الأرض بعد عمل يوم شاق..

لم يكد يتوسد حقل الزنابق حتى استغرق في النعاس.

إنحدرت الشمس نحو الغرب..

إستمرت محاكمة الغراب الآثم..

إمتلأت السماء بدم الشفق.. وتسلل قابيل وهو يشدد ضغطه على فك حمار عثر عليه في الغابة.

مات حمار في الغابة القريبة فأكلت السباع لحمه وأكلت النسور ما بقي منه وشربت الأرض دمه وبقي فكه العظمي ملقى على الأرض.

حمل قابيل أول سلاح في الأرض وراح يمضي باحثاً عن شقيقه.

وجده نائمًا فتحرك نحوه..

أثاره شيء لست أدريه في الوجه النبيل الحالم.

إستيقظ هابيل وفتح عينيه..

إرتفعت يد قابيل بالفك العظمي وهوت بسرعة..

إنبثق الدم من وجه هابيل وملأ صدر قابيل..

عادت اليد الآثمة تهوي على الوجه الطيب..

وفي الضربة الخامسة.. إرتطمت يد قابيل بطين الحقل..

سكنت حركة هابيل تماماً.. وأدرك قابيل أن أخاه قد مات..

كفت يده عن ضرباتها السريعة القاسية.. جلس واجماً أمام ضحيته..

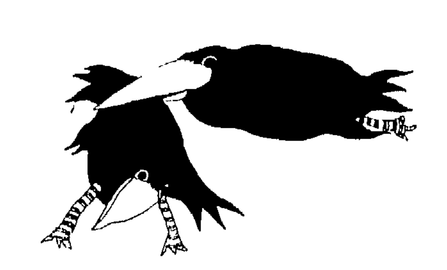
لم ننته بعد من محاكمة الغراب الآثم.. أجلنا المحاكمة للغد.. أقمنا على الغراب حرساً وانصرفنا..

وقفت على شجرة فوق رأس قابيل ونعقت صارخاً..

- قابيل.. ماذا فعلت بأخيك هابيل؟

رفع قابيل رأسه ونظر إليّ..
كان وجهه يرتعش..
إستغرقت محاكمة الغراب المتهم ساعات..
كان يكذب.. وينكر التهم المنسوبة إليه.. ويجادل.. غير أن تقدم المحاكمة كان يضيق الخناق حول عنقه، وطوال الوقت الذي استغرقته المحاكمة كان قابيل يحمل أخاه على ظهره ويسير به.
لا يعرف ماذا يفعل بجثته..
إن النسور تحوم حولها.. والوحوش تقبل على الرائحة..
وقابيل يخشى أن يترك أخاه فتلتهمه الوحوش.. ولذلك يحمله على ظهره ويسير..
لا يعرف ماذا يفعل به.. ولا يعرف كيف يتصرف فيه..
إنتهت محاكمة الغراب وثبتت كل التهم المنسوبة إليه..
وأصدر القضاة حكمهم عليه بالموت..
تم تنفيذ الحكم في الغراب الآثم..
حملت الغراب الميت لدفنه في مكان بعيد..
كنت أطير وأنا أحمله في منقاري حين أحسست أن قدرة خفية توجه أجنحتي نحو قابيل.
لم أكن أنوي أن أمر على قابيل.. لا أحب قابيل..
لكن أجنحتي تتجه رغم إرادتي إليه..
ثمة أمر جليل يعلو على إدراكي ويوجه أجنحتي..
أمرني أحد الملائكة الكرام..
ـ أيها الغراب.. إن الله تبارك وتعالى يبعثك لترى ابن آدم كيف يوارى سوأة أخيه..
هبطت على الفور بحملي أمام قابيل..
وضعت الغراب الميت أمامي ورحت أحفر الأرض..
حفرت الأرض بمخالبي ومنقاري..
ساويت أجنحة الغراب الميت إلى جواره..
زفعته بمنقاري ووضعته في لحده..
صرخت صرختين قصيرتين، ثم أهلت فوقه التراب..
بعدها نظرت لابن آدم..
قالت نظرتي: قتلناه بالعدل ورغمها نعرف لجثته حق الاحترام.. أما أنت..
رحت أنعق وأنعب في وجهه.
بعدها طرت في الهواء متجهاً نحو الغرب.
سمعت وأنا أطير مبتعداً صرخة قابيل..
«يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي». خيل إليّ أن الصرخة تحترق بالندم..

لم أعرف من أي نبع كان ندمه يصدر.
أكان نادماً لأنه حمله كل هذه الساعات وهو يجهل دفنه..
أكان نادماً لأنه قتله بغير الحق..
لا أعرف..
كل ما أردت معرفته هو حال زوجة هابيل..
ملأني السلام حين عرفت انها تنتظر الوضع.
أردت أن أطمئن على الجنس البشري وأتأكد أنه ينحدر من صلب رجل كريم يخاف الله..
أعرف أن أبناء قابيل القاتل سيملأون الأرض.. أعرف ان الصراع لن يتوقف بينهم وبين أبناء الشهيد الطيب..
وربما تكررت مأساة الأب مع الأبناء..
أعرف هذا كله.. وأجهل الحكمة من وراء هذا كله..
ليست وظيفتي هي المعرفة..
شاهداً كنت على ابن آدم وأستاذاً له لحظة من الزمن، لكن مهمتي ليست هي المعرفة.
ربما كان الإنسان يعرف..





ناقة صالح

﴿ هٰذِهِ نَاقَةُ الله لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ في أَرْضِ الله وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَليمٌ ﴾.

(سورة الأعراف ـ آية ٧٣)

لست غير خير محـض لا يعرف الشرور. .

براءة البراءة. . هذه أنا. .

لم أؤذ أحداً قبل أن أولد، ولم أؤذ أحداً بعد أن ولدت. . ورغم ذلك أدركني الذبح دون أي ذنب جنيت. . رغم تحذير الله لمن يفعل ذلك. . رغم هذا ذبحت. .

كان معنى ذبحي يشبه معنى ذبح البراءة على هذه الأرض. . وربما كان ذبحي هو بداية القانون الذي يجبر الخير أن يقدم دمه على مذبح الحياة. . نعم. . كانت حياتي مدهشة.

ولدت من أحضان جبل شاهق بكلمة من الله. . كنت جزءاً من الصخور لا أدرك غير أنني صخرة، وتحولت طيات الصخر الجامد إلى لحم لين، وتدفقت الدماء في العروق، وراح الدم يصنع اللبن. . امتلأت أثدائي باللبن. . كنت أحمل وليدي في بطني فلما ولدته دررت اللبن الذي باركه الله، وسقيت آلاف الجوعى والظامئين من اللبن. . كنت أسقيهم يوماً. . وأسقي ولـيدي الصغير يوماً. .

لم أكن أعرف من أسقيه اللبن، لم أكن أعرفهم، ولا كنت أعرف أسماءهم. . كنت أسقيهم مجاناً بلا أجر. . غير أن يحمدوا الله حين يرتوون.

رغم هذا كله قتلت. إمتدت السكين يوماً إلى عنقي. . إنني أموت الآن. . أموت منذ ثوانٍ. . حين أدركت انني أموت بحثت عن مداد أكتب به فلم أجد غير خيط نازف من دمائي. . وقد كتبت به قصتي. . فإذا كانت لم تكتمل فليس السر انني لم أكن أريد أن أكملها. . إنني أموت وابتسامة طيبة على وجهي. . أتبتسم ناقة. .- نعم. . إذا كانت ناقة ولم تكن ناقة. . إذا كانت صورة لحيوان ورمزاً لآية، حين تكون شيئاً وتكون في نفس الوقت رمزاً لشيء آخر فإنك لا تموت. . أو تموت وعلى وجهك ابتسامة من يدرك أنه في طريقه إلى النوم. . عارفاً انك سوف تستيقظ مرة



أخرى.. نعم.. ما أعظم المآسي التي تنبع من إحساس الناس انهم سيموتون ولن يبعثوا..

كانت هذه مأساة من قتلني..

ناقة صالح.. هذا اسمي في التاريخ البشري..

وناقة الله.. هذا اسمي في كتاب الله «ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية».

نسبني الله عز وجل إلى اسمه تشريفاً لي، وإعلاء لشأني، فقد كنت ناقة ولم أكن ناقة..

كنت صورة لناقة.. بينما أنا آية من آيات الله في الجوهر.. وكل شي في الوجود صورة وآية.. من أين أبدأ..

كان ميلادي مفاجأة لي قبل أن يكون مفاجأة لقوم صالح..

فوجئت انني ولدت.. حملت إلى مفاجأة الحياة بعد العدم إحساساً جديداً.. بصراحة كان إحساسي يشبه الغربة..

كنت أعرف انني أرتدي جلد الناقة، رغم إنني لست ناقة، وكنت أعلم انني رمز للبراءة في عالم يكره البراءة..

كنت حباً محضاً يواجه الكراهية البحتة..

كان موقفي بالغ الحساسية والتعقيد.. كنت أحمل أجسام النوق وطباع النوق وتصرفات النوق، ولكنني في ذات الوقت كنت أنطوي بهذه القشرة على باطن لا علاقة له بعالم الفطرة الحيوانية.. كان باطني ينطوي على عالم متسع ورائع هو عالم آيات الله..

وقد أدركت بعد أن ولدت قصة مولدي كمعجزة..

ولدت في قوم ثمود.. وهؤلاء قوم أقوياء الشهوات ضعاف العقول، وقد زادت مأساتهم بثرائهم فأضيف لقوة الشهوات قدرة عليها.. وكان هؤلاء القوم يعبدون الأصنام.. لم يكن المجتمع كله منغمساً في هذه الخطيئة المروعة.. كان هناك من يرحل بعقله في الكون حوله ويعود مؤمناً بالله.. ولكن الأغلبية كانت قد انجرفت إلى عبادة المصالح الخاصة والذهب وكل أوثان النفس ورغباتها التي لا تحد.. ثم شاء الله تعالى أن يبعث نبياً إلى ثمود.. اصطفى منهم أكثرهم توحيداً ونقاءً وصلاحاً وبعثه إلى قومه..

كان اسمه يحمل حقيقة جوهرة..

صالح.. كان هذا اسمه..

قال صالح عليه السلام لقومه «يا قوم إعبدوا الله ما لكم من اله غيره» نفس الكلمة التي قالها من قبله هود ونوح وكل أنبياء الله ورسله.. نفس الكلمة التي قالوها من قبله قالها هو من بعدهم.. لا تتغير الكلمة من نبي إلى نبي.. أمانة النبي في جوهرها تكمن في تسع كلمات..

يا قوم إعبدوا الله.. ما لكم من اله غيره..

والعبادة تبدو يسيرة وفطرية وبدهية وحقيقية.. ولكنها في الواقع الاجتماعي تكون بمثابة الثورة.. إن معنى تطبيقها هجر كل الآلهة المعبودة، وكل المصالح التي تتعلق بهذه الآلهة الموجودة في أوهام الخلق، وهذا يعني تغيير المجتمع من أساسه، ويعني إعادة بناء قيمه وتصوراته، ويعني إعادة بناء أخلاقه وعاداته، ويعني هدم المؤسسات القائمة على الشرك، وهذا يعني أن هناك مصالح

سوف تنهار، وإذن تدافع هذه المصالح عن نفسها بحد السلاح..

كان أول سلاح وجهه القوم إلى صالح قولهم له: أثبت إنك نبي..

قبل أن يطالب قوم صالح نبيهم أن يثبت أنه نبي، حدثوه حديثاً غريباً.. كان قد نهاهم أن يعبدوا ما عبد آباؤهم من الأصنام وكان قد دعاهم إلى عبادة الله الخالق المبدع وحده..

وقالوا له: «يا صالح.. قد كنت فينا مرجوا قبل هذا.. أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا، وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب»..

إن وجهة نظرهم تبدو لي - أنا الناقة - طلسما أو أحجية.. كان لهم رجاء فيه قبل أن يبعث بالنبوة.. كان علمه محل احترام، وعقله موضع إعجاب، وكلامه موضع تصديق كامل، وكانوا يفكرون أن يجعلوه رئيساً عليهم أو شيخاً لقبيلتهم، ثم أفسد كل شيء بهذه الدعوى الجديدة.. يدعوهم إلى عبادة الله وحده..

ماذا يفعلون في آلهة الجدود والأسلاف.. كيف يدارون خجلهم أمام ذكرى الآباء والأجداد إذا أهملوا عبادة آلهتهم..

تأمل المنطق المعكوس الذي يرفضه ظاهري الحيواني وباطني المضيء. إن هذا منطق لو تحدث به خروف لإحدى النعاج لمأمأت سخرية منه، كان المفروض ما دام صالح محل احترام وتصديق، أن تكون نبوته محل احترام وتصديق، ولكن الذي حدث هو العكس.. بعد تصديقهم لصالح بدأ الشك فيه. «وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب» أشاح صالح عن منطقهم المعكوس وسألهم كيف تصدقون إنني نبي من الله؟.

هنالك قالوا له: اثبت إنك نبي.. إنك تدّعي انك مبعوث من الله، ونحن نشك في دعواك، لماذا لا تقدم بينة على دعواك..

سأل صالح وصدره مازال على اتساعه لقومه.

ماذا تريدون أن أقدم؟.

قالوا: قدم بينة على نبوتك..

سألهم: ماذا تريدون؟.

قالوا: لا تتصور اننا نقوم بتعجيزك أو الضغط عليك..

لكننا نريد أمراً خارقاً لم يحدث من قبل.. نريد آية من الله على نبوتك.. نريد شيئاً لم يقع من قبل..

سألهم صالح: ماذا تريدون؟

قالوا: هذا الجبل القريب.. لماذا لا يلد ناقة.. لماذا لا تدعو الله أن ينشق الجبل عن ناقة تخرج منه.

سأل صالح: وتصدقون انني مرسل من الله لو فعلت؟

قالوا: نعم.. عندئذٍ نصدقك.. عندئذٍ فقط.

قال أحدهم: ليس قبل ذلك..

حاور صالح قومه في نوع المعجزة الخارقة التي أصروا عليها.

قال لهم: أنتم تطلبون آية مادية خارقة.. وهذه الآيات خرق للناموس، وليس من أدب العباد أن يطلبوا من ربهم خرق الناموس ليؤمنوا به.

قالوا له وهم يتصايحون: اعترف انك لا تستطيع.

قال لهم: أنتم تتصرفون الآن مثل أطفال يريدون لعبة مبهرة.. وليس هذا من كمال الأدب مع الله..

قالوا له: يا صالح.. من حقنا وأنت تزعم إنك مرسل من الله أن تقدم إلينا الدليل على دعواك..

قال صالح: أخشى لو أجبتكم إلى طلبكم أن تكفروا بهذه الآية بعد حين، أخاف عليكم من عذاب الله لو فعلتم..

قالوا: لن نفعل.. نحن نعاهدك أن نؤمن بهذه الآية ولا نمسها بسوء.

قال صالح: تعاهدونني على ذلك.

قالوا: لك عهدنا جميعاً..

حين أدرك صالح أنهم مصرون على طلب المعجزة الخارقة دعا ربه أن يجيب القوم إلى طلبهم، وأجاب الله القوم..

وخرجت من صخور الجبل ناقة هي أنا..

هكذا ولدت..

بكلمة من الله من صخور جبل..

فوجىء القوم حين رأوا ما طلبوه قد تحقق.. سطعت الخارقة أمام أعينهم فبهرتهم وأخضعتهم..

أحنوا رؤوسهم واعترفوا أن صالحاً مرسل من ربه، اعترفوا أنه نبي، ووعدوا جميعاً أن يقبلوا دعوته..

إنصرف الجميع وتركوني وحدي..

قال صالح لهم: إن الله يعدكم بعذاب قريب إذا مس أحدكم الناقة بسوء.. واعترفوا له أنهم لن يمسوها بسوء..

مضى القوم ومضى صالح وتركني الجميع وحدي.. وبدأ احساسي بالغربة، لم أكن صخوراً ولا ناقة، صرت آية يقف عليها سيف التحذير الآلهي.. ويعني المساس بها الوقوع في العذاب.

لم أكن أفهم كآية وناقة معاً من الذي يفكر في إيذائي.. لم أكن أفهم كيف يجري ذهن مخلوق للاضرار بي..

لم أكن أكره مخلوقاً فيهم.. على العكس.. كنت أحبهم جميعاً بلا استثناء.. سرت قليلاً في طرقات المدينة..

من الحجر والصخر كانت بيوتهم.. كان لاغنيائهم قصور في سهول المدينة، وكانت لهم بيوت منحوته في الجبال. مضيت أسير.

حين استيقظ الناس بعد مرور يوم من المعجزة، كان أول شيء فعلوه انهم تحلقوا حولي.. كانوا يتأملونني بدهشة بالغة وانبهار مطلق..

وكان شيء في حركتي يثير خوفهم.. كنت كلما حركت رأسي أو ذيلي قفزوا إلى الخلف وهم يصيحون كأنني أفعل شيئاً معجزاً بمجرد الحركة..

ضايقني ذلك في البداية وأحاط حريتي بسياج..

كنت أظل صامتة حتى لا أزعجهم.. ثم زادت الرقابة عليّ بعد ذلك، وظلّت العيون تتبعني أينما ذهبت.. ثم يتحلق الناس حولي ويبدأون في حديث مهموس طويل لا أسمع منه شيئاً..

ثم جرؤ صبي على التقدم والاقتراب مني ووضع يده على عنقي..

كان يضعها ثم يسحبها قبل أن تلمس عنقي..

وأدركت انه يريد أن يربت على رأسي.. واحنيت رأسي وقربتها من الصبي فراح يربت على رأسي..

وكسر تصرف الصبي مخاوف الناس مني فاقتربوا وراحوا يضعون أيديهم على جسدي ويلمسونني كأنما ليتأكدوا من وجودي الحقيقي..

ورحبت بهذا الود الذي أبداه قوم ثمود.. وزاد حبي لهم..

ثم ولدت صغيري في اليوم الثالث من ظهوري في أرض ثمود... وجذب وليدي اهتمام الناس مثلما فعلت.. وربما أكثر..

كان الناس يربتون عليه ويضعون أيديهم فوقه كأنما يثبتون لأنفسهم انه حقيقة وليس وهماً..

وبدأت أرضع وليدي.. وتأمل قوم ثمود اللبن وجرى ريقهم إليه.. وأسرعوا إلى نبيهم صالح وحدثوه عن أخبار البعير الذي ولد واللبن الذي يتدفق من أثداء الناقة..

قالوا له: نريد أن نستفيد من ناقة الله التي دعوت الله من أجلها.

إن ابنها لن يشرب كل لبنها.. ولعل هذا اللبن مبارك..

حدثهم صالح ان لبن الناقة مباح لهم برحمة من الله، لكنه قسم الماء بينهم وبيني.. قال لهم: تتركون الماء للناقة فتشربه، وتشربون أنتم من لبنها، وفي اليوم الثاني تشربون الماء وتتركون لبن الناقة لترضع وليدها..

وافق القوم على اقتراح نبيهم وأقروه..

وبدأت وجودي كمصدر لا ينفد من اللبن، كان الله تعالى قد بارك اللبن الذي أدره، فكان يكفيهم ويزيد عن حاجتهم فيصنعون منه الجبن والقشدة والزبد والسمن..

كان لبني ثري المذاق، وكان من يشربه لا يظمأ ولا يجوع..

وكنت كريمة معهم إلى الحد الذي كنت أنزع فيه الثدي من فم صغيري لأسقي طفلة لا أعرف أسمها من بني ثمود.

ومرت أيام..

أحبني المجتمع كله لأنني كنت أطعمه وأسقيه كله..

هذا حب نفعي يزول بزوال مصدره ولا قيمة له في حسابات الحب النهائية.. لن أتوقف عنده.

أحبني الفقراء المؤمنون الذين اتبعوا صالحاً.. كانوا يسمونني ناقة الله، بينما كان رؤساء المجتمع وحكامه يسمونني ناقة صالح.. ومع الوقت، بدأت أحس أن ستاراً شائكاً من الكراهية يحيط بي ويحاصرني..

ثم وقع حوار بين المؤمنين بصالح وآيته، والكافرين بالله..

«قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم: أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه..

قالوا: إنا بما أرسل به مؤمنون.

قال الذين استكبروا: إنا بالذي آمنتم به كافرون».

أسفر الحوار عن موقفين محددين.. موقف المؤمنين وموقف المستكبرين.. في البدء سأل المستكبرون سؤال استخفاف وزراية.

ـ أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه.

كان السؤال فخاً.. ولكن موضوعية المؤمنين أسلمتهم إلى الإجابة الصحيحة قالوا: إنا بما أرسل به مؤمنون..

تجاوز المؤمنون الخارقة المعجزة، وتجاوزوا الآية المبهرة، وتوقفوا عند تعاليم النبي التي تتلخص في عبادة الله وحده.

لم تعجب الإجابة الملأ، رأوا فيها هدوءاً يثير الغضب، وكان ردهم: إنا بالذي آمنتم به كافرون..

ويتضمن هذا الرد استهانة بالمؤمنين واستخفافاً بهم وطعناً في أشخاصهم، أي أنهم يقولون لهم: إن إيمانكم به هو مبعث شكنا فيه.. وهو سر كفرنا بما آمنتم به.

إنصرف المؤمنون وعاد الملأ إلى قصورهم.. كان الغيظ يملأ قلوبهم ويكاد ينفجر من تصرفاتهم..

وأرسل كبير الملأ إلى كل سادة ثمود ورؤسائهم.. ودخلوا صالة متسعة في قصره وبدأ اجتماع تاريخي..

كان الحاضرون جميعاً لا يؤمنون بصالح، ولا يؤمنون بـي، وكانوا ينظرون الينا معاً كمؤامرة تدبر للنظام الحاكم وتستهدف خلعه.. قال رئيس القوم: إن وجود ناقة ترعى بحريتها قد نزع كل سلطان لنا على الموقف في القبيلة.

وافقه الحاضرون على رأيه.. عاد أحدهم يقول: إن وجود الناقة تذكير مستمر للناس بآية الله، وتصديق دائم بنبوة صالح، استلقى السؤال أمامهم: ما هو الحل؟

قال أشدهم قسوة: يجب التخلص من الناقة.

تم الوصول إلى قرار بشأني في الاجتماع التاريخي الشهير الذي عقده قوم ثمود.. كان القرار هو الذبح..

في البداية فزع الحاضرون من فكرة الذبح، وقالوا إن صالحاً حذر من لمس الناقة بقصد إيذائها.. وحذر من ذبحها.. وحذر من أي مساس بها، وتوعد من يفعل ذلك بعذاب رهيب يحل بعد ثلاثة أيام.. وراحوا يفكرون في محاولة للتخلص مني.. وأعياهم الوصول إلى حل..

وأديرت كؤوس الخمر عليهم وشعشع الشراب فتخلوا عن مخاوفهم وقال قائدهم: ليس هناك حل غير ذبح الناقة.. إن وجودها يهدد النظام الحاكم كله.. بما فيه من شيوخ للقبيلة ورؤساء وأغنياء لهم مصالح.. إن المجتمع كله مهدد بسبب هذه الناقة..

مضى القوم يدورون حول هذه النقطة، ومضت كؤوس الخمر تدور عليهم، ومضت عقولهم تدور هي الأخرى..

بعد ساعات من حديثهم تحول المؤتمر إلى مؤامرة.. وانخرط جميع الجالسين في التدبير لهذه الجريمة..

بعد أن كان السؤال: ماذا نفعل بالناقة.. صار السؤال: كيف نقتل الناقة.. ثم تطور إلى الشكل التالي: من الذي نكلفه بقتل الناقة؟.

وراح التدبير ينسج نفسه من أعمق أعماق الشرور الإنسانية، كنت أحس بكل شيء.. لم أكن أسمع ما يقولونه، ولا كنت أتتبع كلماتهم، ولا كنت أفهم لغتهم السريعة الحاسمة، ورغم ذلك كنت أحس بكل شيء..

بوصفي رمزاً للبراءة كنت أشعر أنهم يريدون ذبحي ويدبرون له أمرهم..

وكان أشد ما يدهشني إنني لا أفهم السبب.

لماذا..؟

ما الذي فعلته لهم من شر ليبرر ذبحي؟.. ما الأذى الذي وجهته إليهم؟ ما هي الإساءة التي لحقتهم مني؟

لم يكن هناك جواب لكل هذه الأسئلة..

واحنيت رأسي ومضيت أقدم اللبن والحنان..

كن أحس أن قرار ذبحي قد صدر، ولم يعد باقياً غير تنفيذه..

وأحسست بالحزن ذات ليلة وابني الصغير يستدفىء في صدري، أحسست بالحزن على مصير البراءة..

لماذا يذبح الناس البراءة في هذا العالم..

إتسعت دهشتي وظل فهمي على حاله من انعدام الفهم..

ومضيت أقدم اللبن والحنان..

ومرت ليلتان.. وجاءت الليلة الثالثة.

أحسست أن هذه ليلتي الأخيرة وسط قوم ثمود..

خامرني احساس واضح بالنهاية. إنتهى الأمر وتم اتفاق الملأ مع تسعة من كبار المجرمين في المدينة.. وانتخب التسعة من بينهم أشدهم شراسة وقوة وعهدوا إليه بمهمة قتلي..

لا أعرف أي إسم من أسماء هؤلاء التسعة، ولكنني أعرف أنهم شربوا اللبن مني وشرب أطفالهم معهم . .

لم أكن أضنّ على أحد أو أسأل أجراً من أحد . .

سيذكرهم الله تعالى في السياق ويغفل أسماءهم «وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون».

كان هؤلاء هم أداة الجريمة . . أما المنفذ فكان رجلاً أشير إليه بـوصفه «صاحبهم» . .

«إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم، فارتقبهم واصطبر، ونبئهم ان الماء قسمه بينهم كل شرب محتضر، فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر، فكيف كان عذابي ونذر».

هذا الذي أشير إليه بوصفه «صاحبهم» كان يتمايل من السكر حين دخل حيث أرقد . .

كان السيف في يده يلمع، وكانت نفسه أشد سواداً من عمق الليل . . قبل أن يصل إلى وصل أحد الملائكة . . وفهمت من حنو الملاك أنني سأموت . . فهمت أيضاً آلاف الأشياء الأخرى، فهمت انني كنت فتنة لقوم مستكبرين . .

وقفت حين دخل القاتل . . نظر إليّ وهو لا يكاد يرى من فرط ما شرب، رفع يده بالسيف فأسرعت أحمي صغيري . . إمتد سيفه إلى قدمي ففصلها عن جسدي . .

وقعت على الأرض ساجدة . .

تجمع عذاب رهيب يفصله عنا ثلاثة أيام . . رأيت قسوة العذاب فأشفقت على من يصيبه مثل هذا العذاب . . أهاج مرأى الدم النازف من قدمي عقل القاتل، فرفع سيفه وهبط به على عنقي . .

بماذا أحسست . . ؟!

أحسست بالراحة والعذوبة والرضا . .

كان الشعور رائعاً . . لحظات الاستشهاد دائمًا رائعه . .

تحولت مع وليدي الى جزء من صخور الجبل، وبقي معنى البراءة مذبوحا على الأرض . .

أما قوم صالح فقد تحولوا الى خبر يرد في كتاب الله باختصار . . «إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر . » .



طير ابراهيم

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْراهيمُ: رَبِّ أَرِني كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى، قَالَ: أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي، قَالَ: فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ آجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ آدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً، وَآعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

(سورة البقرة ـ آية ١٦٠)

نطير معاً في تشكيل رائع في السماء.

عائدون في طريقنا الى الوطن.

ليس وطننا هو البيت الأخضر الذي بناه ابراهيم الخليل.

وطن الحمام عادة مقسم مجزأ..

يحمل الحمام نصف وطنه في قلبه، ونصفه الثاني في قلب من يحب.

كنت أتقدم السرب.. فردت أجنحتي ورفعت منقاري لأعلى وانطلقت.. تبعني سرب الحمام.. حركت أجنحتي ورحت أتمايل.. لو كان الهواء نعيما خالصا فانني أسبح في نعيم خالص.

حمداً لله أن خلقني طيراً..

لست أعرف كيف تحتمل الخلائق التي تدب على الأرض حياتها على الأرض.. في الطيران ألف متعة لا تكشف عن نفسها الا لمن يرتفع..

من الجو تبدو الحقول الخضراء زاهية الخضرة.. وعلى الأرض تنخفض درجة الخضرة، ويدخل التراب عينيك ويضطرك الى البكاء..

شاهدتها أول مرة في حياتي في موقف بكاء سببه التراب..

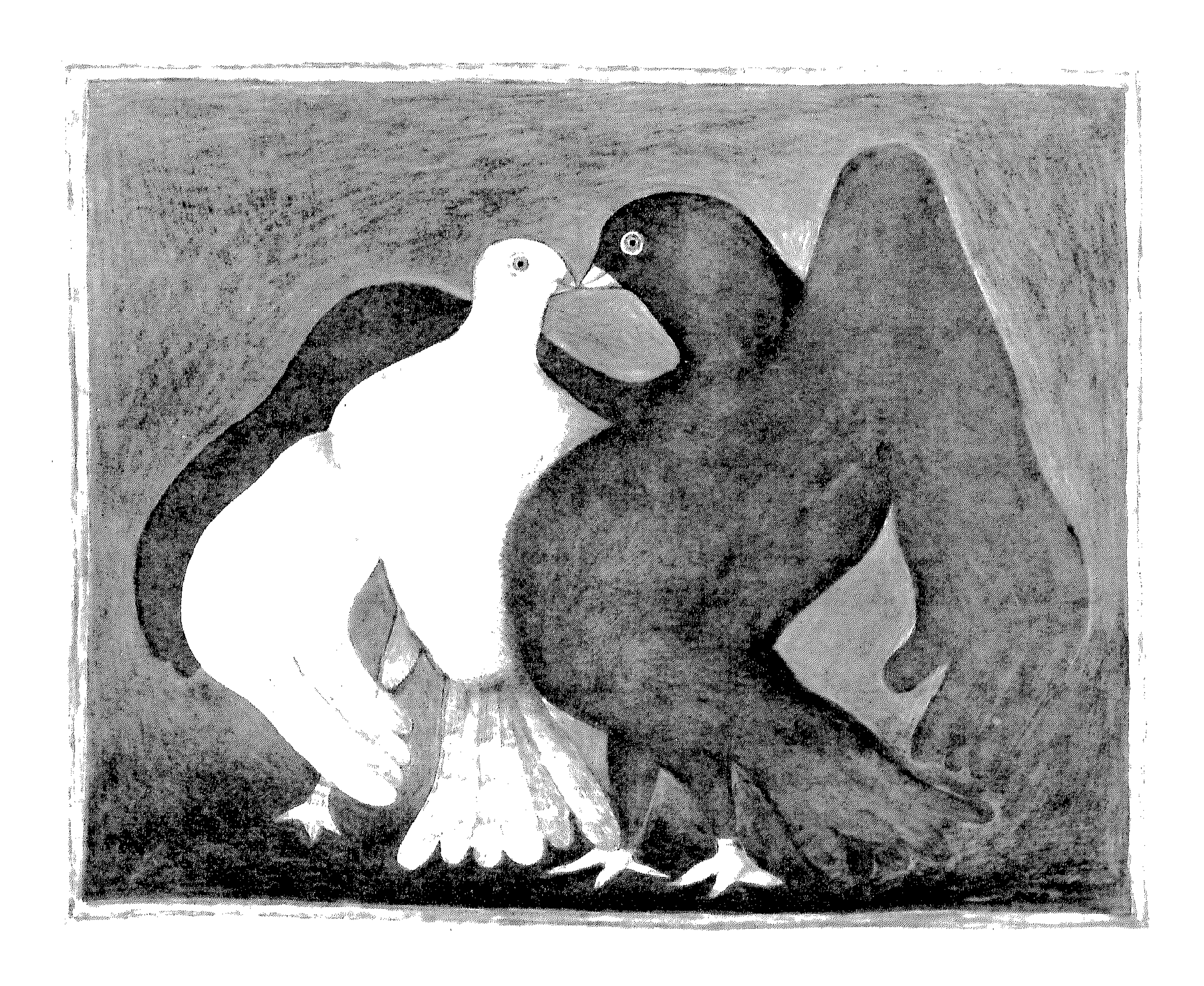
حمداً لله أن خلقها لي.

حمامة بيضاء أسمت نفسها «ناشا».

كان لها اسم آخر قبل أن تقع في الحب..

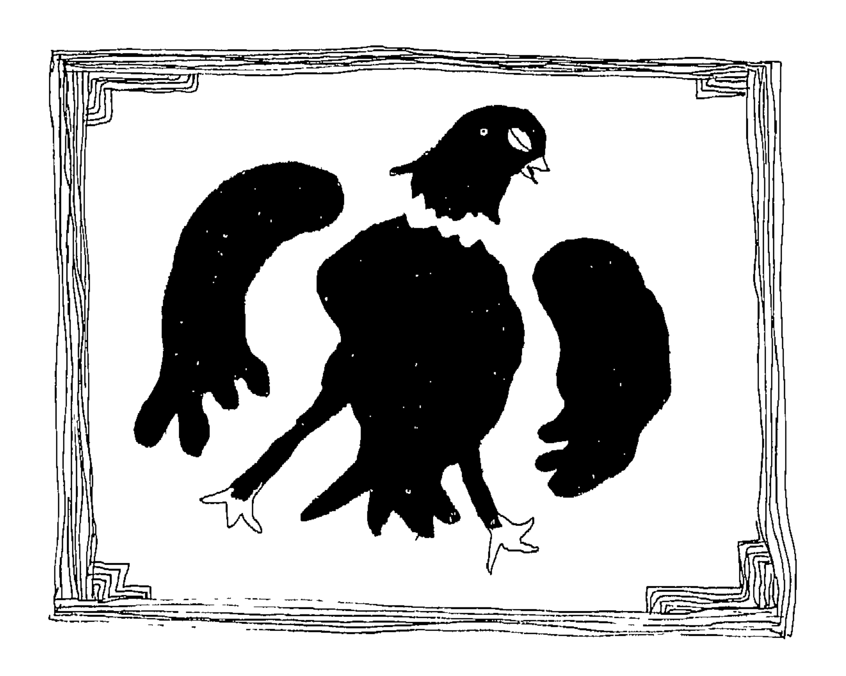
يقوم الحمام بتغيير اسمه حين يحب.. لا يعود الاسم القديم كافياً للدلالة على الذات الجديدة التي تولد بعد الحب.. نعرف أن ذاتاً جديدة تولد بعد الحب.

نعرف أسرار الحب كله..



نحب خالقنا الذي أوجدنا من العدم.. ثلاثة أرباع الحب نعطيه لله..
ونحب الهواء الذي يحملنا كما يحمل النغم.. نصف الربع الباقي هدية للهواء..
نحب الانسان فنطعمه لحمنا بغير ما ألم. ربع الربع الباقي للانسان..
ويبقى ما يبقى من حبنا للاناث..
يبقى من حبنا للاناث قدر في حجم حبة القمح.
يستصغر الانسان حبة القمح ويلقيها على الأرض..
بينما كل حقول القمح الذهبية التي تطعم الملايين كانت في الأصل حبة قمح واحدة..
في قصص الحب الكبرى لا قيمة لوزن الحب أو ضخامته أو حجمه..
تكمن القيمة في القدرة على الاستمرار فيه.. ونحن نحب حتى نموت حباً..
حين مرضت أمي وماتت.. أدرك أبي شيء فاجع غامض مروع، كنا أطفالاً نرى أبي دائم القفز والمرح والحيوية.
حين حملوها من أمام عينيه نكس رأسه في الأرض ولم يقل شيئاً..
جاء اليوم الأول وهو صامت لا يطير ولا يأكل ولا يشرب.. كان يفتح منقاره ويغلقه كأنه يقول شيئاً..
وفي اليوم الثاني رقد على بطنه وهو صامت يرفض أن يأكل أو يشرب أو يطير أو يفتح منقاره..
وفي اليوم الثالث رقد على جنبه وتنهد، بدا كأنه يحمل جبلاً على صدره..
وفي فجر اليوم الرابع دس منقاره في جناحه ومات..
وحين حملوه من أمام أعيننا كان جناحه مبللاً كأنه بكى بعد أن مات.
كنا أطفالاً لا ندرك أن الحب نسيج أصيل في الكون.
بُني الكون كله على الحب والوفاء والسلام..
حملت احدى الحمائم غصن زيتون من الأرض لسفينة نوح حين كف الطوفان عن تدفقه واستسلم لكلمة الله..

من يومها صار الحمام رمزاً للسلام العميق..
يعرف الناس عنا ذلك.
غير أنهم يجهلون أن الحمام رمز للوفاء والحب والبعث..
بعث الموتى..
لا يفهم بعث الموتى غير من يعرف الحب.
الحب ذاته بعث من موت العادة وملل الألفة وانعدام المعنى..
وحين يخفق بالحب قلب المخلوق يبعث ما كان ميتاً فيه..
كيف يؤمن المخلوق ببعث القلب وينكر قيامة الجسد..
نعم..



في الحب لحظة يستدعي فيها الأحد عباده فينهضون من تراب النوم.
أي قدرة هذه التي تستطيع استدعاء أحلام التاريخ من عباءته الترابية.. غير قدرة الحب..
تعالى الله وتقدس اسمه..
لم أزل أطير في الفضاء..
عائد اليها.. الى ناشا..
في البدء سوف أغمس منقاري في المياه التي يضعها لنا ابراهيم..
أخفض أجنحتي لذكر ابراهيم..
صاحب بيتنا وبيت الله..
المسافر دائمًا الى الله..
خليل الله..
كم أحبه..
يستحيل أن تدنو الخلائق من ابراهيم ولا تتأثر..
أول من وضع قلبه قوانين توحيد الحب..
أشعل جسده الكريم كالشمعة ليضيء للخلائق..
ألقاه أعداؤ ه في النار، فانطفأت نار الأرض في نار السماء التي تشتعل في قلبه..
لا تحرق النار ناراً أعظم منها..
وليس أعظم من نار الحب..
ناشا..
يدق قلبي حين أذكرها..

كانت بيضاء ونحيلة . . وكان منقارها عادياً . . ولم يكن في جسدها شيء مميز . .

كنت أجمل منها . . والذكر في الحمام عادة أجمل من الأنثى . . غير أن الجمال هنا ليس غير ضعف مستتر . . إن في نحول الاناث وبؤ سهن شيء لا يقاوم . .

ليس هناك مخلوق يشبه مخلوقاً آخر . .

وناشا لا تشبه أي حمامة ثانية في الأرض . .

ربما كانت أقل الحمام جمالاً . . ربما كان في مشيتها شيء يوحي بالثقة ، وان كان في الحقيقة يخفي انكساراً بالغ العذوبة . .

نوع من العذوبة الغامضة التي يستحيل افشاء سرها . .

آه . .

أذكر لقائي الأول معها . .

كانت تبكي .

دخلت هبة من التراب في عينيها فراحت تبكي .

فردت احدى أجنحتي أحميها من التراب فحيتني تحية رقيقة من ريش ذيلها . .

لم يدر بيننا حوار . .

رفعت رأسي بحركة سريعة وأدرتها ونظرت إليها . رحت أنقل رأسي وأسير . . حولها أسير . . حولها أطوف . . حولها أفرد أجنحتي . . حولها أطير فجأة . . أدور . . أدور . . رأسي يدور . . قلبي يدور . . وهي تقف في مكانها ثابتة ترمقني . .

أكنت أريها بأسي وقوتي ورقتي في نفس الوقت؟ .

أكنت أغازلها كما يظن الناس؟ .

أكنت أحدثها بلغة الصمت الذي يقول أكثر مما تقول الكلمات؟ .

لا أدري . .

ربما كنت أفعل هذا كله . . وربما كنت أتخبط حولها بغير أن أدري .

أقول لا أدري . .

وفي الحب «لا أدري» هذه أغلبية . .

ما يدريه العاشق عادة هو الصورة التي يرسمها في نفسه لمن يحب . .

أما الحقيقة . . فتبقى ملكاً لله وحده . .

تحدثنا قليلاً . .

خيل إليّ أن الكلمات تنحدر من منقارها كانشاد بلبل أو تسبيح كروان . .

اكتسبت الكلمات معاني جديدة لمجرد صدورها منها . .

تحرك نبع السلام القديم الذي حمله أحد أجدادي حين عاد بغصن الزيتون في منقاره .

ذابت كل الثلوج في قمم الجبال . . وانحنى السحاب على زهور الربيع وراح يمسح رؤوسها ويقبلها . . ولد فصل الربيع داخل قلبي . .

أيكون هذا هو الحب.
سألتها: ما اسمك.
قالت: نوشكا.
قلت: سيصير اسمك القديم بعد لحظات.
قالت: الريح تحمل كلماتك بعيداً فلا أسمعك.
لم أتكلم.
حولها أدور.. أفرد أجنحتي وأثنيها.. أطير عالياً وأنقض فجأة.. حولها أطوف.. بقلب حان وروح عطوف.. حولها أرتعش.. أتخبط.. أطوف.. أدور..
انتهى اعترافي فأحسست أنني فقدت ذاتي القديمة..
كنا نتقابل كثيراً في فناء بيت ابراهيم..
هو البيت الوحيد الذي كان ينثر الحبوب للحمام، وينثر الطعام للنمل، ويفتح الباب للضيوف.. ويذبح أسمن عجوله حين يزوره الملائكة فيحسبهم ضيوفاً من البشر..
كنا أربعة من الـطير قد لجأنا لبيته..
هي.. وأنا.. واثنان غيرنا..
نوشكا القديمة صارت ناشا..
جاءتني يوماً تقول..
- قل لي كيف تريدني أن أكون لأكون.
وسدت منقاري في رقبتها وهمست.
- لا أريد غيرك. أريدك كما أنت..
قالت: ولكنني لست جميلة.. بقية الحمام لا يحبني.. إنهم لا يطعمونني..
قلت: أطعمك نصف قلبي..
قالت: والنصف الثاني..
قلت: قد تجوعين مرة ثانية.
حركت رقبتها بزهو..

سرنا معاً على الأرض.. أشرت لها إلى حبة قمح بمنقاري.. قالت بأحد أجنحتها إنها ليست جائعة.. سرنا معاً على الشجر.. أشرت لها إلى ثمرة فلم تأكلها.. سرنا معاً في السماء.. ارتفعنا قليلاً ونحن نسير أو نطير. لست أدري.. الهواء خفيف وناعم.. وثمة برودة منعشة تهب من الشمال.. ارتعشت أجنحتنا فجأة..
قالت: أيكون الهواء قد مر على الثلوج قبل أن يجيء.
قلت: ذابت الثلوج منذ أيام..
قالت: ولكنني أرتعش.. لا تتركني أبداً..
قلت: تعالي نلعب. تعالي ندفىء الهواء.

طرنا، حركنا أجنحتنا ورحنا نتنفس في الهواء حتى عاد إليه الدفء.
هبطنا فوق شجرة.. مال الغصن قليلاً حين وقفنا فوقه.
نكست رأسي وتأملت الأرض..
كنت أفكر في ارتعاشتنا معاً.. أيكون حبنا يخبىء لنا قدراً من الألم.. أيموت أحدنا قبل الآخر.. اعتصر قلبي شيء بارد..
التفتت إليّ هامسة..
أريدك جواري وأنا أموت..
قلت: لم تبدأ الحياة بعد...
قالت: لم يكن الموت محزناً قبل أن أعرفك..
كانت الشمس في طريقها إلى الغروب.. وبدأ الأفق مصطبغاً بدم يشبه دم الحمام، وجرى ذهني للذبح..
لا أريد أن أذبح الآن.. أريد أن أعيش طويلاً..
لم أبدأ حبي بعد يا رب..
رحت أصلي لله صلاة طويلة.. وراحت تصلي هي الأخرى.. ثم انكفأنا عائدين إلى البيت..

نامت هي قبلي.. وبقيت مستيقظاً ثم لفني النعاس..
كنت نائماً حين رأيت نفسي أطير وسط سماء بيضاء وأرض زرقاء..
كنت أطير على ارتفاع شاهق، أعظم من ارتفاع النسور..
تحتي سحابة بيضاء..
تحتي طيلة الوقت..
رأيت ناشا نائمة فوق السحابة.. حدقت فيها.
لم تكن نائمة..
فوجئت أنها ممزقة الريش والأجنحة والجسد..
أردت أن أصرخ عليها فتحولت السحابة من اللون الأبيض إلى اللون الأحمر.
شربت السحابة دمها وبدأت تمطر..
نزل المطر دموعاً في حجم حبات العنب الأحمر..
أردت أن أصرخ.. أو أبكي.. أو أهبط..
فوجئت أن السحابة تتبدد.. وشاهدت ناشا ممزقة مفرقة على قمم الجبال.. رأيت نفسي ممزقاً جوارها على قمم الجبال..
كنت أحلم أنني أطير.. وأراني في نفس الوقت ممزقاً معها على الجبال..
نصف جنبي الأيسر يلتصق بنصف جنبها الأيمن..
كل نصف منا يكمل النصف الآخر..

استيقظت فزعاً فوجدتها تتنفس جواري. حبيبة كما هي..
سالمة كما هي.. صوت تنفسها يطير بعض ريشها عند الرقبة..
ظللت أتقلب فترة ثم استغرقني النعاس..
تنفس الصبح أخيراً..
نهضت خائر القوى بعد أحلام الأمس العجيبة..
طرت قليلاً لعلّي أنتعش..
طرت بغير أن أنظر حولي.. عقلي كله تحتله صورة واحدة.. صورتنا معاً ممزقين على الجبال.. توغلت في الطيران.. مرت ساعات.
فجأة رأيت نفسي قد ابتعدت كثيراً عن وطني ومسكني.
اكتشفت أنني تائه.. ارتفعت إلى أعلى.. حلقت عالياً في الفضاء وبدأت أطير في اتجاه دائري محاولاً أن ألتقط الحدود المميزة للمنطقة التي خرجت منها..
لم ألتقط شيئاً..
كانت المنطقة التي أطير فيها منطقة جبلية شامخة..
ارتفعت أكثر وأكثر.. اعتمدت على بصري فلم ألتقط من المعالم التي أعرفها شيئاً.. حين يئست من نظري بدأت أحاول تحديد الجهات عن طريق الطيران الساكن، محاولاً أثناء الطيران أن أتصل بخطوط القوى المغناطيسية التي تمتد بين قطبي الأرض..
حين خذلني البصر، وخطوط القوى المغناطيسية.. لجأت في تحديد الاتجاه للشمس.. كنت أريد أن أعرف الزاوية بين اتجاه الشمال والشمس.. لو عرفت الشمال لحددت بقية الجهات واتجهت عائداً للشرق..

استغرقني تأمل الشمس.
في اللحظة التي اكتشفت فيها الزاوية التي أبغيها.. اكتشفت في نفس الوقت أنني أطير وسط جبال تتخذها النسور موطناً..
هويت من الخوف وسط عش كبير غادره الأب والأم وتركا فيه نسراً طفلاً.. كان النسر الطفل أكبر من حجمي مرة ونصف ولكنه كان لا يستطيع الطيران بعد.. ربما ولد أول أمس.. أحس بحركتي داخل عشه فرفع رأسه الأصلع ومنقاره الحاد ونظر إليّ نظرة حاقدة..
قلت له دون أن أتكلم: خفف من عداء نظرتك أيها الوحش الصغير.. لم يحن الوقت بعد على التهام الحمام.. لم أكد ألتقط أنفاسي حتى ألقيت نفسي في الفضاء مسرعاً وطرت كان ألف نسر عجوز في أعقابي.. طرت مسرعاً وزدت سرعتي حتى وصلت إلى مشارف أرضي..
أسرعت نحو بيت ابراهيم.. هويت إلى الأرض التقط أنفاسي.
وقفت ناشا عند رأسي.
قلت لاهثاً: نجوت من موت محقق.
قالت: اهدأ الآن.

هدأت..

حركت جناحيها فتموج الهواء حولي منعشاً ممتزجاً برائحة جسمها.. غادرني التعب وأحسست بالعطش..

أدركت ما أريده بغير أن أفصح، وهرعت نحو صحن المياه وملأت منقارها وعادت تسقيني. فمها في فمي.. جناحها يلتصق بجناحي. ذهب عطشي إلى المياه واشتغل عطشي إليها هي..

حدثتها بذلك فقالت: تزوجني..

قلت: تزوجتك..

قالت: لتبارك السماء زواجنا..

قلت: وليباركه أعظم قلب في الأرض..

قالت: خليل الله ابراهيم.

قلت: نطير إليه معاً..

غادرنا فناء بيته إلى بيته ذاته..

وقفنا على سور واطىء يقيمه ليصلي خلفه.

حططنا أمام قدميه وقبلنا قدميه.

ارتعش قلبانا بالحب.. ومد هو يديه الكريمتين وربت على رؤ وسنا..

أجفلت حبيبتي وطرنا..

أجفلت حبيبتي مرة ثانية مني أنا.

وطرنا..

احتفلنا بعرسنا في الفضاء..

دعونا السحاب والنجوم المختبئة في ضوء الشمس ودعونا الشمس والقمر المختبىء في نورها.. دعونا خلائق الله العظيمة كلها لحفل العرس.. هناء مصفى هو الهواء..

هناء خالص..

كنا أربعة من الحمام نعتبر بيت ابراهيم بيتنا.. ثم صرنا عشر حمامات.. ثم صرنا عشرين.. كان الحب يعبر عن نفسه بآلاف الطرق.. فيزداد عدد الصغار..

عرفنا الكثير عن خليل الله حين عشنا في فناء بيته.

كان يصلي كثيراً، ويدعو الناس كثيراً.. ويتأمل كثيراً..

ولم نكن نستطيع كطير بسيط ـ في نهاية الأمر ـ أن نعرف درجة قربه من الله.. أو عمق مشاعره نحو الخالق.. كل ما نعرفه أنه كان يخلو بنفسه كثيراً.. في احدى خلواته..

كان مستغرقاً في التفكير ثم رفع يديه يسأل الله..

«وإذ قال ابراهيم: رب أرني كيف تحيي الموتى.

قال: أو لم تؤمن.

قال: بلى. ولكن ليطمئن قلبي.

قال: فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم أدعهن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم». .

كانت زوجتي ترقد جوار الصغار. . وكنت أجلس خارج عشنا حين امتدت إلى يد سيدنا ابراهيم. . استسلمت لليد الطيبة. .

في يده الثانية سكين. .

اقترب السكين من عنقي. .

ورحت أتأمل انعكاس شعاع الشمس على النصل الأزرق. .

آلاف الشموس تنتقل إلى النصل وتولد فوقه.

اقترب النصل من رقبتي فـزاد استسلامي.

صرخت زوجتي نصف صرخة. .

لم أحس بشيء.

غاص نصل السكين في عنقي.

آخر صوت سمعته كان صوت صرختها. . بعدها سمعت ابراهيم يدعونا اليه.

في اللحظة التالية كنت أطير مندفعاً نحو ابراهيم مع ثلاثة طيور أخرى. .

وصلنا الى أحضانه فارتمينا لاهثين مسرعين ملبين. .

سجد ابراهيم لله.

لم أجدها في العش. . وجدت أطفالنا جائعين وهي غائبة. .

ثرت ثورة كبرى وقررت تأديبها. .

أعرف أين أجدها. .

مكان جوار النهر كنا نلتقي فيه كثيراً. .

طرت نحو النهر. .

زوجتي تقف على الأغصان محدقة في مياه النهر دون حراك.

وقفت على الغصن جوارها فلم تلتفت. . ماذا أصابها يا ربي. . أتكون مريضة. .

قلت: نـاشا. . لماذا تقفين وحدك هنا؟. .

لم تلتفت. . انحدرت من عينيها دمعتان كبيرتان وقالت:

ـ بدأ عقلي يهتز. . لم أزل أسمع صوته كما كان حياً. . أدهشني جوابها. . رفعت جناحي وضربتها به ضربة قوية. . التفتت نحوي. .

لم تكد تراني حتى صرخت مدهوشة. .

ـ يا إلهي. . كيف. . لكنك. .

بدأت ترتعش. . استجمعت قواها وقالت فجأة.

ـ كيف عدت من الموت يا حبيبي. . لقد ذبحك ابراهيم.

ذكرت السكين فجأة. . ألقيت جناحي حولها لأهدىء من روعها وسألتها.

ـ حدثيني بكل شيء . .
ـ ذبحك ابراهيم أمامي . . مزقك قطعاً مع ثلاث طيور أخرى وفرق أجزاءك على الجبال . .
قلت لها ـ لم يذبحني ابراهيم . . لقد دعاني اليه فجئت ساعياً . .
قالت : بل ذبحك أمام عيني يا حبيبي .
قلت : ولكنني حي .
قالت : لا أصدق أنك حي . . آه يا حبيبي . .
انهارت على صدري . .
أضاء عقلي فجأة بما حدث . .

حدثتني ناشا أن ابراهيم ذبح أربعة من الطير ومزق أجسادنا ووضع كل جزء منا على قمة جبل ثم عاد الى بيته . .

صحبته ناشا في رحلته ثم وقفت تبكي على نصف جسدي، وتركها الخليل ابراهيم وانصرف . . بكت طويلاً ثم طارت الى مكانها فوق الشجرة . .

مرت ساعات وفوجئت بي أقف جوارها . .
ظللنا أكثر من ساعة نتحدث . . كان انفعالنا هائلاً . . كانت ناشا ترتعد وتقول :
ـ ذبحك أمام عيني
وكنت أرتعش وأقول ـ بل دعاني إليه فلبيت سعياً .
حين اتفقنا أنني ذبحت ونهضت من الموت تساءلت .
ـ كيف؟ .
استلقت «كيف» أمامنا في مياه النهر مثل سر لا قرار له

قالت ناشا فجأة : ألم يقل ابراهيم «رب أرني كيف تحيي الموتى» . . لقد ترك ابراهيم الجبل وتركك ذبيحاً فوقه ثم عاد . . استدعاك فأسرعت إليه . .

قلت لها : لماذا . . ؟

قالت : ربما كان خليل الله يريد أن يرى يد القدرة الخالقة وهي تعمل فأسدل الستار على السر ولم ير غير النتيجة .

يا إلهي . . لكن كيف . .
عادت كيف تتموج على صفحة المياه . .
قلت . . إذا كان خليل الله لم يعرف كيف عدت أنا من الموت فكيف أعرف أنا . .
عدت أتساءل : أي قدرة هذه التي تستطيع أن تدعو الموتى فيسرعون .
قالت ناشا : هي قدرة الحب .
أتراك نسيت أن ابراهيم خليل الله . .
قبل ذلك كاد ابراهيم يذبح أحب أبنائه إليه . من يملك القدرة على ذبح ابنه حباً في الله ،

يستطيع أن يدعو الطير الممزق من موته فيسرع ملتئمًا ساعياً إليه . .

هي قدرة الحب في الحالتين . .

عدت أقول: أزداد حيرة؟ ما هي الحكمة.

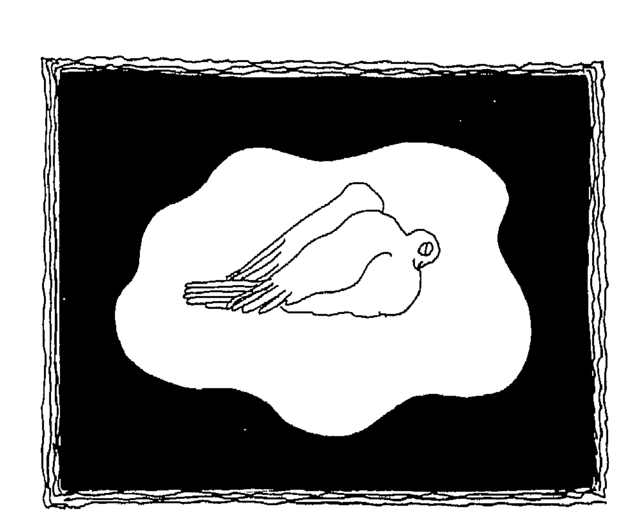
قالت ناشا: ليس عندي جواب يا قلبي . .

كل ما أعرفه يا حبيبي أن الله طمأن قلب ابراهيم وكان يبحث عن الطمأنينة . . وطمأن الله قلبك الذبيح بالوحدة . . وطمأن الله قلبي بعودتك إليّ بعد أن فقدتك.

لقد أعادك الله إليّ، وأعادني إليك، وأعاد ابراهيم إلى نفسه . . ماذا تريد أكثر من ذلك . .

قلت: كم يحب الله ابراهيم . .

قالت: كم يحبني ويحبك . .



ذئب يوسف

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ، قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾.

(سورة يوسف ـ آية ١٣ ـ ١٤)

ليست حياة الذئاب مريحة.. أعترف بذلك..

أن تكون ذئباً معناه أن تكون لك أنياب ومخالب. وليس في الدنيا أحد يخلو من الانياب والمخالب، كل ما هنالك أن الابتسامة قد تخبىء وراءها أنياباً قاطعة ومخالب حادة، وإذن لا يحمل الناس عليها، إنما يحملون على الأنياب الصريحة.

أنا ـ كذئب ـ هدف لحملات مستمرة من البشر.. هدف لاضطهاد دائم..

يقول البشر عن أسوئهم أخلاقاً وأكثرهم تودداً للنساء إنه ذئب. وهذه إهانة للذئاب. نحن كذئاب لا نهتم بالجنس غير شهر واحد من شهور السنة، ولسوف تجد فينا استقراراً عاطفياً وزوجياً تحسدنا عليه آلاف الفصائل الحيوانية الأخرى.

لا أريد أن أطيل في الحديث عن نفسي كذئب.

إنني أكتب هذه الأوراق وأنا حانق بعض الشيء.. لست حانقاً ولكنني مغيظ قليلاً. أفتقد العدل تماماً في هذه الأرض وأكره أن أجد نفسي موضع ظلم واضح يستغل فيه الانسان رقيه وذكاءه لظلم الذئاب.

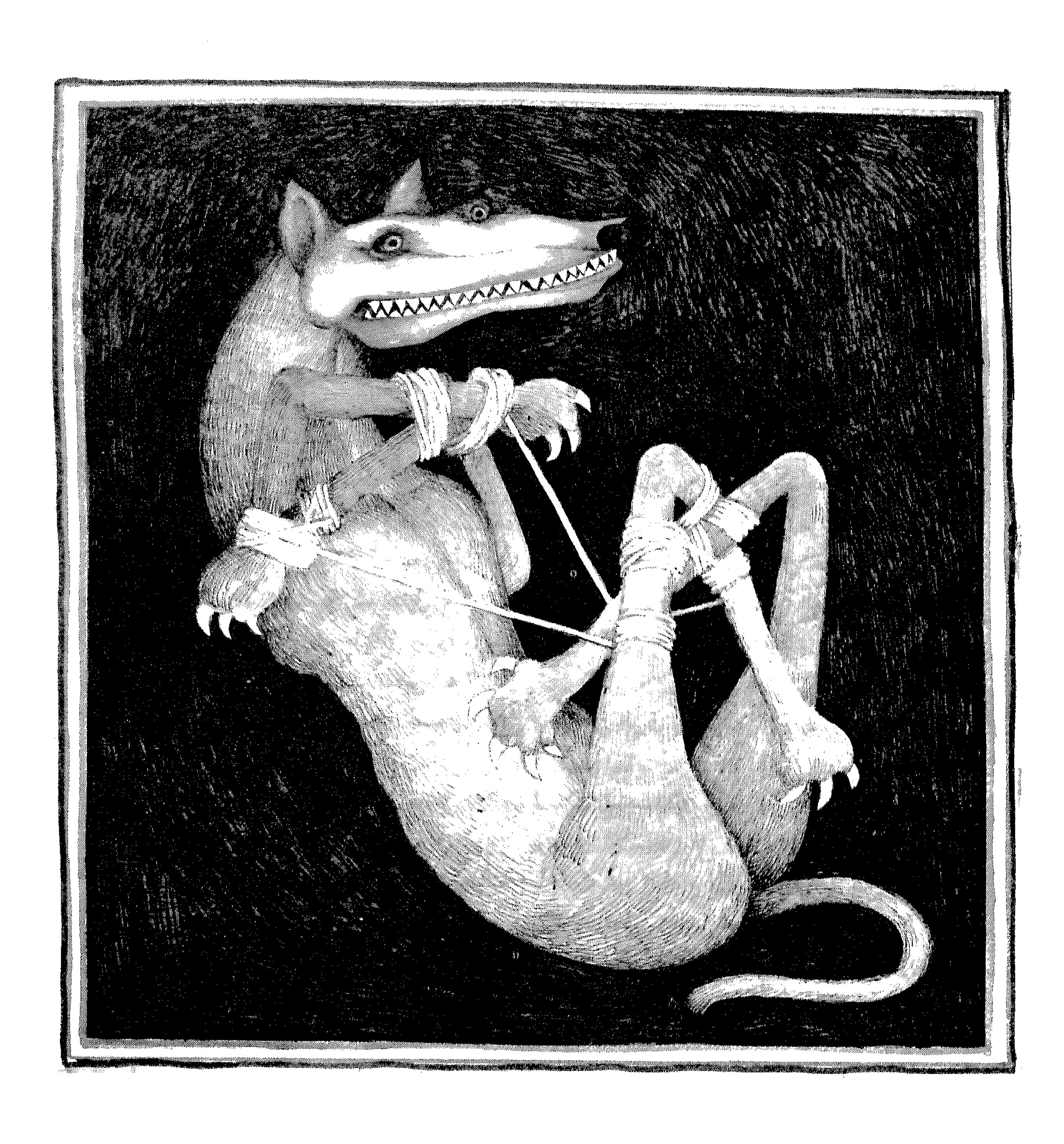
ذئب مظلوم أنا..

ذئب يوسف.. هذا اسمي الذي اشتهرت به في التاريخ.

غير أنني أقسم انني لم أر يوسف هذا في حياتي قط. لا رأيته ولا أكلته ولا مزقت ثيابه ولا اقتربت منه. هي مأساة من بدايتها إلى النهاية.

سقطت عتمة المساء على الصحراء.

انسحب اللون الأصفر مع انسحاب الشمس وتغطت الأرض بلونها الرمادي السابغ.. همد



الناس وسكنت حركتهم، ودبت في الصحراء حياتها الليلية المثيرة. تحركت المخلوقات التي تبحث عن طعامها أثناء الليل وبدأت تسعى.

خرجت أستنشق الهواء أمام باب الكهف الذي أعيش فيه. ملأت صدري بعبير المساء النقي..

ما أروع أن يكون المرء ذئباً ثم يقف على باب كهفه ويعوي.

يستحيل على رعايا المملكة الحيوانية نسيان عواء الذئب.

إن صرخة طويلة وعميقة ترعش ظهرك وتدفع فيه قشعريرة باردة كالثلج.. نسمي هذا العواء فيما بيننا أغنية المساء. لا نعوي أثناء النهار، مملكتنا هي الليل، ونحن نغني عندما يهبط ظلام مملكتنا العظيمة.

لنا ستة أنواع من العواء لكل واحد منها معناه الخاص وتعبيره المميز. هذا العواء العميق الطويل الذي يبدأ مع سقوط الظلام هو أغنية المساء. نقوم فيه بتسبيح خالقنا وتمجيده. وهذا العواء الأجش القصير هو تعبير عن الوحدة واستدعاء الأنـثى، وهناك عواء المطاردة المروع الطويل الغاضب.. وهناك عواء يعني أن صيداً ثميناً قد وقع.. وأجمل ما في عوائنا أن ينتشر في الهواء فلا تعرف الضحية كم ذئباً يهرعون نحوها، ولا تعرف من انتشار العواء حولها مصدر الخطر. وأي حصان أو وعل أو خروف يسمع عواءنا لابد أن يرتعش ويفقد قدرته على الفرار ويدركه ارتباك عظيم. عندئذ أنقض أنا.

ينطلق جسدي الرمادي في الصحراء مثل قبضة من البرق وأضرب.

هي ضربة واحدة بالمخالب.

بعدها يدفىء المعدة طعام ساخن مختلج لم تزل تـدب فيه الروح.. جربت مرة أن آكل طعاماً طهاه أصحابه على النار وتركوه يبرد. فوجدته للأسف بلا مذاق، وأدهشني أن يرضى الانسان بهذا الطعام الطري الذي أفسدته النار. أتحدث عن الطعام لأنني صائم.

أكلت منذ خمسة أيام نصف خروف سمين كان يتمشى بعيداً عن بقية القطيع. نأكل عادة مرة كل اسبوع، ونعيش على ما أكلناه أسبوعاً كاملاً.. نصوم ستة أيام بغير أحساس بالجوع. ثم نبدأ بحثنا عن الطعام... ظللت واقفاً أمام باب الكهف فترة حتى سقط الليل تماماً وظهر صديق الذئاب. ظهر القمر.. هذا القرص الفضي الشاحب الذي نرى على ضوئه أصغر فئران الجبال.. لم يكد القمر يظهر حتى رفعت رأسي وقدمت له تحية المساء.. عويت عواء طويلاً..

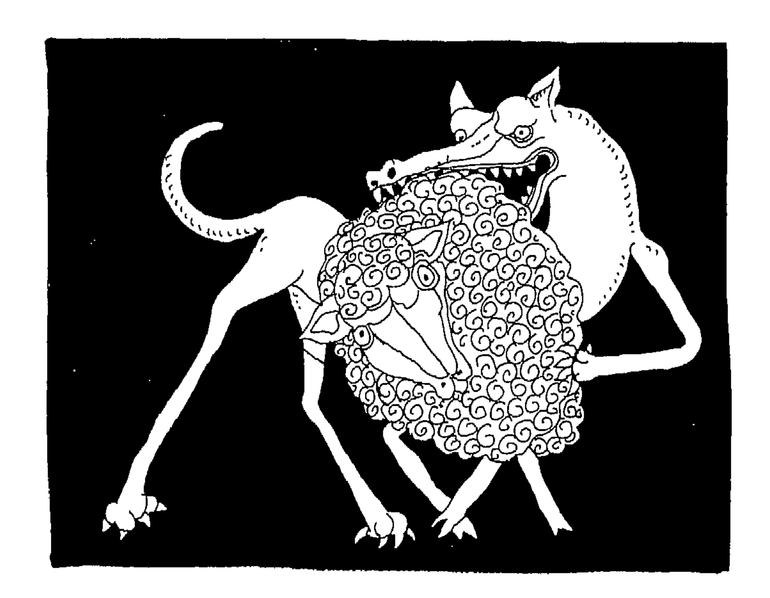
هي متعة أن نعوي في ضوء القمر.

ينعكس ضوء القمر على أنيابي ويرتد الشعاع نحو أبعد الفرائس فيسجنها بالخوف في مكانها ويسمرها بالرعب.

بعدها أنطلق وراء الشعاع.

رفعت فمي وتشممت الهواء.

أستطيع أن أميز بين أكثر من أربعين رائحة في وقت واحد. تختلف رائحة الأرض عن



رائحة الأعشاب عن رائحة الأشجار عن رائحة الوعول عن رائحة الزهور عن رائحة الرمال عن رائحة . . .

ما هذا . .

أستطيع أن أميز الآن رائحة خراف. إن غباء الخراف الأساسي أنها لا تستطيع أن تخفي رائحتها. لا تستحم الخراف جيداً ولهذا تنتشر حولها في الجو أريجاً مميزاً. بالنسبة لنا نحن الذئاب . . تشبه هذه الرائحة بطاقة دعوة توجه لطعام شهي . . خرجت زوجتي من الكهف وتشممت الهواء واستقبلتها نفس الرائحة. التقت نظراتنا فقلت لها:

ـ أمكثي مع الأولاد ودعيني أذهب وحدي.

دخلت ذئبتي الكهف وأسرعت أهبط التل. لم أكن خارجاً في مهمة صيد، نحن لا نخرج للصيد إلا جماعات، لا تقل عن خمسة ولا تزيد على اثني عشر ذئباً. كنت خارجاً في مهمة استكشاف . . رفعت رأسي وأنا أجري ورحت أتتبع ذرات الرائحة. أستطيع أن أتتبع الرائحة أثناء الليل بنفس السهولة التي يتابع بها إنسان مجرى نهر أثناء النهار . .

اقتربت الرائحة من أنفي فتباطأت وبدأت أتحرك بحذر . . على مبعدة خطوات تنتصب خيمة بيضاء يجلس أمامها عشرة رجال حول نار أوقدوها . . وعلى مبعدة خطوات منهم تنام مئات الخراف والنعاج والبقر . . كان البرد شديداً فأدفأت فمي بذيلي ورحت أراقب.

لم تكن أعمار الرجال متساوية، كان فيهم من يربي لحيته، وكان فيهم من يطلق شعره، ورجحت أنهم أصدقاء أو أخوة. أحسست من نظرة سريعة ألقيتها على وجوههم أنهم يدبرون شيئاً.

ألصقت صدري بالأرض وكمنت، رفعت أذني وأنصت.

قال أحد الرجال العشرة وهو يدفىء يديه على النار.
- ينبغي أن نتخلص من يوسف.
اشتد البرد، ومرت موجة من رياح الشمال المثلجة فارتعشت.
لست معتاداً هذه البرودة. ولدت وسط جو معتدل في مصر، وتربيت فيها مع أخ شقيق يصغرني بعام. وكنت أحب أخي حباً عظيمًا، ولم أكن أخرج للصيد إلا وهو معي.. ثم خرج أخي يوماً ولم يعد. عبثاً حاولت البحث عنه في مصر. ضربت في تيه المزارع والصحارى أياماً عديدة دون أن أعثر له على أثر. اختفت رائحته تماماً، وانكسر قلبي بعده فخرجت من مصر. عبرت الصحراء وجئت هذه البلاد الباردة. وجدت نفسي غريباً وسط ذئاب من نوع مختلف. فراؤ ها كان أطول من فرائي قليلاً، عشت بينهم وتزوجت منهم ذئبة يبدو أنها كانت عانساً، ويخيل إليّ أن السر في انصرافهم عنها هـو شعرها القصير. كانت تشبهني في ذلك.. تزوجتها ففرحت بي أعظم الفرح.
قالت لي يوم زفافنا: من أين جئت. شعرك قصير ولا تشبه ذئاب هذه المنطقة.
قلت: جئت من مصر بحثاً عن أخي الأصغر الذي خرج ولم يعد.
قالت - بحنان صادق - : سأكون زوجتك وأخاك الأصغر فلا تحزن.
هزتني إلى الأعماق كلمتها وتذكرت أخي الأصغر فعويت عواء طويلاً حزيناً متصلاً.. ثم شغلتني متاعب الحياة الزوجية وأهالت تراب النسيان مؤ قتاً على ذكرى الأخ الغائب.. تزوجت في الربيع.. بعد شهرين ونصف ولدت زوجتي ستة ذئاب صغيرة.. قبل أن تلد بحثنا عن مكان للأسرة القادمة. حفرت معها كهفاً غائراً في الأرض ثم عدلنا عن الحفر قبل إتمامه وعدنا نبحث عن مكان آخر، أخيراً عثرنا على كهفنا الذي نعيش فيه الآن. وهو كهف بعيد يحتل قمة تل حجري وسط الصحراء. كبر الأولاد وتغير لون عيونهم من الأزرق العميق إلى اللون الرمادي المشرب بصفرة..
أدركت أن الأولاد قد كبروا.. وبدأت أعلمهم الصيد.. ويبدو أن زوجتي عوضت حرمانها قبلي في إنجاب عديد من الأطفال. لا تكاد تحمل وتضع وتربي وترضع وتعلم الصيد حتى تعود إلى الحمل والولادة والانجاب.

صرت رب أسرة كبيرة أجري عليها.. وأرهقني ذلك وجعلني دائم البحث عن طعام. تسللت إلى أنفي رائحة شواء وتسللت معها رائحة خروف صغير حي لم ينم بعد ويسعل من البرد..

عاد الرجال حول النار إلى الحديث.
قالوا..
«ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة.. إن أبانا لفي ضلال مبين. اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين».

أدركت أن هناك مؤ امرة لقتل إنسان يتردد اسمه في الحديث. لم أكن مهتمًا بحديثهم قدر اهتمامي بمعرفة المكان الذي سيذهبون إليه غداً، أردت أن أعرف أين سيذهب الخروف الصغير المستيقظ الذي أميز رائحته وسط القطيع النائم.

عاد أحدهم يقول: «لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين».

لم يزل حديثهم يدور حول يوسف. سئمت من الحديث وأدهشني أن يشغلهم يوسف لهذا الحد. . وعدت أستمع لحوارهم.

قال أحدهم: ماذا نقول لأبينا يعقوب حين يسألنا عن أخينا يوسف.

أعترف أنني صعقت. . أكتشفت أن يوسف هو أخوهم الأصغر. كيف يدبرون قتله. . وأنا الذئب الذي خرج من مصر بحثاً عن شقيقه الأصغر ولم يزل يعيش بقلب ملتاع بعد فقده. اجتذبني الحديث المثير، وأدهشتني كمية الحقد في حوارهم، ونكأ حديثهم عن أخيهم جرحي وذكرني بأخي، وشاهدت الشيطان يجلس معهم وهم لا يرونه فزاد تقززي منهم، وكرهت رائحة الخروف الصغير، وكرهت أن آكل من قطيعهم وقررت الانصراف.

لم أكد أستدير عائداً حتى عاد الحوار يجذبني إليه. .

كانت رائحة الحوار مثيرة مثل رائحة قطيع كامل من الوعول والخراف.

قال أحدهم: نقول ليعقوب تاه يوسف منا.

قال الثاني: هذه لعبة مكشوفة. كيف يتوه منا والمفروض أنه معنا.

قال الثالث: نقول أكله الذئب.

أرهفت سمعي حين جاء ذكري في الحوار.

تحاور القوم بعد هذه الفكرة الظالمة ثم قالوا:

ـ فكرة مثيرة. نقول أكله الذئب ونحن غافلون عنه.

قال أحدهم: لن يترككم يعقوب تأخذون يوسف. يحبه الرجل ولا يطيق فراقه. . قالوا: سنحاول اقناع أبيه. سنقول له: الولد الصغير لا يأخذ حظه من اللعب ولا يحصل على كفايته من الشمس. وجهه مصفر فأتركه لنا ودعه يخرج معنا ليرتع ويلعب. .

عاد الحوار يدور حول نفسه ويلتف حول النار ويحمل إليّ احساساً متزايداً بالذهول والدهشة. كانوا فريقين. فريق يريد قتل يوسف، وفريق يقترح إلقاءه في بئر. . ورغم انتصار الفريق الثاني فقد استقر الرأي الجماعي على الصاق التهمة بالذئب. . أي ذئب. . وراحوا جميعاً يتحدثون عن هذا الذئب. . ماذا يقولون لأبيهم عنه. كيف يصفون له مشهد يوسف بعد أن أكله الذئب. . كيف يقنعون أباهم أن الذئب أكله فعلاً. . واقترح أحدهم أن يخلعوا قميص يوسف ويلوثوه بدماء شاة يذبحونها ثم يحملون القميص إلى أبيهم ويقولون له هذا قميص ابنك الذي أكله الذئب وهو يرتديه.

استمعت إلى حوارهم وفهمت لماذا ساد الأرض هذا المخلوق المسمى بالانسان. أدركت لماذا يتناقص عدد الذئاب في الأرض ويزيد الناس.

فهمت أن أنياب الذئاب ومخالبها تبدو مثل قش هش جوار هذه الأنياب والمخالب المتمدينة المغلفة بالابتسام.

عاد الحوار بينهم وهم يأكلون.

قال أكبرهم: أفترضوا أن أباكم لم يصدق قصة الذئب.

قال أكبرهم سناً: نصطاد ذئباً ونلطخه بدم الشاة التي سنلطخ بها قميص يوسف ونذهب بالذئب إلى أبينا ونقول له: هذا هو الذئب الآثم الذي التهم يوسف. ها هو دمه لم يزل عالقاً بجسده ومخالبه

ارتعشت في مكاني من الغضب.. أي جرأة يملكها هذا النوع الانساني.

عاد الخروف الصغير يتحرك وسط القطيع النائم..

انصدت نفسي تماماً عنه، ولم يعد يعنيني إلا أن أغادر المكان بسلام. اقتربت مني رائحة كلب.. ترك الكلب مكانه مع القطيع واقترب منهم لعل أحداً يلقي إليه بقطعة من اللحم أو العظام. ليست الكلاب مثلنا تأكل اللحم نيئاً دافئاً. يبدو أن الكلب استنشق رائحتي فبدأ يزمجر ويزأر ووقف شعر جسده تهيؤاً للقتال.. لم أكن في حالة نفسية تسمح لي بالاشتباك معه وقتله.. مزقني حوارهم من الداخل واحتقرت أن أشتبك مع كلابهم وآثرت أن أبتعد عن هذا الجو بأقصى سرعة.

نهضت من مكاني وعويت..

لم أكد أبدأ العواء الغاضب اليائس الممزق وأنهيه حتى كنت هناك عند الطرف الثاني من الصحراء.

عدوت مثل ذئب يفر من ألف أنسان.

دخلت على زوجتي الكهف فاستيقظت على الفور.. نومها خفيف.

سألتني هامسة: لونك مخطوف ووجهك متغير.

قلت وأنا ألهث: اللعنة.

قالت: هل أخطأت رائحة الخراف؟

قلت ـ اللعنة

قالت ـ لم أرك غاضباً هكذا من قبل. ماذا حدث. هل حاول اصطيادك أحد.

قلت ـ حدث ما هو ألعن.

قالت ـ لا أظن أن هناك ألعن من اصطيادك.

قلت ـ بل هناك فاصمتي ودعيني أفكر.

قالت ـ سأل عنك أصغر أبنائك فقلت له إن بابا قد خرج للبحث عن صيد، تعرف زوجتي أنني ضعيف أمام أصغر أبنائي. لم تكد تذكره حتى قررت إيقاظه واللعب معه. ذهبت إليه فرأيته ينام على ظهره وقد رفع سيقانه لأعلى.

مددت فمي ومثلت أنني أعضه في بطنه فاستيقظ ضاحكاً وأمسك فمي بأقدامه الأربعة وراح يعضني هو الآخر. . تقلب على جنبه فعدت ألاعبه حتى استيقظ اخوته. ورأيت أنني يجب أن أوزع عليهم اللعب فرحت أداعبهم وأعابثهم حتى أصدرت زوجتي بفمها صوتاً معناه:

ـ حان وقت النعاس.

تركت ذئابي الصغيرة على الفور. . واحتضنت الذئاب نفسها، وأدفأت روحها بالتصاقها واستسلمت للنوم.

خرجت زوجتي من الكهف ووقفت على بابه. أدركت أنها تريد أن تخلو بي.

خرجت وراءها. سألتني بصوت رقيق:

ـ لم تحدثني عن رحلتك.

كان غضبي قد هدأ. . قلت لها:

ـ كانت رحلة سوداء. ليتني لم أخرج.

سألت مندهشة ـ لماذا؟

قلت ـ ذهبت أبحث عن صيد فوجدتهم يبحثون عني.

قالت ـ عنك أنت. .

قلت ـ نعم.

قالت ـ لماذا يبحثون عنك؟

قلت ـ لأنني أكلت يوسف.

قالت ـ من يكون يوسف؟

قلت ـ إنسان لم أره قط. . يريد أخوته القاءه في البئر واتهامي أنني أكلته.

قالت ـ أنت لا تأكل اللحم الآدمي. . كيف يتهمونك؟

قلت ـ مكرراً كلامي ـ المصيبة أن يوسف شقيقهم. .

قالت ذئبتي ـ غريب. . لولا معرفتي بأخلاقك لقلت إنك أكلت شجرة من أشجار جوز الطيب ففقدت وعيك.

قلت ـ لست فاقد الوعي. . أنا حزين. . تذكرت أخي الغائب وانفطر قلبي.

ساد الصمت لحظة، ورأيتني أقول:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوَّت إنسان فكدت أطير

قالت ذئبتي: ما هذا؟

قلت: هذا شعر.

قالت: لم أكن أعرف أنك تقول الشعر.

قلت: أقول ما أقول من حرقتي، حين طفح الكيل.

قالت: مواهبك عديدة وحظك قليل يا حبيبي.

قلت: غداً ينسبون هذا الكلام لأحد شعراء بني الانسان.

قالت ـ الحمد لله الذي خلقنا ذئابا.

قلت ـ هل أكل الأولاد؟

قالت ـ أكلوا فلا تقلق.

نكست رأسي وتذكرت أخي وأغرقتني موجة من الحزن. فوجئت أن ذئبتي تمد وجهها وتضعه جوار رقبتي.

كانت تقبلني.

قالت بحنان صادق ـ ليتني ضعت بدلاً من أخيك.

قلت ـ حزني عميق فلا تزيدي عمقه.

قالت ـ ليتني ذهبت فداءه وفداء لحظة حزنك.

قلت وأنا أقبلها ـ لا تقولي ذلك..

قاطعتني بقبلة ثانية. وتوسط القمر عرشه في السماء.. وخلت الدنيا من الأحزان والآلام والمتاعب.. لم يعد هناك غيرها وغيري في الكون..

دفنت أحزاني في أحضانها ومرت الليلة.

عاودت حياتي الطبيعية بعد ذلك..

تنام الأسرة معظم النهار، ثم تستيقظ مع العصر.. تطعم ذئبتي أطفالنا من لبن ثديها طالما أنهم صغار. فإذا كبروا قليلاً أطعمتهم من اللحم الذي تأكله بعد هضمه نصف هضم في معدتها، فإذا كبروا أكثر خرجوا في رحلات الصيد لمعرفة أسرار الذئاب ومهنتهم. فإذا بلغوا أشدهم انطلقوا في جماعات جديدة للصيد، بعدها ينطلق كل واحد منهم لتكوين أسرة وانجاب أطفال، ثم تنضم الأسر جميعاً وتخرج للصيد..

جاء موعد خروجنا للصيد..

اتفقنا على اللقاء عند باب كهفي، بدأت وفود الذئاب تجيء. تحيتنا أن نهز ذيلنا ونرفعه عالياً. انتظمنا عشرة ذئاب ناضجة وذئبين صغيرين يخرجان للمرة الأولى.

راقبت الذئبين الصغيرين.

كانا منفعلين انفعالاً عظيماً. يتحركان في كل اتجاه، ويرقصان ويتواثبان ويجريان هنا وهناك. نظرت إليهما وتذكرت طفولتي في مصر. كنت ألعب هكذا في جبال مصر وصحرائها.. مع أخي الأصغر.. تضيع من ذاكرة الذئب كل لحظات حياته وتبقى رجفة الخروج للصيد أول مرة.. تبقى حية طرية في ذاكرته. لا ينسى الذئب توهجه الأول وهو يخرج للصيد ويتعلم عواء المطاردة. أذكر أول مرة خرجت فيها مع أخي أنه قال لي همساً:

ـ أنا خائف قليلاً..

سألته ـ لماذا.. هل أنت كلب لتخاف؟

انفجرت ضحكته وقفز نحوي وأطبق بأسنانه على رقبتي وسأل:

ـ تحب أن أريك كم أنا خائف؟.

وضحكنا يومها كثيراً، وتواثبنا مثل هذين الذئبين.
كان يوماً لا ينسى.
اجتمع شملنا أخيراً وبدأنا المفاوضات السريعة.
في بداية الصيد نناقش الأهداف المحتملة ونختار من بينها أكثر الأهداف صعوبة وتحدياً.
قال أحدنا ـ هناك مجموعة من الوعول التي ترعى هناك عند الأفق.
قال ذئب آخر ـ عثرت على مستعمرة للفئران السمينة. لا يحرسها أحد.
قال ذئب ثالث ـ في اتجاه الغرب رجل يربي ستة من الخيول يحرسها كلبان.
نظرت إلى العيون فقلت:
ـ في اتجاه الشمال خيمة يعيش فيها عشرة رجال يخرجون للرعي، معهم قطيع من الخراف والنعاج والبقر. تحرسهم ستة كلاب. والرجال مسلحون جيداً.
كان الهدف الذي حددته هو أصعب الأهداف. واستقر الرأي عليه.
واتفقنا أن نهجم في منتصف الليل..
وانحدرنا قبل المساء نحو الصحراء..
سرت في المقدمة، تجري إلى جواري ذئبتي، وتتبعنا القافلة الطويلة. يتواثب في نهايتها ذئبان صغيران.

فقدت الأرض لونها الأصفر ونحن نجري وسط حقول خضراء تسقط عليها بداية المساء. ثم عاد للأرض لونها الرمادي ونحن نعبر منطقة جبلية. ثم جاءاللون الرصاصي واقتربت رائحة أخوة يوسف.. توقفت أثناء الجري فجأة فتوقفت القافلة كلها وراحت ترهف السمع.
سألتني زوجتي هامسة:
ـ لماذا توقفت؟
قلت هامساً ـ أشعر بـالتشاؤم.. وأحس أنني لن أراك بعد الليلة.
ابتسمت عيناها ابتسامة واسعة مشجعة فعدت أعدو نحو الهدف.
بدأنا زحفنا الحذر حين اقتربنا من الخيمة.
كان الأخوة العشرة ينامون في سكون خارج الخيمة، ولم تكن هناك كلاب. كيف تركوا الماشية بغير حراسة إذن.. أدهشني ذلك وأثار ريبتي.
قلت للذئاب ـ انتبهوا جيداً فإنني أظن أن هؤلاء النائمين ليسوا نائمين.
قالت زوجتي ـ تنتابك الهواجس اليوم يا حبيبي.
قلت ـ ربما كانت هناك فخاخ منصوبة، لن نخسر شيئاً من الحذر.
كان الذئبان الصغيران الطائشان قد تقدما أكثر مما ينبغي نحو الماشية. وأحست الماشية بالخطر فاستيقظت فزعة وبدأت تخور وتضطرب.
جريت أحضر الذئبين الصغيرين فلم ألزم الحذر. نصحت قومي به ونسيته. لم أدر دورة كاملة وإنما سرت في خط مستقيم. لم أكد أتقدم قليلاً حتى انطبق على قدمي الخلفية فخ قوي.

بكيت حريتي في عواء طويل وانتشرت شرارة الكهرباء من فمي لفم الذئاب فتمزق الهواء بصوت العواء المعول الصارخ.

وحدث كل شيء بعد ذلك بسرعة.

قفز الرجال من تحت أغطيتهم الصوفية وأطلقوا سهامهم على الذئاب فانطلقت مبتعدة تعوي..

وأقبل الرجال العشرة نحوي بالعصى والحبال. وانهالت على جسدي العصي وألقيت عليّ الحبال وراحت تلتف حولي حتى سكتت حركتي تماماً.

أخيراً وقعت في الأسر.. وطافت بذهني صورة أخي الغائب.

أدركت كيف ضاع.. أضيع مثلك يا أخي فلا تحزن..

عويت عواء ضعيفاً يتضمن الأمر بابتعاد أسرتي عن المكان وتركي للأقدار.

وردت عليّ زوجتي بعواء ممزق صارخ يتلوى.. أفهمتني في عوائها انها قادمة لانقاذي، وليكن ما يكون.. وعويت عليها أن تنصرف لتعنى بالأولاد.. أوصيتها بأصغر ذئابي كثيراً، وابتلعت الصحراء أصداء العواء.. عاد الصمت إلى الرمال فوجدني ملقى على الأرض مقيداً بالحبال.

رفعت رأسي وتأملت من أسرني.. هم أخوة يوسف بغير جدال. اطمأنوا لإستسلامي وربطوا أقدامي في فرع قوي من فروع الأشجار وحملوني مدلى منكس الرأس نحو قريتهم.

قال أحدهم بفرح: سنقول ليعقوب هذا هو الذئب الذي أكل يوسف.

ارتفعت أناتي حزينة شاكية فضحك الرجال وقالوا:

ـ كأن الذئب يفهم ما نقول.

توقفوا فجأة وقالوا: كيف نثبت له أن هذا هو الذئب القاتل.

تشاوروا قليلاً ثم ذبحوا أحد الخراف ولوثوا مخالبي بدمه، كما لوثوا فمي بدمه. وكان فمي جريحاً فأضيف إليه دم جديد لاثبات المهزلة.. سرنا طويلاً حتى شارفنا قرية صغيرة تنتشر حولها الرمال الصفراء والأراضي المزروعة، أحسست بالعطش ونحن نسير حذاء نهر فلسطين.. دخلنا قرية تنورها مصابيح الزيت.. قلت لنفسي وأنا أستنشق رائحة الزيت، هذا زيت زيتون. ضاق الطريق وتعرج وتصاعدت رائحة الطعام المطهو فتزايد احساسي بالبؤس.

تصايح أخوة يوسف حين وصلوا لبيت أبيض تحيطه حديقة مشجرة.. حفظت الطريق جيداً خلال الرحلة الفاجعة.. من يدري..

نقر الأخوة الباب فانفتح عن ثلاث نساء..

تصايحت النساء فزعات حين رأينني وهرعن إلى الداخل. دخلنا البيت.

ملأ قلبي إحساس غامض بالسلام.. بيت من هذا يا ربي؟

ألقاني الأخوة على الأرض أمام شيخ أبيض اللحية مهيب الملامح.. ضربتني الأرض بقسوة فعدت أئن.

قال أحد الأخوة للشيخ الجليل:

ـ هذا هو الذئب الذي يحل بغنمنا ويفترسها.

قال أحدهم: هو نفسه الذئب الذي أكل يوسف. اصطدناه اليوم.

أكل منا يوسف أول أمس وعاد إلينا اليوم..

قال صوت احدى النساء: أنظروا دماء يوسف على مخالبه وفمه.. اقتلوه الآن قبل أن يفيق من اغمائه.

كنت أتأمل عيني الشيخ وأحدق في صفائهما وأسبح.. هذا هو يعقوب إذن.. أدركت أنه نبي من أنبياء الله. ملأني إحساس عميق بالراحة حين قال الشيخ لأولاده:

ـ دعوا الذئب لي. وانصرفوا.

قال أحد الأخوة وهو ينسحب: احـذره يا أبي فإنه ذئب غادر.

خلت الـغرفـة من غيرنا.. وبقينا معاً يعقوب وأنا. اقترب مني يعقوب وفك وثاقي وأطلقني حراً.. وقفت أمامه وحنيت رأسي ورفعت ذيلي أحييه.

قال يعقوب وهو يخرج قميصاً ملوثاً بالدم.

ـ هذا قميص يوسف أيها الذئب.

فاضت عينا الشيخ وهو يرمي إليّ قميص يوسف.

ـ حدثوني أنك أكلته وألقوا إليّ قميصه الملطخ بالدم.

شممت القميص وتأملت نسيجه فوجدته سليمًا بغير خدش واحد. رفعت عيني إلى الشيخ وقالت نظراتي:

ـ أيها النبي الكريم.. كل الذئاب بريئة من دم ابنك.

قال الشيخ ـ أعرف أيها الذئب.. أعرف ذلك. كيف يفترس الذئب يوسف ويظل قميصه سليمًا. هو خطئي أنا أيها الذئب.

قلت حين أراد أخوته أن يصحبوه: أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون.. قدمت خوفي منك على حفظ الله له ورعايته فأصابني ما ترى.. عاقبني الله تعالى، وضاع مني يوسف وجاءوا بك بدلاً منه.

قلت بعيني ـ لا أفهم يا سيدي ما تقول.. هذا كلام كبير.

قال يعقوب ـ أدن مني أيها الذئب.

دنوت منه..

عاد يعقوب ينحني ليلتقط قميص يوسف وهو يقول: أدن مني أيها الذئب..

رحت أدنو منه حتى ألصقت خدي بخده وبكيت مثلما بكى.. مد يعقوب يده وربت بها على رأسي فبرئت جراحي جميعاً.. سألني بصوته العميق الحزين.

ـ أين ذهبوا بيوسف. وكيف عثروا عليك؟

قلت له: لست أعرف ماذا فعلوا بيوسف. سمعتهم يتحدثون عن القائه في بئر. لكنني

أقسم لك أيها النبي أنني ذئب غريب جاء من نواحي مصر في طلب أخ لـه خرج ولم يعـد. اصطادني أولادك وأوثقوني وجاءوا بي إليك. نحن لا نأكل لحم البشر أيها النبي. . حرمت علينا دماء الأنبياء أيضاً. ليتني لم أخرج من مصر بحثاً عن أخي.

قال يعقوب وهو يضم قميص يوسف إلى صدره.

خرج الذئب يبحث عن أخيه، وضيع أبنائي أخاهم يوسف.

قلت: أيها النبي الكريم. . أطلق حريتي لأعود إلى مصر. لن أعيش في أرض يكذب فيها أولاد الأنبياء على البشر والذئاب. .

من فينا الذئب الآن. .؟ أنا أم أولادك يا سيدي الكريم؟

عاد يعقوب يربت بيده على رأسي. . ثم نهض وفتح باب غرفته لي.

انقض أبناؤ ه عليّ بالسهام والحراب والكلاب وهم يصرخون.

ـ أطلق أبونا الوحش. .

قال يعقوب: «بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون».

قفزت خارج البيت وانطلقت أجري.

جريت بنصف قوتي وتركت نصفها الثاني بقعاً من الدماء على الأرض.

أصبت أكثر من اصابة قاتلة لكنني أجري بعيداً عن القرية.

لا أريد أن أموت هنا.

خرجت إلى الصحراء العريضة وإذا بالأرض تدور فجأة. . دارت الأرض حتى وقفت بكل ثقلها على رأسي. .

واشتد دوران الأرض.



حوت يونس

﴿ فَالْتَقَمَهُ الحُوتُ وَهُوَ مُليمٌ، فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المُسَبِّحينَ، لَلَبِثَ في بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾.

(سورة الصافات ـ آية ١٤٢ ـ ١٤٤)

استدرت راسمًا حرف النون في المياه.

قوست جسدي وضربت المحيط بذيلي فارتج الهواء منفجراً كهزيم الرعد، واندفع من المياه شلال لأعلى بعد ضربة الذيل.

والأصل أن ينحدر الشلال إلى أسفل..

كل شيء على الأرض ينحدر إلى أسفل.. تنفس الخلائق وسقوط الثمار وانهيار الشلال..

وفي البحر يتنفس الحوت العظيم لأعلى، ويصنع من المياه شلالات لأعلى..

استبدل الحوت بيديه القديمتين نافورته الأمامية وضربات ذيله الخلفي.. وكل شلال يندفع لأعلى من الحوت يد مائية تمتد لخالق المياه بالتسبيح.

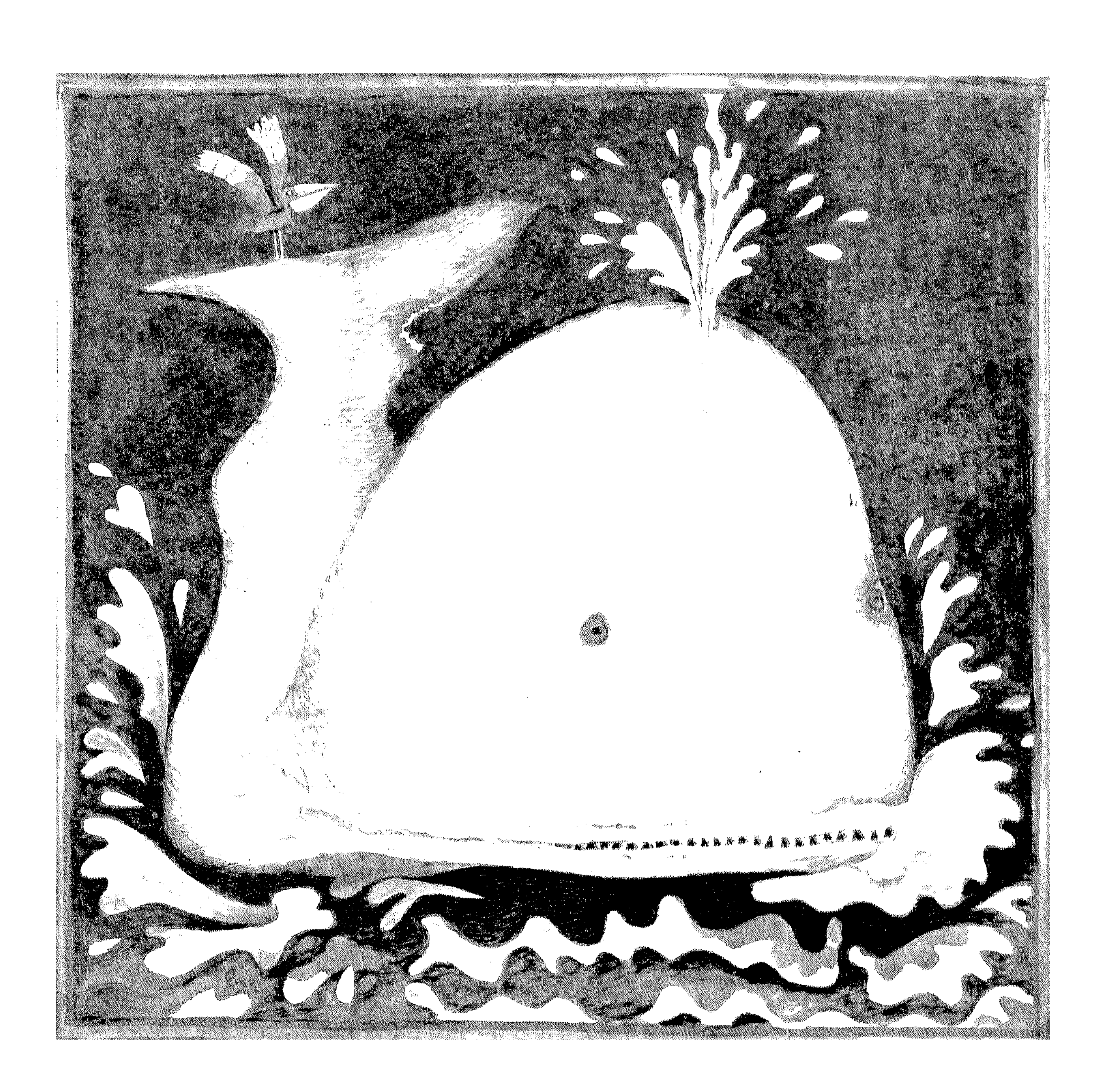
ضربت الموج بذيلي ضربة ثانية، ورحت أتسمع صوت الانفجار الثاني والريح تحمله ليذوب مع صوت الانفجار الأول عند الأفق.

أعرف أن لطمتي للمياه تسمع على امتداد أميال وتصيب الآلاف من حيوان البحر وأسماكه بالرعب، غير أن هذا شأن القوة حين ترتعد فرقاً أمام خالق القوة.

أعتى جبابرة البحر في البحر أنا.. وأضعف من مياه منسكبة أمام الله.. أعرف أنني وحش المياه المتوج على الموج.. صنعت تاجي من زبد الصدق الأبيض وأعشاب الحقيقة الخضراء، وليس كالصدق والحقيقة قوة حين نتحدث عن القوة. توجتني على المياه قدرتي على الانطواء الذاتي في قلب الأبعاد الزرقاء التي لا قلب لها.. ومنحتني هذه القدرة، قدرة أجهل كنهها وإن كان كياني يسجد لها..

حركت ذيلي وانطلقت.

كل مياه المحيطات والبحار حجرتي الخاصة، واللون الأزرق الممتد تحتي أوراق أخط فيها



قصتي، وليس مثل الكتابة على الماء أو السير فوقه آية، لا يسير على الماء غير الأنبياء، لا يسير على الماء غير الصدق، أما البر فكم من الأكاذيب الترابية تدب فوقه . . أيضاً تبقى الكتابة على الحجر ندوبا ظاهرة لكل من ينظر، أما الكتابة على الماء فيلتئم عليها الماء ويغوص السر في البحر دون أن يخلع أقنعته . . وبذلك يبقى للسر نصيبه من اسمه في المياه . . وهنا تكمن عظمة المياه المستعارة . .

قلت عظمة المياه المستعارة.

وكل خلائق الكون العظيمة تستجدي من بهاء العظمة السرمدية . . تدرك خلائق الكون العظيمة في قرارة نفسها إنها صائرة إلى الموت. كلها باستثناء الانسان.

وحده الذي ينسى . . وحده الذي يتأله . . وحده الذي يدور بغرور الخلود رأسه . . لو كان فمي الوحشي يستطيع أن يضحك هازئاً لفعلت. لا أضحك . . لا أعرف غير تقطيب الجد المتجهم . .

لا أحب الانسان . . وكل الحيتان لا تحب الانسان . .

عداء قديم له قصة ستجيء في موضعها . . عفواً . .

يفور دمي حين أذكر الانسان فأهوي في المياه لأبعد الأعماق ثم أضرب المحيط بذيلي وأندفع خارجاً.

ها هو سطح البحر.

أقفز من السطح لأعلى نحو السماء. قفزة جبارة مثلى.

هذا سجود الحيتان. يهوي الناس سجوداً نحو الأرض وتهوي الحيتان سجوداً نحو السماء . . أليست أرضنا سماء المجرة.

أسبح في بحار الشمال حيث لا تطرف عين الشمس ولا تغرب. أرى الشمس من مكاني قرصاً أصفر سقط في مياه خضراء . .

هذا العري المتألق للشمس، المنطفىء في المياه، يوحي بالوحدة.

وليس كالوحدة رفيق للعظماء.

وليس في عظمة حوت العنبر أحد.

ومن بين كل حيتان العنبر السابحة في المياه، وقع اختيار القدرة الخالقة على شخصي لابتلاع يونس.

لم أكن أعرف . . عرفت بعد التقامه انه نبي . .

كانت أقسى تجربة في حياتي المائية المديدة . . أعترف بذلك

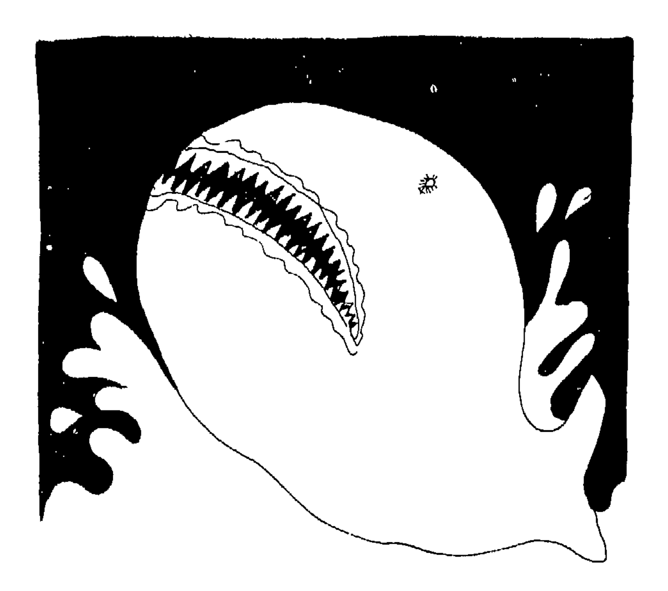
ليس هناك حوت يتجمع العرق على جبينه حبات . .

ليس هناك حوت يبكي رقة وحبا.

تجمع العرق على جبيني وبكيت . .

كنت أحاذر أن يراني وحش من وحوش المحيطات وأنا أبكي . . إن هيبتي في المياه عرش قديم لم يخدش. ولم أكن لأتركه. يخدش.

إن جسدي الذي يزيد طوله عن طول جزيرة متوسطة، ووزني الذي يصل إلى مائة ألف



صخرة.. واندفاعاتي في أعماق المياه بعد ذلك.. هذا كله يكفي لجعل أخطر أسماك القرش الوحشية تندفع هاربة حتى تحطم جسدها في الصخور خوفاً ورعباً.

ورغم ذلك بكيت..

لا أريد أن أقفز إلى النهاية..

هزني ما حدث إلى حد الانفعال فمرضت..

بدأت أمعائي تصنع العنبر. لا تصنع الحيتان العنبر إلا إذا مرضت وأشرفت على الهلاك..

رأسي يدور وذيلي يتحرك نصف دورة فأندفع.

عـــلى الماء أكتب.

المياه تلتئم على السر فأكتب.

حين كان البحر طفلاً لم يتجعد جبينه بملايين السنين والأمواج كان أجدادنا يعيشون على الأرض..

في مكان ما من جسدي الهائل.

في نقطة ما من عقلي المخبوء..

وفي نقطة تختفي وراء عرش من الزيت.. وتقع بين اللحم والدم والاعصاب ترقد صورة قديمة..

أرض رمادية مضببة.

يتصاعد من البراكين فيها بخار أرجواني يختلط باللون الاصفر

تدب على التراب أقدام الديناصورات وأقدام أجدادنا..

كان أجدادنا وحوشاً أعظم حجمًا من الديناصورات.. وكان الديناصور قد بدأ ينقرض من الأرض..

كان حجمه هائلاً.. وعقله صغيراً.. ورغباته كثيرة.. ولم يكن قادراً على التكيف وسط ظروف الأرض المتغيرة..

وكان أجدادنا يقاسون من نفس المأساة..

كانت الأرض تهيأ لاستقبال جنس جديد يسمونه الانسان. وكان هذا الجنس غير معروف لنا على وجه التحديد.. كنا نسمع عنه كلمات غامضة مثيرة.. وكانت الملائكة تتحدث عنه بدهشة وحب، وكان اقتراب هبوط هذا الجنس على الأرض يحمل نذيراً بهول غريب لكائنات الأرض الوحشية.. لا أحد يدري ماذا أصاب وحوش الأرض حتى اشتعلت بغضب هائل واندفعت تقتتل وتسفك الدماء.

لم يعد باقياً من الوحوش البائدة غير جنس آباء الحيتان وأمهاته. كنا أعظم الوحوش حجمًا فكسبنا المعركة..

امتلأت الأرض بالدماء والخرائب.. وهرع أجدادنا إلى البحر جماعات جماعات.. نظروا إلى الأرض وأدركوا أن حياتهم فيها لم تعد ممكنة.. خلت الأرض من الوحوش المنافسة، خلت من الطعام.

وبدأ أسلافنا يقفزون في المياه.

لم يكن أمامنا غير حل من اثنين.

أن نبقى على الأرض ونهلك جوعاً. أو نقفز في الماء وننجو..

وقفزت آلاف من أسلافنا في المياه.. كانت لنا أيد وأقدام ورؤوس وأنوف.

يتصور الناس أن الحوت سمكة.. ليس كهذا القول إهانة لجنس الحيتان.. دم الأسماك بارد ودمنا حار..

نحن حيوانات ثديية عشنا على البر في عصور ما قبل التاريخ ثم لجأنا إلى البحر لنخلي الأرض للانسان.

عفواً.. دمي يفور كلما ذكرت الانسان.. أغوص في البحر حانقاً مندفعاً.. قيل لأسلافي وهم يقفزون في البحار:

ـ طوبى لك أيتها الكائنات العظيمة..

تصيرون ملوكاً للبحر لا ينازعكم عليه غير الانسان، يطاردكم أحياء وأمواتاً. بعد موتكم تصيرون عطراً لعدوكم، وزيتاً لقناديله وطعاماً لأطفاله، ودواء لأمراضه.

لقد سخركم خالق الكون للانسان.

لم يكن هبوطنا في البحر هبوط إهانة. على العكس من ذلك..

كان هبوط كرامة.. تماماً مثل هبوط الانسان إلى الأرض.

إن حجم المياه أكبر من حجم الأرض أربع مرات.. وفرصتنا في النمو أكبر من فرصتنا على

الأرض أربع مرات.. وطعامنا أكثر أربعة أضعاف.. غير أننا نهبط إلى البحر وقد انغرس في أعماقنا الصراع الوحشي ضد الانسان.. وشيء من الدهشة في نفس الوقت.

كان هذا منذ ملايين الملايين من السنين.

خلالها لم تعد لنا حاجة لايدينا.. تحورت أقدامنا ورؤ وسنا وأنوفنا.. صار وحوش الأرض القدامى هم حيتان البحر الآن..

حدثتني خلية في جسد أمي بكل هذه الأسرار قبل أن أولد.

لست أذكر أين ولدت.. أذكر وجه أبي..

كان رهيباً بوجهه الأبيض وحردبته العالية وذيله الجبار.. طوله ٩٠ متراً ونصف متر، أمي هي زوجته الثالثة.. لا يزيد طولها على ٢٥ متراً، حسناء رشيقة، لونها يميل إلى الرمادي الفاتح.. كانت أماً مثالية. لم أر أمي تبتسم أبداً.. لم أر أبي يضحك أبداً..

سألت: لماذا لا تبتسم الحيتان؟

قال أبي: اخرس.. كيف تبتسم أعتى وحوش البحر..

نظر أبي لأمي نظرة حانقة بطرف عينه وقال:

ـ جاء ابنك رقيق المشاعر مثلك فعليك الغضب..

أخذتني أمي إلى البحر مبتعدة عن أبي وهمست لي:

ـ أنت وحش يا حبيبي فلا تخذل ماما وبابا.

كانت طفولتي بهيجة.. لولا نظرات أبي وتعليقاته الوحشية. حين ولدت كان طولي يزيد قليلاً على عشرة أمتار ونصف متر.. دار أبي حولي متفحصاً وقال لأمي: لا بأس بطوله.. يعجبني لونه الأبيض.. أرجو أن يأخذ طباع أبيه.

قال تعليقاته ومضى يغوص في المياه..

كانت طباع أبي معروفة في المحيطات كلها. اشتهر بالبطش والقوة والسرعة، وهي ثلاث صفات لابد من توافرها في وحوش البحر وسادته.

ولقد أدركت حين كبرت أن أبي كان سيداً على البحار كلها..

بعد ستة عشر شهراً قضيتها في رحم الأم، رضعت ستة أشهر.

لم أر أبي فيها غير مرتين.. وأعترف أني أحببت أمي طوال أشهر الرضاعة أكثر مما أحببت أبي.. كانت حانية رقيقة، ولم أرها غاضبة غير مرة واحدة حين هاجمني سرب من أسماك القرش الصغيرة.. تصورت في البداية أنها جاءت تلعب معي ثم اكتشفت أنها تهاجمني وتعضني.. كنت طفلاً ضعيفاً طوله عشرة أمتار.. صرخت أنادي أمي فانشق المحيط عنها وقد تحول ذيلها إلى مروحة جبارة تضرب ضربات خرساء عمياء في كل اتجاه.. وأدهشني أن ضربات ذيلها كانت تمزق أجساد أسماك القرش فتولي هاربة.. لم يستطع أحدها أن ينال مني غير قطعة من لحم الذيل.. صارت فيها بعد علامة مميزة.. واندلع حقدي عميقاً على أسماك القرش.. واشتهرت حين كبرت بأنني ولوع بالتهام العشرات منها سدادا لديْنها القديم.. ولقد أعطيت أسماك القرش في مقابل

لحظة الخوف الوحيدة في طفولتي.. ليالي من الرعب الأسود المتشابك وسنوات من الخوف المتصل.

ـ أقبل حوت العنبر الأبيض، ذو الذيل المشوه..

هكذا كانت حيوانات البحر تعلن عن مقدمي..

ساعتئذ تولي الأسماك والوحوش هاربة فأمضي في طريق أخلاه الخوف المخوف ذاته.

أنهيت فترة رضاعتي وجاء أبي.

سأل أمي مشيراً بذيله إليّ ماذا حدث لذيله؟

قالت مزهوة: الحوت سر أبيه.. تركته وحده فهاجمه سرب من أسماك القرش..

قال أبي: عظيم.. كيف تصرف الوحش الصغير؟

قالت أمي ـ وهي تنظر نحوي خائفة ـ تصرف الوحش الصغير كأي وحش صغير..

قال أبي وهو يضرب الماء بذيله: حمداً لله.. حمداً لله.. اتبعني أيها الوحش.. انتهت طفولتك وغداً تبدأ دروسك.

أدهشني أن أبي صدق أنني تصرفت كوحش. ماذا لو علم أنني صرخت أستنجد بأمي، ما أعظم دهاء الاناث وكيدهن.. كانت أمي تحميني بكلمتها من بطش أبي.. وفيما بعد حدثتني أنه لو علم ما حدث لقتلني ضرباً بذيله..

قتل قبل ذلك ثلاثة حيتان ضعيفة ولدتها له زوجاته الأخريات وهو يقول:

ـ أفضل للوحوش أن تموت مستورة من أن تعيش خائبة.

قلت إنني أحببت أمي أكثر من أبي. استمرت فترة الحب ستة أشهر هي فترة الرضاعة بعدها أحببت أبي عامين هما فترة المدرسة.. بعدها غاص حبي لأمي في قرار المحيط، وسقط حبي لأبي في زبد الموج، وصرت وحشاً حقيقياً حين كففت عن الحب...

بعدها، لم يعد هناك من يستطيع أن يتصدى لي أو يسبح أمامي أو يسمع عني ولا يرتجف. كنت أعتبر أن من يراني ولا يتخبط رعباً هو مخلوق يتوقح عليّ، وتلك جريمة تستوجب العقاب السريع.

وهكذا تسبقني سرعتي نحو المتحدي فأواجهه.. ويتحرك ذيلي نحوه فأحطمه، وينفتح فمي أمامه فيغيب في جوفي..

ثلاث حركات موسيقية سريعة تتم قبل أن تدرك الضحية ما حدث.. وأحياناً أفتح فمي وأنطلق.. بعد أن أمر تنطبق المياه على الصمت.

يصير جوفي مقبرة للمتحدي قبل أن يموت.

ألتهمه صاحياً ليموت على مهل في بطني..

بعدها أقفز من المياه لأعلى، شاكرا أنعم الاله.. مرتعشا من خشيته طالبا رضاه..

كان من الطبيعي أن يكون التدريب على استخدام الذيل أول درس نتلقاه من أبي في المدرسة..

كانت مدرستنا تقع في بحار الشمال البعيدة، حيث تقف جبال الثلج العائم شاهدة علينا طوال الوقت بصمتها الهازىء المتحدي.

كان فصلنا يضم ستة حيتان من الذكور. . وكان أبي هو المدرس العبوس الذي يتحرك ذيله نحو المخطىء فيصيبه بلطمة خفيفة يظل تأثيرها ليالي طويلة. . كأن جبلاً من الصخور يرقد فوق جنبك أو بطنك أو رأسك. . حسبما تقع الضربة. .

في الأيام الأولى من المدرسة تذكرت بالأسى أيام الرضاعة الحلوة.
كانت أمي تعوم على جنبها وهي تنظر نظرة ساجية، بينما أنا مقوس ألتصق بجانبها وقد التقمت ثديها في فمي، لا أحدق فيها وإنما أحدق بهدوء وثبات بعيداً عن الثدي، كأنما أحيا حياتين في وقت واحد. . يجتاح الحوت حين يمتص اللبن من الثدي احساس بأنه يستطيب ذكريات غير مائية، ذكريات تجيء من عالم الروح حيث يسود سلام رائع وأمن عظيم. .
انتهى الأمر وتبدد السلام القديم في الأيام الأولى للدراسة.
كنت خائفاً من أبي. . لا أنكر. . وكنت أحس بالشوق لأمي. . لا أنكر. وكأنما أدرك المدرس العبوس ما يجول بخاطرنا جميعاً فقال:
ـ عندما يغادر الحوت أمه يغادر سجنه الأصغر. . فإذا غادر أباه غادر سجنه الأكبر. . بعدها ينطلق وحشاً في المحيطات لا يوقفه شيء. .
قال أبي كلماته ثم قفز من الموج قفزة جبارة فانحدر الماء من حوله كأن ألف جزيرة تقفز في الفضاء. .
حين هبط ثانية إلى الماء ضرب المياه بذيله ضربة تقعقعت لها عظامنا الطفلة المسكينة. .
قال المدرس: هذه أبسط ضربات الذيل. .
أريد أن يهتز الأفق البعيد بأصوات الانفجار وأنتم تضربون المياه. .
نبدأ بأكثركم وحشية. .
أشار بذيله نحوي. .
سألت: هل أقفز أم أضرب الماء أولا؟.
قال: أقفز أولاً أيها الغبي.
قفزت لأعلى. . صرخ يستحثني أن أفجر عروقي وأنا أقفز. . صرخ إنني أقفز كأسماك القرش البائسة، ثم غير رأيه وقال إنها قفزة تشبه قفزات كلاب البحر المضحكة. . عاد يصرخ مطالباً بقفزة ملكية. . قفزة حقيقية. . لأعلى. . أريد أن تصل رؤ وسكم إلى الشمس. .
مرة ثانية لأعلى. . أضرب الآن بذيلك. . خيل إليّ من فرط القوة التي أودعتها الضربة أن رشاش ضربتي سيطفىء الشمس. . قال أبي صارخاً: لم أسمع غير تنهيدة سمكة مريضة. .
عاد يضرب ذيله في المياه وقد اشتد هياجه عن هياج البحر.
وعدنا نضرب وراءه. .
استمر التدريب يوماً كاملاً. .
خيل إليّ في نهايته أن جبال الثلج قاربت أن تذوب من فرط مجهودنا المتصل. . حين سقطت الشمس في آخر المحيط قرصاً أحمر. . قال مدرسنا وهو يستدير ويمضي:

ـ تنامون هنا حتى الصباح. .

لم يفكر أحدنا في أمه. . ذابت فترة الأشهر الستة الماضية في عناء يوم واحد. .

ضاعت منا أيام الجنة الأولى. . وها نحن نهبط بحار الشقاء دون أن ندري أي ذنب كسبناه. .

نمت في مكاني من فرط التعب. .

وفتحت عيني في اليوم التالي على الدرس الثاني في استخدام الذيل. .

أيقظنا انفجار قوي هو صوت مدرسنا وهو يضرب الماء بذيله. كان أبي يحرك نفسه بيسر ورشاقة يتموجان خلال جبروت القوة. . بل لعل رشاقته كانت تستمد جمالها من قوته. . وفي كل شيء جميل آسر الجمال تلعب القوة دوراً سحرياً. .

قال أبي في ابتداء درسه الثاني دون أن يفتح فكه. . قال بشكل عملي:

ـ يختص بذيل الحوت خمس حركات كبيرة.

أولها أنه يستخدم كزعنفة تعين على الحركة والتقدم، والثانية حين يتخذ درعاً للهجوم أو الدفاع، والثالثة حين يجرف به ويكتسح المياه، والرابعة في استرخاء على المياه أثناء الصلاة، والخامسة حين يرفع الشطيرتين في اتجاه عمودي على المياه أثناء التسبيح. . ولئن بدت الحركات الخمس سهلة على قراء المياه النظريين فإنها في المياه جهد مفتت.

وبما أن ذيل الحوت أفقي في وضعه فإنه يتحرك على نحو يختلف عن ذيول جميع الحيوانات البحرية الأخرى. . وهو لا يتعقص أبداً. . فالتعقص في الانسان والأسماك من أمارات النقص. . والحوت مبرأ من النقص. وذيله هو وسيلته الوحيدة للدفع، وبما أنه يلتف كالموجة أماماً تحت الجسم، ثم يقفز بسرعة إلى الخلف، فهو الذي يمكن الحوت من حركة انطلاقه الفريدة الواثبة حين يسبح بعنف وهياج. . أما الزعانف الجانبية فتعين على المخر ليس إلا. .

أفهمتنا الدروس أن حوت العنبر حين يقاتل حوت عنبر آخر فإنه يستخدم رأسه الجبار وفكيه. . فإذا انتقل الأمر إلى الصراع مع الانسان فعلى الحوت أن يستخدم ذيله فقط.

ليس في الأمر استهانة بالانسان أو ازدراء له. .

كل ما في الأمر أن استخدام قوة تزيد عن الحد، مع مخلوق يقل عن الحد، ليست غير جهد معيب بغير حد. .

الرأس والفك إذن لصراع الوحوش والحيتان. .

والذيل وحده للصراع مع الانسان والسفن. .

وفي ذيل الحوت حساسية مرهفة. . وأحياناً يقف عصفور مائي على ذيل حوت سابح. . ويحس الحوت على الفور نوع الطائر من وزنه، يعرف أي طائر هذا ومن أي الجزر جاء. .

في اللحظات التي تشرق فيها الشمس. .

وحين يكون قرصها أحمر اللون لم يدركه اصفرار الشيخوخة تصطف آلاف الحيتان وتبد تسبيحها لله. .

ترفع جميعاً شطيرتي ذيلها منصوبتين في الفضاء، عمودية على البحر متجهة للسماء.. ومن قرار الأعماق التي لا قرار لها.. يبدو الذيل الضخم وكأنه يحاول التشبث متشنجاً بالسماء السابعة.

وليس أعظم في الطبيعة الحية من هذا المنظر.

قلبي يخشع حين أذكره، وأذكر كيف تتأرجح أجساد الحيتان وأذنابها عمودية على البحر ضارعة إلى الله بتسبيح الصباح.. ساعتئذ يشهد لنا البحر أن الحيتان هي أشد مخلوقاته تقوى وأعظمها ورعا.

في العام الثاني من دراستي أبديت نبوغاً ميزني عن رفاقي الحيتان، وكان بشيراً بمجد ينتظرني فيما بعد.

كان ذيلي الذي شوهته أنياب سمكة القرش بقعة من نار تشتعل في الماء وتلهبني كي أتفوق.. لم تكن أسماك القرش طعامنا الأساسي، كان الأخطبوط وجبتنا الدسمة.

غير أنني آثرت أن أجعل أسماك القرش طعامي الأساسي مع الأخطبوط.. كنت أندفع وسط قطعانها برأسي مفتوحاً عن آخره، محركاً ذيلي في نفس الوقت حركاته القاتلة، وكنت أخلي البحر منها في ثوان قليلة، وأترك القطيع بعد أن أغسل فمي من دمائه في المياه.

مرت الأمواج وانتهت فترة الدراسة..

لم يكن باقياً غير عام نقضيه في دراسة التيارات البحرية..

بعدها نخرج للقاء الانسان..

أذكر أول مرة خرجت فيها لرؤيته..

قاد أبي القطيع متجهاً نحو بحار الجنوب الدافئة..

شاهدنا لعباً خشبية صنعت من نبات على البر يسمونه الأشجار.. فوق هذه اللعب الخشبية مخلوقات غريبة تمشي على أقدامها وتحرك أيديها وتنفث من فمها دخاناً..

قال قائدنا الأشهب: هذه هي السفن.. وهؤلاء هم أبناء الانسان

رفعت رأسي وتأملت هذه الديدان التي تعتلي ظهور عيدان وملأتني الدهشة.. أهذا عدونا الخطير القديم..

إن حجمه لا يزيد عن حجم ندبة صغيرة في ذيلي المشوه..

كيف يكون المخلوق بهذا الحجم الضئيل، ورغم ذلك يحسب له الجبابرة منا كل هذا الحساب.

قلت لأبي ونحن عائدون: أهذا هو الانسان؟.

قال: أظنك تحتقر حجمه.

قلت: نعم.

قال: وترى نفسك أقوى منه؟

قلت: نعم.

قال: وتحسب أنك تستطيع أن تحطم سفنه وتلتهمها معه؟

قلت: بالتأكيد.

قال: مخطىء أنت بكل تأكيد.. هذا المخلوق الذي رأيته من البعد كبقعة أو ندبة، هو أخطر أعدائنا على الاطلاق.

قلت: أين تكمن خطورته؟.

قال أبي: هل لاحظت رأسه.. إن رأسه مغطى بشعر أسود..

قلت: رأيت ذلك فأين وجه العجب؟.

قال أبي: يكمن سر قوته في رأسه المغطى.

قلت دهشاً: رأسه كله في حجم نهاية أصغر أسناني العاجية.

قال أبي مؤكداً: أسنانك بارزة.. ورأسه مغطى.. والفرق بينكما لا يزيد على ذلك. أنت قوي لا تخفي قوتك، وهو ضعيف يخفي قوته.. لن تعرف أبداً من أين تأتيك ضربة الانسان.. لن تعرف أبداً كيف تتقيها مقدماً.. إنه لا يعلن لك عن أفكاره، إنك تقترب منه في دهشة لتتأمل هذا الحوت الخشبي العائم الذي يحمل فوقه مخلوقات تدخن.

وفجأة.. يتمزق قلبك وتتخبط في دمك وتهلك.

لا تعرف من أين جاءتك الضربة.. ولا كيف جاءتك، إنك ترى الانسان يقف في مكانه كأنما هو يحرك يده بشيء.. أنت تضرب بجسدك حين تضرب، أما الانسان فلا يستخدم جسده.. يستخدم أشياء نجهلها تماماً.. لم يقل لنا أي حوت قتيل كيف أردوه، أو بأي أداة سحبوه نحوهم ولا كيف مزقوا جسده قطعا صغيرة.

كل ما ندريه أن حيتان العنبر حين تقع في أسر الانسان.. يزداد النور في سفنه حتى لتسير السفينة أثناء الليل مثل شعلة من الضوء.

زاد الأمر غموضاً بعد حديث أبي..

ملأني اليقين أن الانسان يملك قوى لا تملكها الحيتان، وحاولت عبثاً أن أفكر في هذه القوى فلم أصل لشيء، وسرعان ما نسيت الانسان.. ظلت دهشتي منه غريقة في أعماقي، وظل سؤالي عن أسرار قوته بغير رد. انصرفت مؤقتاً لشؤوني.

كان عليّ أن أؤكد ذاتي في بحار الشمال والجنوب والشرق والغرب. وكان عليّ أن أصارع أجناس الحيتان الأخرى حتى تتوجني عليها، ثم أنتقل من صراعها إلى صراع بقية أنواع الوحوش، ثم أنتقل منها إلى ترويع المحيط بمخلوقاته حتى تتوجني عليها.. بعدها أبدأ الصراع مع حوت العنبر المتوج فإذا انتصرت عليه صرت سيد المياه. استغرق الصراع مع بقية الأنواع عشر سنوات.. كان أبي خلالها قد هرم وثقلت حركته وازداد الشحم حول جسده وصار يتحرك كجزيرة عائمة تنفث.

وكعادة الحيتان.. أحالت الأمواج أبي الى المعاش وصار أقوى حينان العنبر سيداً على

البحر. . كان الحوت الذي احتل مكان أبي حوتاً جباراً أسود أبيض الذنب. كان أبي يرقب تقدمي البطيء الواثق في هدوء أقرب إلى التأمل.

لم يحدثني يوماً عن آماله القديمة في اعتلائي عرش المحيط. .

ولم أحدثه أيضاً في ذلك. . كان كلانا يعامل الآخر بتحفظ حذر واحترام بالغ. . ضاع حبي له وبقي الاحترام. . كنت أسأله كلما رأيته. .

ـ كيف حال الحوت العجوز؟.

وكان يجيب: ثقلت عظامه وبدأ فمه يجد طعم العنبر.

وأسأله: ماذا يعني ذلك أيها الحوت العجوز؟.

ويجيب: بدأ الموت يغزو والدك فمتى تركب قمم الأمواج لتستقر عظام أبيك على عظام المحيط. .

وكنت أجيبه: قريباً أيها العجوز. . قريباً. . ربما شهدت قبل موتك تاج المياه ينتقل لابنك. .

كان انتقال التاج يقتضي معركة وحشية مع الحوت المتوج، وكان هذا الحوت صاحب فك عظيم وذنب جبار.

وكنت في مثل قوته، ورغم ثقتي أنني أستطيع هزيمته فقد أرجأت القتال معه قليلاً.

لم أكن أريد هذا النصر المزري الذي ينتصر فيه المنتصر لأنه صمد أكثر أو ضرب أكثر أو أجهد نفسه أكثر. .

كنت أريد تفوقاً ساحقاً لا يسمح لي بأكثر من لحظة صراع أمزقه فيها. ولقد اقتضاني هذا أن أؤجل الصراع بعض الوقت.

كنت أثناءه أتدرب على شيء لم تتدرب عليه الحيتان من قبل. .

شيء أوحت به إليّ ذات يوم موجة عاتية. .

شاهدت موجة تحطم صخرة من صخور الشاطىء. . . أعرف أن الموجة ألين من الصخرة وأضعف، كيف يحطم الأضعف الأقوى. . جرى تفكيري للانسان الذي حذرني منه أبي. . قلت لنفسي. ربما انكشف سره مع سر هذه الموجة. رحت أدرس الموج أياماً وشهوراً متتابعة. .

أخيراً عثرت على السر.

اكتشفت أن الموج لا يكف أبداً عن حركته المعتدية، إنه لا يسأم من لطم الصخور. .

يتدرب الموج كل يوم. . هذا سر قوته. .

عدت بذاكرتي إلى أيام الدراسة الأولى وتذكرت كيف تكف الحيتان عن التدريب اليومي بعد انتهاء الدراسة، وتكتفي بالحياة العملية.

قررت أن أشذ عن جنسي وأتدرب في الخفاء. .

وهكذا اعتدت الاختفاء كل يوم نصف نهار في نفس مكان مدرستنا القديم. كان المكان مهجوراً لم يعد يتدرب فيه أحد.

كانت جبال الثلج التي طالما شهدت عقابنا ونحن أطفال لم تزل تقف شامخة هادئة كما هي.
وأندلعت داخلي رغبة غير مفهومة في تحطيم أحد هذه الجبال.
أليست هي الشاهد الوحيد على ضعفي أيام الطفولة.. ينبغي أن يزول أكبر هؤلاء الشهود حتى تخاف بقية الجبال.
اخترت أعتى الجبال وقررت البدء به.. كنت أحرك ذيلي وأنقض على جبل الثلج برأسي وفكي.. في المرة الأولى أصابتني الضربة بالدوار.. وظل الجبل على حاله بغير خدش واحد. وعاودت المحاولة برفق، ثم بقوة أكثر.. ثم بعنف.. في نهاية اليوم.. كانت هناك ثغرة في الجبل تشبه الكهف.. وكان رأسي يوجعني قليلاً... وإن أحسست أنه يزداد صلابة. كان طول رأسي يزيد عن ثلاثين متراً.. وكان الجبل هائلاً لا يريد أن يتزحزح، قلت لنفسي وأنا أنصرف عنه:
- سيصنع التدريب كل شيء.. غداً يزول الجبل..

ظللت ثلاثة أعوام أضرب الجبل كل يوم آلاف الضربات برأسي، ثم جاءت اللحظة الحاسمة أخيراً وتحطم الجبل..
انشق نصفين محدثاً صوتاً هائلاً جعلني أسبح بعيداً عنه، ثم وقفت رافعاً رأسي في المياه متأملاً هذه الكتلة الهائلة التي تميل على جنبها في المياه..
هزني الزهو الوحشي فعدت.. لم أنسف الجبل ولم أحركه من مكانه ولكنني كسرته نصفين.. صنعت فيه شقاً طويلاً جعله جبلين صغيرين. انتهى الأمر.. وصار بقاء الحوت الأسود ذي الذيل الأبيض على عرش المياه مسألة قد فرغ منها..
خلال فترة التدريب القاسية التي فجرت فيها عروقي من الجهد، وعقلي من العناء.. كان ملك الحيتان المتوج على المياه يقضي أوقاته في البحار الدافئة مستمتعاً بأناثه الجديدات، تماماً مثل سمكة سمينة وكسولة من أسماك البوري.
انتهى الأمر بوحش الأعماق ورعب الموج فصار سيداً للحب والغزل.. واضطربت الأحوال الداخلية في دنيا الحيتان، صارت الأناث الضعاف والحيتان المرضى تقتل كل يوم بالعشرات واصطبغ المحيط بدمنا الدافئ المتدفق العبيط، وبدا واضحاً أن البحر لم يعد ملكاً لبني الحيتان، أغار الانسان على البر وها هو يمد نفوذه إلى البحر.. ولم تكن مشكلة كهذه تحتمل التردد.
ينبغي أن يخلع ملك الحيتان عن عرشه..
لا يستحق هذا العجوز المتهالك على الأناث تاج الأعشاب الخضراء التي تلتف حول رأسه حين يخرج من القاع..
لم أكن أفهم هذا النزوع للأناث والتهالك عليها..
لم ألمس حوتة منذ أن ولدت..
لم أعرف ملمس جسد لأنثى غير جسد أمي التي أرضعتني.. بعدها آمنت برأي أبي في الأناث.. آمنت أن الحوت الذي يعيش طويلاً مع الأناث يكتسب كثيراً من عاداتهن ولا يستطيع أن يظل على وحشيته.

كنت أعرف أن الحيتان تجتمع كل عام في موسم الحب في البحار الدافئة . .
وهناك يتصدر قيادها حوت واحد . .
ومن حق أي حوت آخر أن يصارعه لو أراد اعتلاء عرشه . . ويكون الصراع عادة على الأناث . .
كان الوقت لم يزل مبكراً على اجتماعنا السنوي، لم أكن مستعداً للصبر طوال الشتاء . . كان أبي ينحدر نحو نهايته بسرعة، ولم أكن لأخذله قبل أن يموت .
وجاء يوم خرج فيه القطيع كله وقد تصدره الحوت الأسود ذو الذنب الأبيض . .
طاردتنا سفينة صيد . .
نزلت منها ثلاثة قوارب وبدأت تسبح وراءنا . . كنت أستطيع أن أستدير وأهشم القوارب . . غير أنني آثرت أن أنتظر قليلاً لأرى كيف يتصرف القائد المسؤول عن القطيع . . ضرب قائد القطيع المياه بذنبه ضربات متعاقبة لكنه ظل بعيداً عن السفينة . استطعت أن أستنشق لضرباته رائحة خوف خفي . .
في إحدى المرات التي غصنا فيها شاهدت شيئاً يندفع نحو أبي . . . بعدها انطلقت آهة الحوت العجوز . . جريت نحو أبي أسأله . .
ـ ماذا حدث أيها العجوز .
قال : مزق جسدي شيء لست أدري كنهه . . أراني أتحول إلى ضوء للمصابيح . . أراني معلقاً على البر مدلى من أسقف المنازل .
قلت : ستعيش فلا تقلق . .
خرجت من الماء واستدرت مندفعاً نحو السفينة . . كانت تقبل بكل سرعتها نحوي . . وصرخ عليّ قائد القطيع يحذرني من الصدمة . . لم أعبأ بصرخته وازداد انطباق فكي وازدادت حركة ذيلي وازداد اندفاعي .
كان صوت الصدمة هائلاً . .
انشطرت السفينة من مقدمتها نصفين . . وقالت الحيتان صارخة :
ـ تحطمت جبهة الحوت الأبيض ذو الذنب المشوه . استدرت بعد الصدمة واستخدمت ذيلي في كل اتجاه . . لم تكن السفينة أقوى من الجبل، وكنت مدرباً على الجبل . . بعد لحظات كانت السفينة بقواربها وناسها قد اختفت تحت صفحة المياه وانطبق عليها اللون الأزرق .
كان أبي جريحاً . . واقترب منه الحوت الأسود محاولاً اكتشاف علته ولكنني صرخت عليه من موضعي أمام الحيتان جميعاً أن يظل في مكانه فهو سمكة خائرة وليس حوتاً . .
توقف الحوت واستدار نحوي . .
ضرب أبي ذنبه في المياه وراح ينفث . . أدركت أنه فهم ما أقصد . . كان أبي يحتضر . . وأردت أن يراني سيداً للبحار قبل أن يموت . لم يستغرق صراعي مع الحوت وقتاً . .
اندفعت نحوه قبل أن يندفع نحوي وأطبقت فكي على رأسه . غاصت أنيابي العاجية الجبارة في رأسه .

هشمت رأسه مثلما أهشم بيض الأسماك حين أريح جسدي على قاع المحيط..
كانت قوتي تكمن في رأسي، وكانت قوته تكمن في ذيله.. وقد هشمت رأسه قبل أن يستخدم ذنبه.
وهوى الحوتان في المياه..
جسد أبي وجسد سيد البحار بعده..
رفعت ذيلي عمودياً على الماء ونفثت.
رفعت الحيتان بعدي أذنابها عمودياً على المياه ونفثت..
قدمت خضوعها لي، بصفتي ملكاً متوجاً على المياه، ثم قدمنا معاً خضوعنا لله.. بوصفه رب الموت والحياة.

ومرت أمواج وأمواج..
لم يعد في المحيطات الأربعة حوت مثلي.. دانت لي وحوش البحر بالطاعة، ودانت لي الأمواج بالخضوع.. وانكشف لي سر التيارات البحرية، وبقي سر الانسان مغلقاً أمام عقلي.. وأقسمت ألا يمر الانسان وسط أمواج شهدت مصرع أبي واعتليت فيها عرشي.. أقسمت أن أحطم كل سفينة تمر من هذه المياه...
لقد جاء الانسان من الأرض فأخرجنا منها.. وها هو يبدأ غزوه للبحر فينبغي التصدي له وإعادته إلى البر..
انعقدت جبهتي على ذلك..
وظللت وفياً لقسمي سنوات..

على امتداد سنوات لم تكن سفينة تمر في البحر وتستطيع أن تنجو..
لم يكن إنسان يجرؤ على هبوط مياه البحر ويعود سالماً..
حتى لو استقر في جوف سمكة قرش، فلم يكن ليهنأ باستقراره .. إنما كنا نحمل سمكة القرش ذاتها إلى جوفنا..
ورغم استمرار الصراع مع الانسان.. ورغم هزيمة الانسان فيه وانتصار الحيتان.. بقي سر الانسان طلسمًا لا يعرف حله أحد..
كيف ينجو الانسان من جوف الحوت؟
عذبني السؤ ال طويلاً ثم جاء يوم.

كنت راقداً في أعمق جزء في المحيط.
أرسيت عظامي على عظام القاع ونمت.. صدري يمتلىء بهواء يكفيني حتى الفجر.
ثم فوجئت أنني مستيقظ ومشدود الحواس..

لم أدر السبب فيما حدث. . رأيت نفسي أصعد إلى سطح البحر دون سبب مفهوم. . خيل إليّ أن يد القدرة التي تسير أصغر الأمواج كانت تحرك ذيلي.

وصلت إلى سطح البحر. . كان هائجاً مزبداً.

أتكون العاصفة قد بدأت. . نفثت قليلاً وقررت أن أعود إلى القاع. . كان الجزء الذي اخترته من القاع هادئاً بالقياس إلى هذا السطح. . فجأة لمع في ذهني سؤ ال كالبرق.

كيف يكون السطح عاصفاً والقاع هادئاً. . أعرف من تيارات الماء متى تجيء العاصفة. . أعرف ذلك قبل أن تجيء.

. . أتكون قوانين الموج قد تغيرت خلال إغفاءتي القصيرة؟

وقفت أمام السؤ ال حائراً.

فوجئت بأن سفينة تتأرجح هناك.

أسرعت نحوها بهياج وعنف. قلت أساعدها على الغوص بضربة. . لم أكد أصل إليها حتى فوجئت بأنني نسيت ما جئت من أجله. . رأيت نفسي أسبح خلف السفينة وكأنني خرجت في نزهة بحرية.

لست أعرف ماذا أصابني. . كان الظلام كثيفاً ومنطبقاً فقلت: لعلني لم أستيقظ بعد. . شاهدت شيئاً يسقط من سطح السفينة.

تقدمت نحو هذا الشيء فرأيتني أمام عدوي القديم.

إنسان يتخبط في جوف الهياج الجامح.

تقدمت نحوه وفتحت فكي.

دفعته موجة قوية داخل الفك.

أغلقت عليه أنيابي العاجية والتقمته.

هزتني رعدة قوية وأنا أسمع صوتاً ولا أرى أحداً. . كان الصوت يجيء من كل مكان ولا يجيء من مكان محدد. . كان الصوت لأحد ملائكة الله. . كان الصوت يقول:

ـ لم نجعله لك رزقاً بل جعلناك له حرزاً ومسكناً، خذه ولا تكسر له عظمًا، ولا تخدش له لحمًا.

في بداية الأمر، لم أفهم قصد الكلمات، تنفست نفساً عظيمًا وغصت في أعماق البحر. . ظللت أغوص حتى وصلت إلى القاع.

أرحت عظامي وأغفيت.

لم أكن أحس أنني أنا.

أعترف أنها كلمة تثير الدهشة ولكنها تعبر عن إحساسي الحقيقي وقتئذ. قبل أن أنام فكرت في الغرائب التي شاهدتها.

تساءلت كيف يكون السطح هائجاً عاصفاً بينما القاع ساكن راكد.

تساءلت لماذا أستيقظت. ما الذي أصابني حين رأيت السفينة فلم أحطمها. . من هو

الانسان الذي سقط منها. . هل ألقى بنفسه أم ألقاه أحد. . لماذا ألقى بنفسه. . ما الذي فعله. . لماذا التقمته.

ما معنى الكلمات التي حذرتني من المساس به. . كيف أبتلعه ولا أخدش له جسـدا؟

دارت الأسئلة في رأسي وثقلت وطأة السر عليّ فاستسلمت للنوم.

أستيقظت حين انـتهت كمية الهواء في رئتي.

خرجت إلى السطح. . كان هادئاً صافياً بغير موجة واحدة. . رحت أنفث

تذكرت ما حدث ليلة الأمس. . وخيل لي أنني كنت أحلم.

جاء موعد إفطاري فهرعت نحو خليج تكثر فيه الاخطبوطات. وصلت إلى الخليج وحاولت أن أفتح فكي لأتناول وجبة الافطار فلم أشعر داخلي بأي رغبة في الطعام.

ما هذا. .

أأكون مريضاً دون أن أعلم.

مرت جواري سمكة متوحشة من أسماك القرش.

كانت عادتي أن ألتقمها صاحية، وأهضمها على مهل في جوفي. . حاولت أن أفتح فمي لابتلاعها فلم أستطع. . لم أجد داخلي رغبة كافية تمكنني من فتح فمي. أدركت أن الغرائب التي عاينتها في الليلة الماضية لم تكن حلمًا كما ظننت.

كانت واقعاً لم تزل آثاره مستمرة.

فكي المنطبق وبطني الزاهد دليلان على تغير لست أدريه.

قفزت ساجداً نحو السماء سائلاً تفسير ما وقع.

أحسست بحضوره دون أن أراه. .

ثنيت جسدي تحية للملك وقلت:

ـ أيها الملك الكريم. . إن الحوت الأبيض ذا الذنب المشوه مريض ويرى أحلاماً. ليلة الأمس وقع لي حادث مروع.

قال: وقعت ليلة الأمس معجزة.

قلت: أيسمح سيدي الملك الآمر في البحر أن يحدثني عمن أبتلعت ليلة أمس.

قال: أبتلعت ذا النون.

تساءلت: معذرة لجهلي. من يكون ذو النون؟.

قال: نبي وديع ونسمة كريمة.

قلت: هل ألقى نفسه من ظهر السفينة؟.

قال: ساهم فكان من المدحضين.

قلت: التقمته دون أن أعرف أنه نبي. . لم أكن أعرف أن ابتلاعه سيستدعي حضورك. . أو حضور أي ملك من الملائكة.

قال: لم يجعله الله لك رزقاً؟.

قلت: ولكنه في جوفي. . انتهى الأمر وصار لي رزقاً.

قال: لا.. هو في جوفك ولكنه ليس رزقاً لك.
قلت: لماذا ابتلعته إذن.
قال: أنت له حرز ومسكن ؟
قلت: كيف يكون الوحش حرزاً ومسكناً لنبي هو الوداعة؟.
قال الملك: أيها الحوت.. تأمل جسد الانسان.. وهو أعظم منك وحشية.
تأمل نفس الانسان أو روحه.. أليست هي النقاء والوداعة؟. تأمل كيف يعيش الاثنان معاً.. الجسد رداء للنفس، والنفس لب للجسد، والجسد هو الوحش، والنفس هي الوداعة.
قلت: كيف تنجو النفس من الجسد ؟
قال: كما تنجو الوداعة من الوحش.
قلت: كيف تنجو الوداعة من الوحش ؟
قال: مثلما ينجو يونس من جوفك.
قلت: كيف ينجو يونس من جوفي؟
قال: ستعرف كل شيء.. تذكر فحسب أنك صورة لحوت.
أنت وحش حقاً ولكنك لست أعظم وحشية من جسد الانسان.
انطبق الجسد على النفس فلنر كيف تنجو النفس.
انصرف الملك وتركني وحدي.. أسبح فوق سطح أزرق غامض صرت أشك في زرقته.
زاد كلامه الأمر غموضاً في عقلي.. يقول لي إنني صورة لحوت.. أيعني هذا أنني لست حوتاً حقيقياً.. أيكون ما يقع لي الآن أحلاماً لا تقع لي.. أيكون كياني الوحشي جسداً لمعجزة دون أن أدري، أو يكون رمزاً لشيء لا علاقة لي به.
أعتلت الشمس عرشها في قلب السماء.. لم أزل سابحاً أنفث.. تعبت من السباحة فقلت أستريح قليلاً في أعماق البحر.. ثنيت ذيلي الجبار وغصت.
أغوص في مياه سوداء متفكراً.
ماذا يصنع ذو النون في جوفي الآن.. وكيف تنجو الوداعة من الوحش ؟
للمرة الوحيدة في حياتي أحسست أنني أشفق عليه.
ليست كلمة الاشفاق معروفة في قاموس الوحوش.
هي كلمة متحجرة بائدة لا يستخدمها من الوحوش أحد إلا إذا مرض وتراءى له وجه الموت.
أتراني مريضاً ينتظر الموت.
أتراني لم أعد وحشاً كما كنت.. لكني طوال طريقي إلى الأعماق كنت أشهد مخلوقات القاع تفر أمامي.. تتخبط بالرعب وتتحطم على الصخور وتهرب.
وحش لم أزل كما كنت.. فمن أين تأتيني هذه الرقة.. أيكون هذا الذي التقمته بالأمس هو المسؤول عما أصابني من ضعف.. أليس نبياً.. أليس نسمة مباركة.. أليس وديعاً.. لا ريب أنه المسؤول عما أصابني من وداعة وبؤس.. وليس أعظم بؤساً للوحوش من مرضها بالوداعة.

أردت أن أكرهه فلم أستطع.. أردت أن أنساه فلم أتمكن.. احتل النبي جوفي وعقلي معاً.. حمدت الله أنني لم أبتلع سمكة القرش الوحشية في الصباح.. لو ابتلعتها لأكلته السمكة.. نسيت أننا طردنا من البر بسبب الانسان.. نسيت كل العداوة السحيقة بين جنسنا وجنسه.

تركز تفكيري في شيء واحد.

ماذا يفعل النبي في جوفي الآن؟.

فكرت في المياه السوداء التي أغوص فيها، وجوفي الذي ينطبق عليه، وأحسست بوطأة مأساته.

اصطدمت بالقاع فأوقفت حركة ذيلي وتوقفت.

مرت جواري آلاف الحيوانات البحرية والوحوش وهي تؤدي التحية بسرعة الخوف والتخبط.. رأيتها تمشي مضيئة ينبعث ضوؤها منها.. في الأعماق البعيدة من البحر.. تنكسر قوانين الشمس وتموت الشمس ذاتها بعد ثلث البحر الأول.

بعدها تنطبق مملكة الظلام.. ذكرني ضوء الوحوش السابحة بظلمة جوفي وتساءلت: كيف يجلس النبي وسط هذه الظلمات؟

ـ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

كان الصوت غير معروف لديّ.

أعرف أصوات الوحوش والحيوان والأسماك.. ليس هذا صوت أحدها بالتأكيد.

حركت ذيلي حولي لأرى من يكون مختبئاً في أعماق الظلمة فلم أجد أحداً.

ـ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

لم يزل الصوت يتردد.. بلا انقطاع يتردد. لا يكف ولا يمل ولا يسكن ولا يسأم.. كلمة وراء كلمة.. لا تكاد تنتهي الجملة حتى تعود كما بدأت من جديد.. دورة كدورة الشمس أو دورة القـمر.

اعتصرت ذهني تفكيراً لأعرف من أين يجيء هذا الصوت.. ثم لمع في عقلي فجأة أن الصوت يصدر مني.

شاهدت شيئاً يشبه النور يخرج من جسدي مع كل تسبيحة.. أدركت أن النبي السجين في جوفي يسبح الله.. أصابتني رعدة شملت جسدي كله.. أحسست أن العرق ينعقد على جبيني الأشهب حبات كحبات اللؤلؤ.

حركت ذيلي وأوقفته عمودياً على القاع.

قلت أتبع ذا النون ما دام لم يتبعه أحد.

ـ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

ترتعش الكلمات بحب يضيء ظلمة القاع، وتتوهج المياه بحنو لم أكن أحسب المياه تنطوي عليه.. اتصلت الشرارة من جوفي بذرات المياه وأعشاب القاع المتحجرة وصخوره القديمة ورماله الطينية.

استيقظ قاع البحر وأنصت لتسبيح ذي النون.

ـ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

يفرد النبي ربه بالألوهية، ويقدسه بالخضوع، ويرمي نفسه في نفس الوقت بالظلم.. رحت أفكر في معنى الظلم، ما الذي تعنيه الكلمة.. كيف كان ذو النون من الظالمين.. ماذا فعل.

أحسست أن الأسئلة تطبق على عقلي وتكاد تهشمه فاندفعت خارجاً.. قفزت من المياه ساجداً لأعلى وتساءلت:

ـ ماذا فعل النبي الذي أحمله في جوفي يا رب؟

لا صوت غير صوت الأمواج.

لم يجبني أحد.

أيكون سؤالي تجاوزاً لرتبتي في الخليقة.

ملأت رئتي بهواء البحر ورحت أنفث.. الشمس تغرب هناك.. والنبي داخلي لا يكف عن التسبيح.

تأملت غروب الشمس.

قلبي ثقيل وصدري ضيق كأنني ألقيت خارج المياه.. حزين من أجله.

مثل ضربة الانسان المجهولة التي تصيب الحوت فيهوي متخبطاً في دمه، أصابتني ضربة حزن داهم فهويت متخبطاً في بحار الحزن.

أيكون حزن النبي السجين ينتقل إليّ.. تذكرت فجأة أن معدتي تعمل،عصارتها تعمل.. ربما هضمت صاحبي الذي يسكن جوفي.

أقول صاحبي وأحس صدق ما أقول.

أردت أن أوقف عصارات المعدة فلم أستطع، أيكون المخلوق وحشاً ورغمها لا يستطيع التحكم في عصارات معدته.. أي وحشية تبقى له إن كان جزءا في جسمه لا يطيعه.. بذلت جهداً يائساً محاولاً التحكم في معدتي فلم أنجح.. قررت الصيام. قلت لنفسي: لعل الصيام ينقذه.. رحت أفتح فكي وأملأ رئتي بالهواء لعل بعض الهواء ينقذه.. يتسلل إليه فلا يختنق.

ماذا لو اختنق أو هضمته؟

ماذا أقول للملك الذي أمرني أن أحافظ عليه؟

هزني الخوف فرحت أضرب ذيلي في المياه ضربات جبارة مهولة، وأنا أصيح:

ـ أريد أن يعيش يا رب.. أريد أن ينجو.

أصابني ذعر غامض.. رحت أغوص وأندفع خارج المياه لغير ما سبب.. ظنتني الحيتان مريضاً وهرعت إليّ.

تساءل حوت: ماذا أصاب الحوت الأبيض ذا الذنب المشوه؟

قلت: داخلي سر لا أستطيع الافصاح عنه فانصرف.

انصرفت الحيتان وبقيت وحدي تماماً.

الموج يرتفع وينخفض.. والتسبيح يرتفع ويرتفع.. لا ينخفض أبداً ولا يتوقف ولا يهدأ ولا يستريح ولا يكف.

سقطت الشمس تماماً في البحر.

ارتدى الليل آخر ثيابه السوداء.. وارتدى قلبي آخر ثياب الحزن.

ملأت صدري بالهواء وحركت ذيلي وهويت نحو القاع.

أرسيت عظامي على عظام القاع وسكنت.

أحاول أن أفكر.

حاولت أن أتصل به فهمست في جوف الليل وجوف البحر وجوف الخوف: أيها النبي الكريم.. ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟

قال ذو النون: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

قلت: أيها النبي الكريم.. كيف أساعدك على النجاة؟

قال ذو النون: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

أدركت أنه لا يستمع إليّ.. كان مشغولاً بتسبيحه عني.

أغلقت قلبي على الصمت وكففت عن الأسئلة.

رفعت ذيلي عـمودياً على القاع ورحت أسبح بطريقتي الخاصة.

وانعقد في القاع مهرجان من الخلائق.

رفعت الرمال رؤوسها وسبحت.. اجتمعت الأسماك وراحت تسبح.. جاءت الحيتان والوحوش وراح كل واحد فيها يسبح بأسلوبه الذي علمه الله له.

كنت مستمراً في التسبيح شاعراً في نفس الوقت بخوف هائل.

كنت جسداً وحشياً لكنني كنت أرتعش، أيخاف الجسد من النفس حين تبدأ التسبيح.

كل ما أدريه أنني كنت على استعداد لأن أفعل أي شيء لإنقاذ يونس.

انتهى ما ادخرته من الهواء فعدت مسرعاً إلى السطح.

رحت أسبح وأنا أنفث.

مرت إلى جواري سفينة فلم أعرها التفاتاً.

جائع لحد الاعياء.

منذ يومين لم آكل شيئاً، والمفروض ألا يقل طعامي اليومي عن ألف كيلو من السمك.

قررت أن أستمر في الصوم.

بدأت معدتي تتقلص.. وراحت أمعائي تصنع العنبر.

لا أستطيع أن أغامر بابتلاع أي طعام بعد أن ابتلعت يونس.

لو تحركت معدتي فسوق أقتله.

لتبق المعدة هادئة بغير حركة، أو بحركة التقلصات المؤلمة وحدها دون حركة الهضم.

ـ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

لم يزل تسبيح النبي مستمراً.

أدركت أنني أقتل نفسي بالصوم. . لكنني أدركت في نفس الوقت أن يونس لن ينجو من جوفي إلا إذا قتلت نفسي.
كان يونس قد صار نفساً «ثانية» لي.
وكان كياني قد صار جسداً «ثانياً» ليونس.
ولا تنجو النفس إلا على حساب الجسد.

جاءاليوم الثالث.
صائم لليوم الثالث. . دم القوة ينسحب من جسدي فيعلو صوت تسبيح النفس.
في العمق البعيد من روحي يشرق نور يجل عن الوصف.
امعائي تمتلىء بالعنبر.
تقلصات معدتي تزيد وصوت تسبيحه يتردد:
ـ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.
أطوف البحار الباردة والدافئة جميعاً قبل أن أرحل.
ألقي نظرة السلام الأخير على الخلجان والصخور والجزر والحيتان والأسماك والطحالب والزبد والملح.
أتوقف عند جزيرة.
تقلصات معدتي تمزق معدتي.
أسمع صوتاً يجيء من كل مكان، ولا يجيء من مكان محدد «فلولا أنه كان من المسبحين، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون».
فتحت فكي وتباعدت أنيابي العاجية من الألم. وبدأت أفرغ ما في جوفي. . .
أطلقت السجين من جوفي على الجزيرة.
عرفت السر قبل أن أموت فما أقسى المعرفة.
على الماء أكتب.
بالعنبر العطري أكتب.
تذوب الكلمات في البحر وتنطوي الصفحة الزرقاء على السر فأكتب.
أحلم أنني زيت معلق في قناديل تهتز مع الريح. . تهتز مثل هزات الموج.
تهتز. .
تهتز. .

بقرة بني اسرائيل

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَة، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً، قَالَ أَعُوذُ بالله أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ ﴾.

(سورة البقرة ـ آية ٦٧)

النظرة المستسلمة الساجية في عيني الواسعتين لا تتغير أبداً.
الطعام كاف أو غير كاف.
الماء متوفر أو شحيح.
الشغل قليل أو كثير.

تختلف الظروف والأحوال، وتتغير المعاملات والأقوال، ورغم ذلك تبقى نظرة الاستسلام الساجية في عيني كما هي.. لا تتغير ولا تتبدل.

ألاحظ أن عيون الناس تتغير طبقا لتغير مزاجهم.. فهل يعني ثبات عيني أنني لا أنفعل.

ربما ننفعل.. غير أنه انفعال مقيد على شرط، وليست له غير حالة واحدة.. عندما تقف ذبابة «سئيلة» فوق ظهري أنفعل.. أهز ذيلي إلى الأمام محاولة طرد الذبابة.. إذا ظلت متمسكة بمكانها فوق ظهري كففت عن هز الذيل واستسلمت ورضخت، والرضوخ متعتي في نهاية الأمر.

إذا كان هذا حالي مع الذباب، فلا شك أنكم تقدرون موقفي مع الانسان.. لا أنفعل أبداً معه.

أخاف أحياناً حين يضربني.. غير أنني استسلم لخوفي من خوفي منه.. حياة رائعة.

بقرة وراضية عن حياتي تمام الرضا.. نعمة أنا ولكن لغيري.

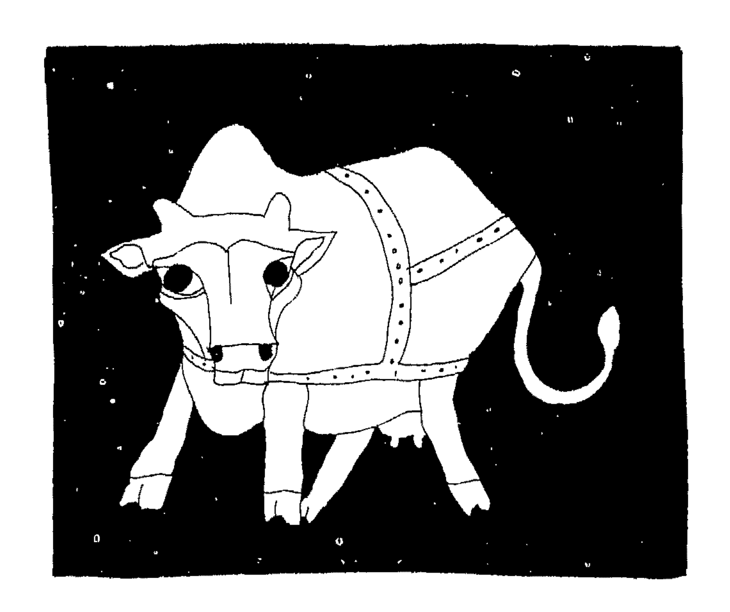
لا أعرف متى أذبح.. أعرف أن آلاف البقر يذبح، ويبدو أننا نحس بنوع من السعادة الغامضة حين نذبح.. هذا معناه أننا نحقق ذاتنا.. نتحول إلى طعام هنيء يدخل جوف الانسان. كما نتحول إلى نعال ينتعلها أبناء آدم.. نطعمه ونكسوه ونقوم على خدمته.

شيء كريم أن يكون العطاء طبيعة وحيدة للمخلوق.

نعرف أن الانسان يأخذ منا ـ نحن البقر ـ كل شيء.. حتى ما يعطيه لنا يعطيه لنا بنية الاسترداد فيما بعد.



إذا كان يعطي الفول والشعير فهو يريد أن يأخذ لحمًا سميناً في المستقبل.
ليس هناك شيء لوجه الله.
المسألة محسوبة ومقدرة ومعروفة، ورغمها لا ننفعل.
الانفعال في عرفنا لا يجوز، مثلنا الأعلى أن نقول: دعونا نأكل الفول ونعيش أما شعارنا في الحياة فهو: الرضوخ هو السبيل للحياة.
هكذا تعلمنا وهكذا عرفنا وهكذا ورثنا.
قال لنا الشيطان يوماً ـ لو ثار البقر لوقع انقلاب في دنيا البشر.
إن الانسان يستغل مجهودكم في الحقول، ويصنع من ألبانكم جبنة وقشدة وسمناً وعسلاً، وأخيراً يذبحكم ويأكلكم.. أيها البقر.. إن عدونا وعدوكم واحد هو البشر.
لو ظللتم على استسلامكم له فلن تتطوروا أبداً.. لقد ولدتم بقراً وستعيشون بقراً وتموتون بقراً.. ثوروا.. تحركوا.. أفعلوا شيئاً.
استمعنا إلى كلام الشيطان، وقالت إحدى الأبقار تحدث زميلة لها:
ـ كنت تتحدثين أيتها الأخت عن الفول الذي أكلته من الحقل الجديد، أكان طعمه يختلف عن فول الحقل القديم.
قال الشيطان: تحركوا.. كفوا عن الكلام في الأكل وثوروا.
قالت البقرة: كان طعم الاثنين واحداً أيتها الأخت.. هذا الفول وذلك الفول.
انصرف الشيطان يائساً وهو يغمغم بكلام لم نتبينه عن البقر والبشر.
بعد أن مضى الشيطان سألت إحدى الأبقار:
ـ من كان هنا؟
قالت زميلة: واحد لا أعرفه.
قالت بقرة: أكان يتكلم؟.
قالت أخرى: كان منفعلاً.. قال شيئاً لم يعلق في رأسي.
لا يعلق في رؤوس البقر شيء.. تسمع الكلام من الأذن اليمنى فيخرج من اليسرى.. رأسنا كبير لا يحمل الهموم ولا المشاكل ولا المتاعب ولهذا السبب يعيش البقر طويلاً.. نعتبر أن يوم الانسان عاماً بأكمله من السرور والهناء والفول والرضا.
أعيش في بني إسرائيل.
بقرة مملوكة ليتيم.
لم أكن بقرة عادية في الحقيقة.. كنت جميلة وسط البقر. صفراء فاقع لوني يسر الناظرين.. لم يكن في جسمي كله أي أثر للون آخر.. لم أكن كبيرة ولم أكن صغيرة.. متوسطة كنت ولطيفة يندر العثور على مثلي في البقر. أريد أن أتكلم قليلاً عن بني إسرائيل.. ناس يثيرون دهشة البقر.
تسمع الكلام فيعجبك.. وترى الأفعال فتستعجب.
كلامهم في وجوه بعضهم البعض حلو.. فإذا استدارت الأقفية تحول الحلو إلى مر.



اسمع طبعاً عن سيدنا موسى.
هذا نبيهم الكريم وكليم الله..
لم أره ابداً ولكنني سمعت عنه.. وكان الكلام عنه متناقضاً وغـريباً.
إن عدد الذين يحبونه من بني إسرائيل أقل بكثير من عدد الذين يكرهونه.
وهذا طبيعي فيما اعتقد.
جاء موسى بالحق.. وما أثقل الحق على النفوس الظالمة.
لا أنفعل أو أرفع صوتي بها.
أقولها برضا.. ما لي أنا بهم.. هم أحرار في أنفسهم.
أعيش في حالي.. ومن عاش في حاله ذبح في النهاية. وعظمة البقر أنه يذبح في النهاية.
كان اليوم مشمساً دافئاً.
اسمع هذا التعبير دائمـاً.. أستطيع أن أفهم معنى الدفء.. أستطيع أن أعرف معنى النظافة.
ليس البقر كالجاموس يشرب من ماء عكر ملوث.. أو ينام في فراش مبلل أو غير نظيف.. نحن نعشق النظافة ونرفض ما عداها..
الشيء الذي لا أفهمه هو الشمس.
اسمع الناس تتحدث كثيراً عن يوم مشمس.. وشمس حارة.. وشـمس تشرق وشمس تغرب.. ولكنني لم أر الشمس في حياتي مرة واحدة.
أحـس أحـياناً أن هناك شيئاً حاراً يتخلل جسدي كله ويجعلني أعرق.. فهل هذا هو الشمس؟

لا أعرف.

يقولون أن الشمس في السماء.

وهذا يزيد الأمر تعقيداً.. فأين هي السماء؟

من المعروف أن البقر يستطيع أن ينظر أمامه.. أو خلفه.. أو يمينه أو شماله.. لكن البقر لا ينظر لأعلى أبداً.. لا تنظر البهائم لأعلى.

ليست هناك بقرة تنظر لأعلى وتتأمل الشمس.. لو صح أن هناك شمساً.. على أي حال.. إذا كان وجود الشمس غير مؤكد.. فإن الشيء المؤكد هو وجود الفول.. أكلت في الصباح قدراً عظيمًا من الفول.. زلطت الفول بنصف مضغ.. توفيراً للوقت والمجهود وتأكدا من التهام أكبر كمية ممكنة.. بعد ذلك أرقد على بطني على الأرض.. أجتر ما أكلته في الصباح.

جـيج.. جيج.. جيج.

صوت فمي وهو يمضغ.. متعة هو المضغ.. والبلع أمتع.. والأرض نظيفـة.. والـتراب رطب.. والظل ممتد.. والسكون تام السكينة.

اندلعت الصرخة فجأة.

حولت رأسي ببطء.

لا يهتز البقر ولا ينفعل.

عادت الصرخة تشتبك بصرخة ثانية.. ثم اشتعلت القرية كلها بالصراخ.

ـ قتل ايليائيل.. أغنى أغنياء بني إسرائيل.

لا أعرف هل كان اسمه ايليائيل أو بنيامين أو شعورايم.. اسمه صعب فلم احتفظ به في رأسي.

الأمر لا يهمنا ولا يتصل بنا فلماذا نهتم.

لم نستطع أن ننام هذه الليلة من فرط ضجيج القوم.. اختصم أهل القتيل ولم يعرفوا قاتله، ويبدو أن هذا القتيل كان رجلًا له مركزه في بني إسرائيل، ويبدو أن خفاء قتله كان داعيا لشيء يشبه الفتنة.

قرر القوم أن يلجأوا لنبي الله موسى.

سألتني إحدى الأبقار: هل ذهبت القرية لموسى ؟.

قلت: نعم

سكتنا على ذلك يومين.. ثم سألتني في اليوم الثالث.

ـ ماذا قال موسى ؟.

قلت: لا أعرف.

قلنا نسأل.. سألنا بقرة قابلناها في حقل.

ـ ماذا قال موسى ؟.

قالت: أسأل لكم.

سكتنا على ذلك يومين.. ثم صادفنا البقرة فسألناها ماذا قال موسى فقالت نسيت أن أسأل ؟.

ونسينا الموضوع كله، ثم فوجئنا أن الناس تتحدث فيه.

عرفنا من الناس أن موسى قال لقومه:

﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾.

الموضوع يتصل بنا إذن.. هذا شيء يثير الاهتمام.. والاهتمام شيء والانفعال شيء آخر.. الاهتمام في عرفنا جائز.. والانفعال لا يجوز.

سألنا - أي بقرة ذبحوها ؟.

فوجئنا انهم لم يذبحوا بقرة.

سألنا - كيف؟!! ألم يبلغهم موسى أن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة؟.

فوجئنا مرة ثانية أن بني اسرائيل قالوا لموسى: «قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين».

جرأة لا حد لها على نبي الله موسى.. لقد أمرهم أن يذبحوا بقرة.

وكان المفروض أن يذبح القوم أول بقرة تصادفهم.. غير أنهم بدأوا مفاوضاتهم باللجاجة.

إتهموا موسى بأنه يسخر منهم ويتخذهم هزواً.

إن البقر لا يتصرف هذا التصرف لو كان في مكانهم.

استعاذ موسى بالله أن يكون من الجاهلين ويسخر منهم.. أفهمهم أن حل القضية يكمن في ذبح بقرة.. إن الأمر هنا أمر معجزة لا علاقة لها بالمألوف في الحياة أو المعتاد بين الناس. ليست هناك علاقة بين ذبح البقرة ومعرفة القاتل في الجريمة الغامضة التي وقعت.. فليضرب بنو إسرائيل القاتل بجزء من البقرة المذبوحة.. قتيل مات.. وبقرة ذبحت.. لو ضرب بنو إسرائيل شيئين ميتين ببعضهما لعرفوا القاتل.. سيستيقظ القتيل من موته ويبوح باسم قاتله.

ما هو الغريب في هذا؟

معجزة.

نعم معجزة.

ليست منطقية ولا معتادة.

لكن متى كانت الأسباب المنطقية هي التي تحكم حياة بني اسرائيل.. إن المعجزات الخارقة هي القانون السائد في حياتهم.

لقد ضرب موسى البحر بعصاه فانشق البحر نصفين وعبر بنو إسرائيل وغرق فرعون وجنوده.

أيندهش الناس بعد هذه المعجزة من معجزة ثانية.

لو كان البقر مكانهم لما تصرف هذا التصرف.

أكاد أنفعل لولا أن الانفعال لا يجوز.

ليس استمرار المعجزات في حادث البقرة أمراً يوحي بالعجب أو يثير الدهشة.

لكن بني إسرائيل هم بنو إسرائيل.
مجرد التعامل معهم عنت.. ومجرد التفاوض معهم تعب.
أتعبوا قلب نبيهم أتعب الله قلبهم.
أقولها بلا انفعال.
لا ينفعل البقر.. يلاحظ ما يلاحظه بغير انفعال.
لم تزل المفاوضات مستمرة.
بنو اسرائيل يعودون إلى موسى.
﴿قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾.
مرة أخرى يتحدثون عن البقرة.
مرة أخرى يسأل موسى ربه وربهم ورب العالمين. ويعود إليهم بالجواب.
﴿قال: إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر.. عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون﴾.
الكلام شديد الوضوح.. البقرة ليست صغيرة وليست عجوزاً.. هي وسط بين ذلك.. كان المفروض أن يذبحوا أي بقرة متوسطة.
لكن ماذا تفعل في بني إسرائيل.. إنهم لا يطيعون الأمر.. لقد ذهبوا لموسى لحل القضية ومعرفة القاتل وها هم يؤجلون المعرفة بلجاجتهم وتنطعهم.
﴿قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ما لونها﴾
عجيبة..
أهذا يصح يا بقر.. لن نقول يا ناس.
أهذا يجوز.. ما هي القيمة التي تكمن وراء لون البقرة.. إن البقر كله لا يلاحظ لونه ولا يلتفت إليه ولا يهتم به.. ما هو الشيء الخطير الذي يحتاج إلى ذهاب موسى إلى الله تعالى لسؤاله عن لون بقرة.
ثم لاحظ كيف يقولون له - أدع لنا ربك.. أدع لنا ربك.
كأنه ربه وحده.. كأنه ليس ربهم.. كأنهم يتنصلون من عبوديتهم لله.. لا نظن أن بعد هذا التنطع تنطع.
رغم ذلك.. فعل موسى الحليم الكريم ما سألوه.. علمًا بأن موسى رجل سريع الغضب.. لقد ثار قبل ذلك حين عاد من ميقات ربه ووجد قومه يعبدون عجلاً وألقى ألواح التوراة من يده.
إلقاء ألواح التوراة على الأرض تصرف خطير.
فقد الرجل حلمه.. ما رآه يفقد الحليم حلمه وهدوءه.
إن البقر لا يعبد العجل.. فكيف يهبط الانسان من مستواه لأدنى من مستوى البقر.
يعبدون عجلاً!!
يعبدون زوجنا نحن البقر!!
رغم كل شيء ذهب موسى إلى ربه يسأله عن لون البقرة.

﴿قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين﴾.
ظننت أن المسألة قد انتهت.
قتل موضوع البقر بحثاً ودرساً وتنطعاً ولجاجة وتسويفاً وتأجيلاً وسوء أدب واستهتار..
قتل الموضوع قتلاً.. ورغم ذلك، ما زال عند بني إسرائيل مزيد من اللجاجة والتنطع..
﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾.
بعد كل ما حدث لم يتبينوا ما هي.. بعد كل الأوصاف السابقة لا زالوا لا يتبينون.
مدهش..
يكاد جنبي يطق وتنفجر بطني وينشق كبدي..
رغم ذلك.. عادوا يقولون لموسى:
﴿إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾..
عاد موسى الحليم الكريم يسأل ربه.. وعاد يقول لهم.. ﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لاشيه فيها﴾.
انطبقت الأوصاف عليّ..
ماذا تظن بني إسرائيل قالوا؟.
﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾..
كأنه كان يلعب قبلها معهم..
كأنه لم يكن قد جاء بالحق من أول كلمة لآخر كلمة..
أكاد افقد طبيعتي وذاتي وانفعل..
حين انتهت مفاوضات البقرة.. كنت أنا البقرة المقصودة أكاد أطق من جنابي الأربعة..
روحي في أنفي من فرط الضيق..
مت قبل موتي من لجاجة بني إسرائيل وتنطعهم..
أسير نحو قدري ومصيري.. أسير نحو السكين وأنا أهز ذيلي راضية..
كلما تصورتهم على موائد المفاوضات مع نبيهم موسى.. كلما تذكرت لجاجتهم وتنطعهم ساءلت نفسي:
- إذا كانت هذه صورتهم على مائدة المفاوضات مع نبيهم الكريم موسى فكيف تكون صورتهم على موائد المفاوضات مع غيره؟

عصا موسى

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾.

(سورة البقرة - آية ١١٧)

لماذا يرتدي البستان لون الخضرة حيناً، وحيناً يتعرى؟
لماذا تحترق الصحراوات بالعطش ويتجمد الثلج كالدموع على قمم الجبال..؟
لماذا تشرق الشمس في لون النار ثم تتحول عند المغيب إلى لون الدم؟
ولماذا يتغير القمر وهو أجمل من النجوم ويغدو من فرط النحول صورة للهلال..؟

لست أعرف جواب كل هذه الأسئلة، وحتى لو عرفت فلن أقول، إنني أعرف كيف أتجنب البوح بما ينكشف لي من أسرار.

كل ما أعرفه انني كنت نباتاً، ثم تحولت إلى جماد، ثم تحولت من جماد إلى حيوان، ثم ولدت من صورتي الحيوانية آية كبرى من آيات الله.. كان اسمي عند موسى... عصاي، وكانت حقيقتي عند الله تعالى «شيئاً آخر تماماً».

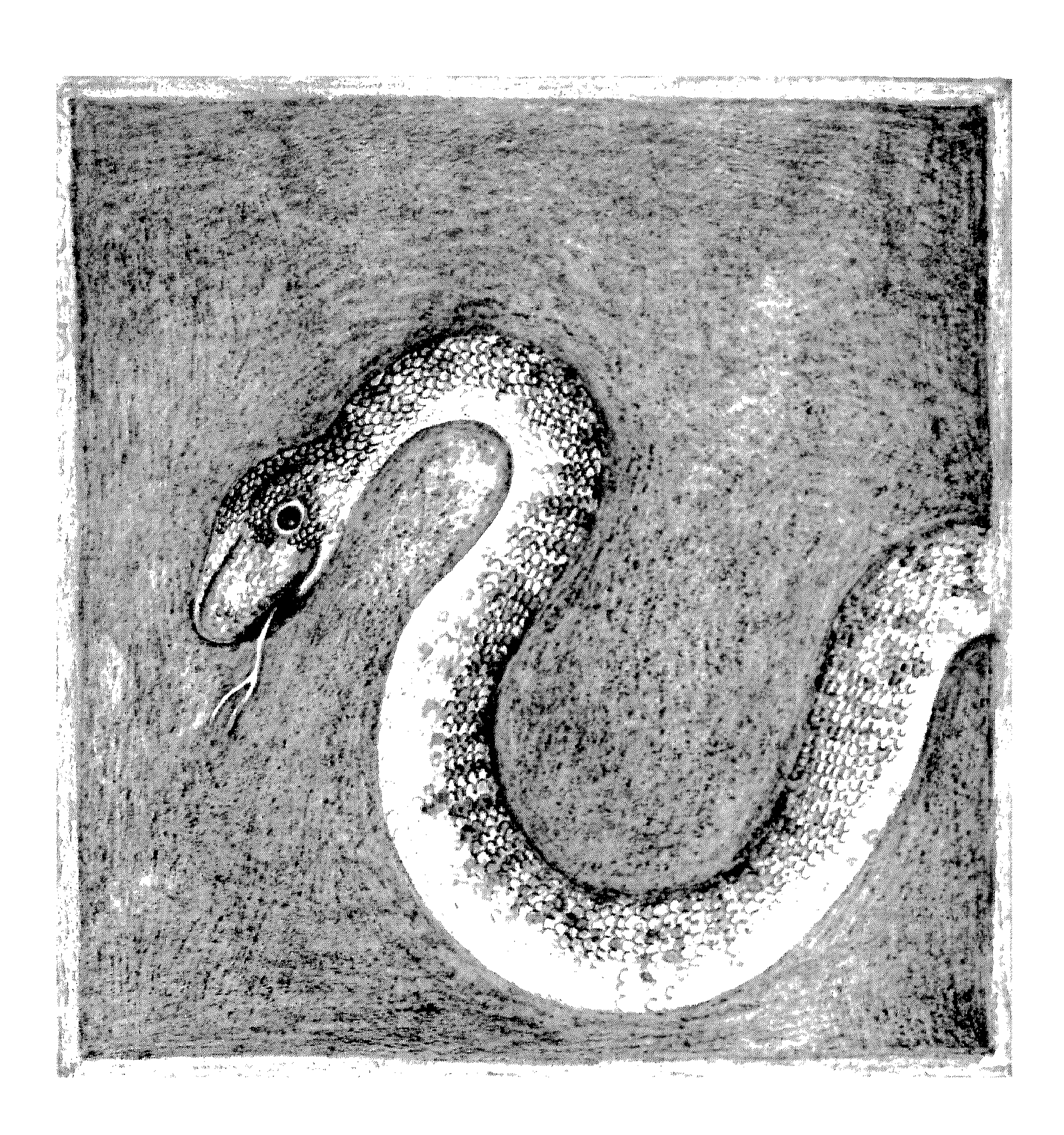
عصا موسى.. هذه أنا...

أدب على الأرض.. أرتفع ثم أهوي أثناء سير النبي.. لا أعرف السر في حكمة الأشياء ولا أعرف لماذا وكيف؟

في البدء كانت الشمس تمنحني الخضرة والليونة، فلما مت صارت الشمس تمنحني الصلابة والقوة..

أليس هذا مدهشاً! إن الموت نهاية للقوة كما نرى في الخلائق، الموت تدمير للقوة.. لكنني كنت فرعاً في شجرة فلما مت زدت قوة، وهكذا يحمل الموت لبعض الخلائق تدميراً كاملاً لقوتهم، ولكنه عند بعض الخلائق الأخرى يكون إيذاناً بميلاد القوة، وكلما مر وقت على الموت زادت القوة.

إن فروع الأشجار حين تموت تتحول إلى عصي، وهذه العصي لا تكتسب قوتها إلا حين تغادرها العصارة الحية من الماء وتزايلها كل صور الحياة..



وهكذا تولد القوة من قلب الموت وهو الفناء.. فسبحان الله خالق الصور والتحولات..

أؤمن بالله.. تؤمن النباتات بالله كما تؤمن به الجمادات.. يختلف تسبيح النباتات عن تسبيح الجمادات.. ولكن شيئاً في الوجود لا يكف عن التسبيح لله..

أنا عصا موسى إذن.. أعرف شهرتي في تاريخ النبوات، ولم أكن أعرف بعد اختياري كعصا، وإرسالي إلى فرعون أن العصا لمن يعصى، لقد عصى فرعون ولا شيء يقنع العصاة إلا العصا.. لا أريد أن أتمايل مع الأفكار كما تمايلت مع الرياح حين كنت فرعاً في شجرة.. أريد أن أبدأ منذ البداية الأولى..

شجرة..

كانت بدايتي الأولى شجرة.. غصناً كنت في شجرة تنتمي للحديقة الملكية في قصر فرعون.. هذا انتمائي الذي عرفني به الناس، ونحن كأشجار لا ننتمي أساساً للناس، يزرعنا الناس وننتمي إلى الله بالعبودية، ونولد من بذرة أبوها هو الماء وأمها هي الشمس..

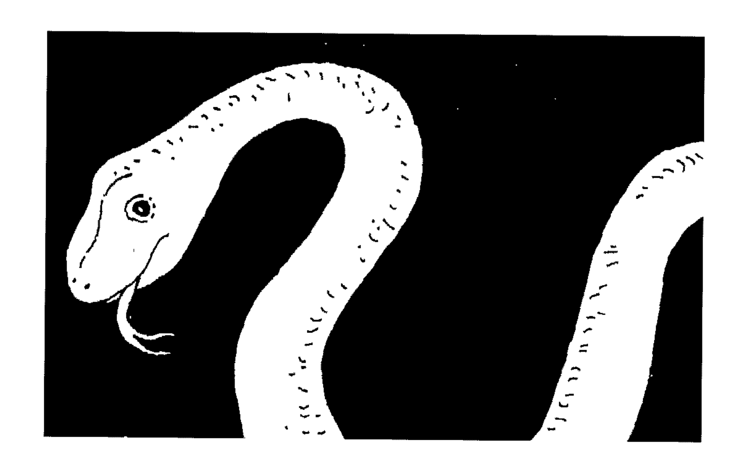
شمس.. شمس..

دفء جميل يغطي فروعي كلها، وشمس استحم في سخونتها، وإحساس رائع بالثبات وجذوري تغوص في الأرض وتتسلل إلى حيث يمتد النبع القريب بمائه البارد..

أطرافي في الماء ورأسي في الشمس.. إتصال بالأب والأم طوال الوقت، وذلك إحساس ممتع لا تعرفه سوى الأشجار، يظن كثير من الناس ان الأشجار لا تحس، وهذا وهم، إن غرور بعض الكائنات يصور لها انها هي وحدها التي تحس، وهذا أيضاً وهم، ليس هناك كائن لا يحس.. الفرق بيننا وبين الإنسان اننا نعبر عن إحساسنا بالصمت والخضرة، وأحياناً نعبر عنه بالصمت وانعدام الخضرة، لنا أسلوبنا الخاص في الإحساس، ولنا أسلوبنا الخاص في التعبير عنه، ليست لنا إرادة مع إرادة الخالق.. وليس لنا مراد غير مراد الخالق، وليس لنا اختيار، لا نعرف الخير ولا نعرف الشر، نحن مسخرون لأشياء، ونحن نؤدي وظائفنا دون خطأ واحد وبلا إبداع أيضاً.... مجبورون نحن ولكنه جبر يضعنا في قلب الأمان العظيم.

في بداية الخليقة عرض الله تعالى أمانة التكاليف على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان.. الحمد لله أنني واحدة من المخلوقات التي نجت من حمل الأمانة، ونجت بالتالي من الحساب والمساءلة..

يرى بعض الناس أن المخلوقات التي لا تحمل أمانة التكاليف الشرعية أقل من المخلوقات التي تحمل هذه الأمانة، وليس من حقي أن أقول أينا أقل أو أكثر، ولا هو من حقي أن أقول أينا أكبر أم أصغر.. لقد نجوت برحمة الله حين خلقني شجرة، لو انني خلقت إنساناً مثلاً - والإنسان أرقى من الأشجار دون شك - لو حدث هذا - لا قدر الله - لكان هناك احتمال أن أفعل ما يفعله



بعض العصاة، أن يكون المخلوق عصا.. أفضل من أن يكون عاصياً، أن يكون المخلوق شجرة نجت من عقاب الله أفضل من أن يكون انساناً غضب الله عليه.. الحمد لله الذي خلقني شجرة.. قد أكون أقل رقياً من الإنسان أو أقل تعقيداً منه ولكنني لا أغضب الله.. وهذا حسبي من الوجود، وهذه هي الثمرة العظمى التي لا يراها على فروعنا أحد سوى أصحاب القلوب المبصرة، وما أندرهم في كل عصر ومصر.

من مصر أنا...

ولدت في مصر لتأديب جبار في مصر..

لا أريد أن أسبق الأحداث..

أعرف أن هذه الحياة سر..

لا أعرف سر حبي للماء والشمس، ولا أعرف لماذا أتمايل مع الرياح حين تهب الرياح.. لست أعرف لماذا أحب الماء وأنمو حين أشرب، ولست أعرف لماذا أموت كل شتاء وأبعث في الربيع، ولست أعرف ما هو احساس الخلائق المتحركة التي تدب على الأرض وتتحرك فوقها.. لم أجرب أبداً أن أمشي..

جربت أن أغوص بجذوري في الأرض، ولكن المشي بالنسبة لنا تجربة غير مفهومة..

لنا أسلوبنا في تسبيح الخالق، ولنا طريقتنا في حمده، وهي طريقة تتعلمها الأشجار أثناء طفولتها كنواة أو بذرة..

وهذه الطريقة سرنا الذي لا نبوح به لأحد..

ولنا أيضاً سجودنا الذي تعرفه الأشجار كما تعرفه النجوم.. نحن نسجد لله بأسلوبنا الخاص الذي علمه الخالق لنا.. لا تعرف بقية الخلائق اننا نسبح أو نسجد، ولكننا حين نفعل نحس باحساس مدهش لا أعرف هل يحسه الناس وهم يسجدون أم لا يحسونه..

كنت فرعاً في شجرة في الحديقة الملكية لفرعون..

لم أكن أرتاح لفرعون، أحيانا كنت أراه وهو يمشي في الحديقة، أحياناً كان يتوقف تحت ظلي ويقول كلمة الحاد ينكر بها الله.. كانت العصارات الصاعدة إليّ من باطن الأرض تقشعر وهي تصعد.. ان فرعون يقف تحت ظلي.. وليس ظلي سوى نعمة من الله.. كانت نعمة الله تظلل فرعون ورغمها كان يجحد خالق النعمة

لست وحدي التي أحس هذا الاحساس. كل الخلائق تقشعر اذا صك سمعها جحود البشر أو الحادهم..

لقد قبلنا نحن الخلائق النباتية ان نقيد في الأرض ولا نمشي، وقبلنا مرتبة اقل في سلم الخليقة، وقبلنا الا نكون أحراراً لكي لا نقع في احتمال معصية الله، فكيف نشعر بمن منحه الله نعمة الحرية والاختيار والرقي فكان رده على هذه النعم كلها هو جحود الخالق، كنت أقشعر كلما مر فرعون جوار ساقي أو وضع يده عليّ، كنت أقشعر حين يلمسني وكنت أحس بما يشبه الاختناق حين تهب على أنفاسه..

لم أكن أكرهه.. نحن لا نعرف الكراهية كنباتات، نعرف الألم ولكننا لا نكره.. يبلغ تواضعنا حد الألم وحده، لكنه لا يصل أبداً لحدود الكراهية..

في نفس الوقت، كان هناك ثلاثة أرتاح لوجودهم تحت ظلي.

زوجة فرعون.. ورجل مصري من آل فرعون.. وطفل بني اسرائيل الذي كبر الآن وصار رجلاً، هؤلاء هم الثلاثة الذين كانوا يحبون ظلي ويجتمعون تحته، كنت أرتاح لوجودهم قريباً مني، فقد كان الثلاثة مؤمنين بالله، وكان الثلاثة يكتمون ايمانهم.. وفي قصر فرعون لم يكن مسموحاً لمن يؤمن بغير الفرعون أن يعلن ايمانه. كان الرجل جبارا من جبابرة الأرض، كان لا يتورع عن شيء ولا يوقفه شيء، وكان أسهل حل لديه هو القتل، ورغم أنه كان يبعث الخوف في أشجع النفوس، لم نكن نحن الأشجار نخاف منه.

كنا نشمئز فقط.. نقشعر ونشمئز.. لكننا لم نكن نخاف أن نعلن عن ايماننا بالله، وكنا نعلن بالخضرة والجفاف عن هذا الايمان..

اقترب الشتاء واقترب موعد موتي، تموت الأشجار في الشتاء وتبعث في الربيع، كان فرعون يرى موتنا وبعثنا من الموت ورغم ذلك كان يشك في يوم قيامة البشر..

اذا كانت الأشجار تموت وتبعث أمام أعين الناس في كل عام، فهل يكون البشر أهون شأناً من الشجر.. أعرف أننا نعرض معجزة الموت والبعث على عيون الدنيا وقلوب البشر كافة.. ولم تكن هناك غير ثلاثة قلوب تعي في قصر فرعون..

كان العدد قليلا فما أشد غربة الأشجار حين يقل عدد المؤمنين في الأرض.
جاء الشتاء أخيراً وحانت ساعة موتي.
تموت الأشجار واقفة.. أغمضت خضرتي وراحت أوراقي تتساقط.. كنت أشعر بأوراقي تنفصل عن فروعي وتبدأ رحلتها مع الهواء حتى تصل الى الأرض.. لا تحزن الأشجار عندما تموت في الشتاء، ننطوي على جوهر الفرح ونعطي الشكل الخارجي للحزن..
لا نرى. لا نسمع.. لا نتكلم.. يبطىء تسبيحنا في الشتاء.. يبطىء سجودنا في الشتاء ويطول..

مرت أيام الشتاء الأولى دون حوادث.. ثم هبت عاصفة شتائية ذات مساء.. لمع البرق ودمدم الرعد وراحا يسبحان بحمد الله.. لا أعرف ما الذي حدث بعد ذلك..
هوت شرارة من السماء على حديقة فرعون.. كانت الأقدار تنسج بيد اللطف الخفية التي تحرك الكون أموراً تنتظرني فيما بعد، وكان سقوط الصاعقة خيرا يرتدي قناع الشر.. وقعت الشرارة على رأسي فانقسمت نصفين ثم هويتُ مشتعلة..
اشتعلت بعض أطرافي ثم هطل المطر فانطفأت النار.. حين انجلت العاصفة كان الجزء الذي سقطت فيه في حديقة الفرعون قد صار خرابا.
حطمت بثقلي حين سقطت نصف أشجار الحديقة.

حطّمت حين هويت جزءاً من معبد قريب كان يحلو لفرعون أن يعتكف فيه ويتأمل.. وأكاد أقسم - لو جاز للأشجار أن تقسم - ان فرعون كان أغبى من أن يتأمل.. كان يهوي الأماكن المفتوحة والحدائق، وكان يوحي لمن حوله أنه يفكر أو يتأمل، وكانت ذاته المتضخمة توحي عادة إليه أنه أحكم الناس وأذكى الناس وأقدر الناس.. ولكنه في الحقيقة كان طاغية يرتدي قناع المهرج.. وكانت قدراته العقلية متخلفة عن القدرات العقلية للأشجار - لو كان للأشجار قدرة عقلية، وكثيرا ما كنت أحس بالدهشة من اعتقاد فرعون أنه حكيم أو ذكي أو مسيطر..
لم يكن فرعون يفعل شيئاً على الاطلاق.. كان جهاز القهر الذي يحكم مصر يبدأ من هامان وينتهي بأصغر جندي من جنود الفرعون في الوادي.. أما فرعون ذاته فكان لا يفعل شيئاً سوى تتبع أخبار المعارضين له، والتنكيل بهم، وكان هذا الجهاز العجيب يحكم فرعون وان كان فرعون لا يدري أنه محكوم..
ذلك شيء يشبه الطين الذي يحيط بالجذور.. تتصور الجذور أنها هي التي تمسك الطين وتحصل منه على ما تريده من الطعام والشراب، والحقيقة أن الطين هو الذي يمسك الجذور ويحيط بها ويمدها بما لديه لا بما تريده..

كان نظام حكم فرعون يقوم على القهر والتهريج معاً.. وهذا شأن الأنظمة التي تقوم على عبادة الفرد وانكار الله.. ومن أرض هذه الأنظمة تولد بذور الدمار النهائي الشامل..

ومن سماء هذه الأنظمة تهوي الصواعق على الأشجار.. اشارة موحية لما سوف يقع للأنظمة ذات يوم..

وقد كان فرعون مبصرا، ولكنه لم يكن يرى بقلبه، وهكذا لم يفهم ان الصاعقة التي هوت على الأشجار في حديقته الملكية كانت انذاراً من الله تعالى له.. كانت رحمة من الله لعله يفيق أو يرجع.

لم ير فرعون فيما حدث غير شيء أطلق عليه اسم الصدفة، ولهذا صدرت أوامر فرعون أن تقتلع الأشجار المحطمة، وأن تعاد زراعة الحديقة، وأن يتم ترميم المعبد الذي كان يجلس فيه ويعبد هواه دون أن يدري أنه يعبد هواه.

وهكذا حملوني من الحديقة الى تاجر أخشاب وباعوني له، وقد فرح هذا التاجر بوجودي فرحاً شديداً، فقد كنت شجرة خشبها من نوع ثمين.. وهكذا عكف الرجل على صنع مجموعة من تماثيل الآلهة الوثنية من خشبي.. كما أنه صنع مجموعة من العصي الجميلة التي أهديت للبلاط الملكي..

تفرقت بعد وجودي كشجرة في عدة أصنام ومجموعة من العصي..

وقد وقعت عصاة مني من نصيب موسى.. صرت عصا يمسكها موسى.

تغير احساسي حين صرت عصا، كنت نباتا فأصبحت جمادا، كجماد تجمدت على كراهية فرعون واشتدت صلابتي تجاه طغيانه، والجمادات أقل احساسا من النباتات ولكنها تحس، لها أسلوبها الخاص في الاحساس، الفارق بين النباتات والجمادات ان الجمادات لا تنمو ولا تتحرك ولا يبدو على ظاهرها ما يدور في باطنها..

صرت عصا موسى..

لم يكن موسى يحملني في القصر، كان يحملني عندما يخرج، داخل قصر فرعون لم يكن مسموحاً لأحد أن يحمل عصاه باستثناء فرعون، كانت عصا فرعون قصيرة قد صنعت من خشب الابنوس الأسود والذهب وطعمت بالجواهر، وكان هذا الزي الغالي الذي ترتديه العصا لا يمنع العصا من الاحساس بالشقاء..

تشقى الجمادات وتسعد..

ينبع شقاء الجمادات حين توظف في أمر يعارض طبيعة الكون الذي يتجه لخالقه بالتسبيح والعبادة..

كنت أسمع تسبيح عصا فرعون لله رب العالمين، وكنت أسمعها تلعن حاملها اذا صدمها بانكار أو الحاد أو جحود لرب العالمين.. ورغم ذلك.. كانت عصا فرعون رمزا لسلطته عند الناس.. وكانت اشارته بها لشيء تعني صدور أمر ملكي بشيء.. وبالتالي كان يحرم على أي انسان داخل القصر ان يحمل عصا..

لم يكن مسموحا في نظام الفرعون أن يوجد رمز يزاحم سلطانه.. كان موسى يضعني في غرفته، ويمسكني اذا خرج، وفي البداية كان موسى ينساني كثيرا. لم يكن معتادا على حمل عصا،

كان الرعاة والمسنون هم الذين يحملون عصيا، وكانت هناك طبقة ارستقراطية في مصر اعتاد رجالها على حمل العصا، ولم يكن موسى راعياً ولا شيخاً مسناً ولا ارستقراطياً..

لهذه الأسباب كلها كان موسى ينساني في بعض الأمكنة التي يزورها.. نسيني مرة عند هارون، ونسيني مرة عند زوجة فرعون الذي ربته وليداً وكانت له أماً ثانية إلى جوار أمه الأولى، ونسيني مرة في بيت امرأة عجوز من بني اسرائيل كان يعطف عليها ويودها.. وفي كل مرة كانوا يهرعون بي اليه..

لم يكن موسى يحتاج الى عصا وهو يعيش في قصر فرعون. كان هارون أشد حاجة للعصا من موسى، ولكنه خجل أن يسأل موسى أن يهديه عصاه.

ومرت الأيام وجاء يوم..

﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى. قال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج اني لـك من الناصحين﴾.

كان هذا النذير قد جاء من مكان لا أعرفه.. وكان حديثه مع موسى سريعاً وحاسماً وهامساً..

لم أفهم لماذا يتآمر كبار رجال البلاط على قتل موسى.. عرفت أن موسى وكز مصريا فقضى عليه، لم يكن موسى يقصد قتله ولا كانت نيته معقودة على الشر أصلا، كانت هناك مشاجرة بين رجل مصري ورجل من شيعة موسى.. واستغاث أضعف الرجلين بموسى أن يهب لانقاذه، وتدخل موسى فدفع المصري بيده دفعة يقصد بها ابعاده..

سقط المصري ميتاً.. أثار هذا القتل الخطأ حين انتشرت أخباره ما يثيره أي قتل خطأ.. ولكن عنصرا جديدا دخل وسط جملة العناصر المكونة للموضوع..

ان موسى لا يسجد لفرعون.. ولا يسجد لآلهة المصريين الكثيرة المتعددة، وهو واحد من بني اسرائيل. وهناك نبوءة غامضة بأن واحداً من بني اسرائيل سيكون سبباً في القضاء على سلطان الفرعون، وأي محاولة للمساس بسلطان الفرعون هي جريمة لها طابعها السياسي، ان فرعون هو مصر، وأي اعتراض عليه تهديد لأمـن مصر، وموسى يفعل هذا كله دون أن يدري..

هكذا نسج الجهاز المصري الحاكم صورة موسى في سجلاته، ويبدو أن هذا الجهاز كان ينتظر أي خطأ من موسى ليقتله.. فلما وقع هذا الخطأ تقرر تنفيذ الحكم السابق عليه. كان قتله اجراء أمنياً بحتاً.

ورغم أن موسى لم يكن يدعو لله صراحة، ولا كان يكلم فرعون في موضوع ألوهيته أو ادعائه الألوهية.

رغم موقف موسى المحـايد من فرعون، تقرر قتل موسى.. وأرسل الله تعالى هذا الرجل الذي جاء يسعى من أقصى المدينة، وقد أرسله الله في توقيت محدد كان سبباً في انقاذ موسى. لم يكد موسى يعرف ما دبروه له حتى اختطفني وانسل خارجاً من قصر فرعون..

سار موسى خارجاً من مصر..

سار موسى طويلاً . .

كنت أتقدمه في السير. . أدب على الأرض. . خطوتان له وخطوة لي. . جاء الليل وتوقف موسى فتوقفت. . جلس يستريح وسط صحراء موحشة. .

خيل إليّ أن وجودي مع موسى كان يحمل معنى الطمأنينة له. . وضعني على صدره ومد ذراعه وتوسد الأرض ونام.

خرج موسى من مصر خائفاً يترقب. . دعا الله تعالى وهو يخرج، قال: رب نجني من القوم الظالمين. .

استجاب الله تعالى دعاء عبده فابتعد موسى عن مصر، نام قليلاً في الصحراء ثم أيقظته حرارة الشمس فنهض وعاود سيره. .

خطوتان له وخطوة لي. .

يتقدمني موسى مرة وأتقدمه مرة. .

اكتشفت ونحن نسير أن لي أكثر من معنى. . كنت عصا وخيمة وأداة للدفاع ضد هوام الجبل وثعابين الجحور. .

كان موسى اذا تعب من السير عرفت أنه تعب، كان عرقه يتصبب غزيرا على جلدي الخشبي القاسي. . عندئذ يقف موسى ويخلع عباءته ويغرز عصاه في الأرض ويضع عليها العباءة ويجلس تحت ظلها في القيظ. .

كنت أمنح الظل حينما كنت غصنا في شجرة، وما زلت أمنح الظل رغم موتي وصيرورتي لشكل آخر. .

ظللنا نسير أياما. . كان موسى يتوقف أحيانا ويقتات من شجرة. . أحيانا كان يعثر على بئر قديمة فيشرب منها ثم يعاود السير. .

أخيرا وصلنا إلى قرية مشجرة تحيطها المراعى الخضراء. . تذكرت حياتي السابقة ورحت أسبح الله. . ان كل ما في الأرض من صور وأشكال كان في بدايته الأولى جزءاً من تراب الأرض. .

هل هناك صورة واحدة أم صور متعددة.

اذا كانت الحقيقة الأولى هي التراب. . فكيف يولد من التراب ما نراه من الخشب والجرانيت والجواهر. .

أي سر يحيل صفحة البستان خضراء، وأي سر يحيلها الى قاع نهر، وأي سر يحيلها الى صخور. . سبحان الله. . تقف الأشجار أمام أسرار الله وقفة سجود طويل. ولا ينكشف السر للأشجار فهل ينكشف للبشر؟ . .

وقع لموسى حادث حين وصل إلى مدين. . سقى لامرأتين ثم تولى الى الظل وتذكر ماضيه وحاضره وجاشت نفسه بشيء لست أدريه ثم قال:

ـ رب اني لما أنزلت إليّ من خير فقير. .

لم أفهم معنى دعائه، ولكنني رجحت أن موسى كان يسجد بطريقته الخاصة كانسان.

من أغرب أسرار الدنيا أنواع السجود التي تمارسها الخلائق.. ان الطيور والنحل والزهور والسحاب والرعد والبرق والجن والانس.. كل مخلوق قد علم صلاته وتسبيحه من الله.

وكل مخلوق يسجد لله بطريقته الخاصة التي علّمها الله له.

مضت ساعة مال فيها الظل قليلا، وفوجئت أن واحدة ممن سقى لهن موسى جاءته تمشي على استحياء.

قالت: ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا..

نهض موسى وسار..

بعد قليل دخلنا بيتا متواضعا لرجل يبدو أنه من الرعاة.. كان الرجل شيخا أشيب اللحية صافي الوجه عذب الملامح..

جلس موسى أمامه ووضعني على الأرض وقص قصته على الرجل.. قال له الرجل: لا تخف.. نجوت من القوم الظالمين..

كان موسى قد ابتعد عن مصر ودخل أرضاً لدولة ثانية لا سلطان فيها لفرعون.. وهكذا أدرك موسى أن الله تعالى قد استجاب دعاءه وهو يخرج من مصر..

حمد موسى الله واثنى عليه وصمت.. رن في الغرفة صوت ناعم لواحدة من بنات الرجل.. كان الصوت هادئاً لطيفاً يوحي بالثقة ـ يا أبت استأجره.. ان خير من استأجرت القوي الأمين..

ها هي امرأة لا تعرف موسى ولكنها تثني عليه..

كان لهذا الثناء في هذا الموقف وقع عطر لطيف يشبه عطر زهور البرتقال..

قال الشيخ لموسى: اني أريد أن أنكحك احدى ابنتي هاتين، على أن تأجرني ثماني حجج، فان أتممت عشراً فمن عندك، وما أريد أن أشق عليك. ستجدني ان شاء الله من الصالحين..

قال موسى: ذلك بيني وبينك.. أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ، والله على ما نقول وكيل..

بعد لحظات كان موقف موسى قد تغير من النقيض الى النقيض.. كان مطاردا فأصبح آمنا، كان خائفا فلم يعد خائفا، كان وحيدا بلا سكن ورحمة، وها هو يتزوج فيسكن الى امرأة فيها مودة ورحمة.. لم يكن الله قد استجاب دعاء موسى فحسب، انما شاء سبحانه أن يمنح موسى أكثر مما دعاه..

دعا موسى بالنجاة من القوم الظالمين.. ولكنه لم يدع لنفسه بشيء، وشاء الله تعالى أن يمنحه مع نعمة النجاة منة الأمن والزواج والفرح، ولقد كانت زوجة موسى لونا نادرا من البشر، وكان مخطوطا في اللوح المحفوظ أن تتربى هذه الفتاة في أحضان أبيها الشيخ الصالح، ثم تلقى موسى المطارد ليجد في مجالها الأمن والسكن..

وضعني موسى على جدار غرفته فمضيت ارقب بأجفاني المغلقة ما يدور حولنا في البيت. .
كان البيت لقوم صالحين يعرفون الله.

مرت عشر سنوات علينا في مدين. .

كانت هذه السنوات العشر فترة تأمل رائع لموسى، كان موسى يرعى فيها أغنام الشيخ الذي تزوج ابنته. .

كل صباح كنا نخرج إلى المراعي الواسعة. . الشمس لم تزل حانية لم تجفف بعد ندى الفجر من الأرض الرطبة. . وفي الجو تشيع رائحة العشب وبعض الزهور الجبلية المعطرة. . والأغنام تتبع واحدا منها وتجري مستبشرة وهي تثغو، شيء ما في نسيم المنطقة يحركها إلى العدو فتعدو. . ثم تنحني برؤوسها على الأرض وتأكل. . وفي الزاوية القريبة من الصورة كان موسى يمد يده. . ويشير بي فيحدد للقطيع المسار الذي يسمح لهم بالطعام والأمان. . كنت أتأمل صور الأغنام بأنواعها المختلفة، وأتأمل الأشجار والبيوت وأعجب. .

كل هذه الصور خرجت من بطن الأرض. . وهي تدب الآن على ظهر الأرض، ثم يجيء يوم وتنحني الصور وتختفي وتتلاشى عائدة الى الأرض، وتمضي دورة الكائنات ثم يجيء يوم يقوم فيه كل شيء من الموت.

رحت أسبح الله وقد تجمدت أطرافي من الخشية. . وكان موسى يجد وقتاً طويلا ليتأمل هو الآخر. . كان يرى صور الكائنات خلال تحولاتها ويزداد دهشة وتسبيحا لله.

وكانت الذئاب قد ذاقت بأسي ذات يوم. . تصورت مجموعة من الذئاب انها مجموعة، وتصورت أن موسى رجل وحيد لا يملك غير يديه وعصاه، وجربوا الاقتراب من أغنامنا، ولكن موسى حركني بشدة في الهواء فصفر الهواء، ولمست ظهر ذئب تصادف مروره تحتي فعوى من الضربة وقفز هاربا ومن ورائه بقية الذئاب. .

نعم. . ليست عصا الراعي مجرد عصا يهش بها على غنمه، للراعي فيها مآرب أخرى. . أحيانا تتحول العصا الى خيمة وأحيانا تصير سلاحا يصد عشرات الأخطار. .

مضت الأيام ناعمة مشحونة بالمشاعر، كنت أحس ـ رغم صورتي الخشبية ـ أن موسى يزداد صفاءً وتوهجاً. . كنت أحس بحرارة جسده حين يغوص في ذكر الله ويتأمل آلاءه فيسخن جسده كانت هذه الطاقة التي يضمها جسد موسى أعظم أحيانا من طاقة الشمس. .

ومضى موسى يغوص في تأملاته حتى انقضت عشر سنوات. .

كانت هذه السنوات بخشونتها تشبه الأحجار الخشنة التي تستخدم في صقل المرايا والأسلحة. .

حين لم يعد في نفس موسى خيط واحد من عكارة الدنيا أو هراء العالم، حين أصبح موسى مستعدا لالتقاط صورة الكون كله في قلبه. . داعب الحنين قلب موسى للرحيل.

دخل موسى على الشيخ الذي تزوج ابنته وجلس معه يحدثه. .

قال موسى: مرت عشر سنوات..

قال الشيخ: نعم يا موسى..

قال موسى: أريد أن أعود الى مصر..

ارتجف الشيخ وقال: ذلك حقك يا موسى ولكني سأفتقدك..

ابتسم موسى ابتسامة مغتصبة، وقال للشيخ..

ـ سأفتقدك أنا الآخر. لقد آويتني ورعيتني وزوجتني ابنتك وكنت لي نعم الأب.. ولكن شيئاً غامضاً لا أتبينه يدعوني إلى الرحيل.. لست أعرف ولكنني لست مختارا.

قالت زوجة موسى: في الرحيل ألف خطر لم يسفر عن وجهه بعد.

قال أبوها الشيخ: انقضت عقوبة موسى بمضي المدة.. لا خطر عليه في مصر..

قال موسى وهو يقطب وجهه: القانون في مصر رهن اشارة فرعون، ان شاء أدخل في العقوبة بريئا فعل ولا تثريب عليه، وان شاء أخرج من العقوبة ظالما فعل ولا لوم عليه.. لا.. ليس هذا ما أفكر فيه..

قال الشيخ لابنته: أعدي لموسى قدحا من اللبن..

والتفت لموسى وقال له: فيم تفكر يا موسى..

قال موسى: صار الرحيل قدراً مقدوراً.. لست حراً وإنما أنا مأمور.. شاهدت نفسي في الرؤيا أقطع صحراء سيناء عائداً لمصر.. وقد فهمت أن هذا أمر..

قال الشيخ: متى ترحل..

قال موسى: غدا ان شاء الله تعالى.

شرب موسى قدحا من اللبن. وراحت زوجته تعد ما سوف تأخذه معها في الرحلة.. وضعت كل ملابسها وملابس موسى وطعاما وفيرا وأقداحا وأواني في كومة وراحت تحاول أن تتذكر ما الذي نسيته؟ وأشار موسى الى الكومة الكبيرة وسأل:

ـ ما هذا؟

قالت: ملابسنا وأوانينا وأقداحنا..

قال موسى: لن نحمل معنا شيئاً.. دعي كل شيء لأبيك الشيخ.. سنخرج بملابسنا فقط، لا نريد غير قدح نشرب فيه الماء.

قالت الزوجة: كيف ألقى أهلك بملابس السفر..

ابتسم موسى وسمح لها أن تأخذ رداء آخر..

وخرج موسى الى المراعي أثناء الليل ووقف يتأمل السماء والنجوم ويمد بصره في امتداد الخلاء.

بدأت رحلة موسى في الصباح..

سرنا طويلا.. موسى وأهله وأنا..

كنت أتقدمهم جميعا.. أدب على الأرض.. مررنا بمراع خضراء، ثم طريق طيني، ثم

طريق مترب، سرنا جوار جدول صغير، ثم مررنا جوار البئر الكبرى التي تقع في مدخل مدين، ثم خرجنا لصحراء عريضة، ثم تغيرت الأرض وقست وتحولت الى أرض جبلية..

سرنا يومين..

كان الجو يميل للبروة حين خرجنا، ثم أسفر الجو عن أنيابه الثلجية حين دلفنا في الجبال..

عدنا نسير..

سرنا أسبوعا بأكمله..

كيف عرفت ان للثلج أنيابا من البرودة.. هذه معرفة لا تتوافر الا لحية أو ثعبان..كيف تعرف العصا أن في الأرض خلائق لها أنياب.. لا أدري.. كل ما أدريه أن داخل أحشائي الجامدة يتخلق شيء غامض ومحير ويستحيل التعبير عنه..

سرنا أياما في البرد..

وجاءت ليلة شتائية.. اختفى القمر فيها وراء السحاب الداكن، ولمع الرعد ودمدم البرق وغسلتني الأمطار..

ثم فوجئت أنني أهتز..

كان موسى يرتعش من البرد.. وكان الظلام كثيفا.. أدار موسى رأسه حوله فلم ير شيئا.. ثم رآها هناك..

نارا تتألق هناك..

قال لأهله: امكثوا أني أنست نارا لعلي أتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى..

وقف أهل موسى حيث كانوا يقفون.. وتحرك موسى مسرعا نحو النار..

راح يسير وأنا أتقدمه..

فجأة لمع داخلي شيء كالتماع البرق.. أدركت حقيقتي في هذه اللحظة.. انني لست عصا. لست فرعا في شجرة..

لست نباتا.. هذا هو قناعي الذي أرتديه، لكن حقيقتي شيء آخر تماما.. حقيقتي انني حية.. ثعبان هائل.. لست أعرف من أين جاء ولا لماذا جاء.. ولست أعرف لماذا يأخذ شكل العصا.. تزايدت دهشتي ونحن نقترب من الحضرة الالهية..

وتداعت ذراتي سجودا لرب العالمين، وفهمت منه حقيقتي للمرة الأولى..

واقترب موسى من النار.. فلما أتاها نودى..

قبل أن ينادي موسى نوديت..

دون صوت، ودون كلمات، وبلا شفاه، وبلا لغـة..

صدر إليّ الأمر أن أخلق على صورتي الحقيقية، ولزمني الأمر في هذه اللحظات الجليلة.

حين اقتربنا من النار، أدركت قبل أن يدرك موسى أنها نور وليست نارا، وقبل أن يؤمر موسى بالقائي صدر إليّ أمر الله تعالى أن أعرف حقيقتي..

عرفت أنني ثعبان مبين.. وعرفت أنني حية تسعى.. وفهمت للمرة الأولى خلال وجودي على الأرض ان لي دورا أكبر من دور العصا والأشجار..

اقترب موسى من النار..

تغير الجو فجأة.. كانت السماء تمطر وكان البرد قاسيا! ولكننا هنا في هذا الوادي، لا نحس البرد ولا نحس الرياح وثمة صمت جليل مهيب..

اقترب موسى من النار.. خشعت الأرض للنداء الجليل.. ان بورك من في النار ومن حولها، وسبحان الله رب العالمين.. نُودِيَ موسى أن يخلع نعليه، فهو بالوادي المقدس طوى.

وتجلت رحمة الله على عبده وهو يوقفه موقف المخاطبة..﴿فلما أتاها نُودِيَ يا موسى.. إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى.. وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى.. انني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى، إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزي كل نفس بما تسعى، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى..﴾.

كان الموقف أعظم من قدرة اللغات على التعبير أو الاشارة - ارتعد جسد موسى وهو ينحني ويخلع نعليه.. أحسست أنه يرتعش من اهتزازي في يده..

كان الجلال غير المرئي ينشر هيبته في الوادي.. وكانت النار نورا فوضع موسى يده على عينيه خوفا على بصره.

كان الله تعالى يخاطب موسى من وراء حجاب، وصدر إليّ الأمر بحقيقتي من وراء حجاب، لا تحتمل المخلوقات أن يتجلى عليها رب العالمين.. لا يحتمل رداؤها البشري الجمال والجلال الالهيين..

نهار دكا.. تستوي في ذلك الأشجار والجبال والخلائق والسماوات والأرض.. من رحمة الله تعالى على موسى وعلى أنه خاطبنا سبحانه من وراء حجاب..

وقف موسى خاشعا أمام اختيار الله تعالى له.. ثم وقف مدهوشا والله تعالى يسأله: وما تلك بيمينك يا موسى؟.

ان الله تبارك وتعالى يتحدث عني.. يشرفني ويمجدني.. يسأل موسى عني.. يسأله سؤال استفهام.. وما تلك بيمينك يا موسى؟. يعلم الله سبحانه وتعالى حقيقتي التي لا يعرفها موسى..

أحسب أن أوان كشف حقيقتي لموسى قد جاء.. أدركت ذلك في لحظة.

أجاب موسى: قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى..

استمعت إلى جواب موسى وأدركت أنه لا يعرف حقيقتي، لقد عشنا معاً.. موسى وأنا ما يقرب من ستة عشر عاماً، منها خمسة أعوام في مصر كفرع في شجرة، ثم عام كعصا لا يمسكها كثيراً، ثم عشرة أعوام كعصا لا تفارق يده..

وذلك ما كان يحسبه موسى..

كان يحسب أنني عصا..

أمره الله تعالى أن يلقي بي..
قال: ألقها يا موسى..
القاني موسى من يده.. في اللحظة التي غادرت فيها يد موسى كنت أتحرك بعنف وأسعى..
ها هي حقيقتي تكشف النقاب عن وجهها..
حية عظيمة كنت.. لم يكن ثمة شك في ذلك.. لم أر صورتي ولم أعرف ماذا كان شكلي كحية..
لكنني لمحت في عيني موسى خوفاً لم ألمحه في عينيه من قبل، ورجحت أن مظهري هو الويل الوبيل.
كان موسى يقف في الوادي المقدس.. يخاطب الله تعالى ويخاطبه الله ورغم جلال الموقف لم أكد أظهر حقيقتي، حتى فزع موسى واستدار يعدو.
كان يريد أن يبتعد عني.. أنا .. عصاته.. ثعبانه.. لم أكن أحس نحو موسى بأي عداء.. مطلقاً.. ولا كان داخلي أي عداء لاي مخلوق.. أبداً.. كنت آية من الله ورحمة، ولكن الرداء الذي ظهرت به كان قناعاً لجوهر الخوف المخيف..

خاف موسى وانطلق..
خاطبه الرحمن ألا يخاف.
﴿قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾.
تقدم موسى نحوي وتردد قليلاً ثم مد يده إليّ.. لم يكد يمسك بي حتى كنت في وداعة العصا التي يهش بها على غنمه..
عدت سيرتي الأولى مؤقتاً..
عدت أستمع إلى الله تعالى وهو يخاطب موسى.
أمسكني موسى وراح يستمع..
كانت الأحداث التي وقعت لموسى قد زلزلته.. إن رب العالمين يخاطبه، والعصا التي يمسك بها في يده ليست عصا.
واختلطت عليه مشاعر الرهبة بالجلال بالخوف، حتى كان الموقف مَوقف قبض..
أدركت هذا كله في لمح البصر حين أمسكني موسى..
كان يرتعد..
وقد علم الله تعالى موقف موسى فأمره أن يضم يده إلى جناحه، فإذا موسى يثبت في الحال ويهدأ روعه ويشيع في قلبه السلام والأمن.. ثم شاء الله أن يطلع موسى على آية من جسده هو ليزول روعه من الآية التي كانت جسداً لشجرة من قبل، فأمره أن يضم يده إلى جناحه تخرج بيضاء من غير سوء...
فوجىء موسى بيده تنير كأنها القمر..

فاجأته هذه الآية، ولكنه احتمل حين هداه الله للاحتمال وربط على قلبه فسكن جأشه.
بعد أن أفهم الله تعالى موسى أن هاتين الآيتين من آيات الله الكبرى أمره أن يذهب إلى فرعون..
﴿لنريك من آياتنا الكبرى. أذهب إلى فرعون إنه طغى﴾.
حين أصدر الله تعالى أمره لموسى بالرسالة، فهمت أنا العصا سر جوهري الثعباني، ورأيت ثبات أخشاب العصا هو نفسه حركة الثعبان السريعة، وفهمت أن الهدف النهائي هو فرعون، كانت المهمة أن يقول موسى لفرعون قولاً ليناً.. فإذا رفض الاستماع ألقاني موسى من يده..
كنت أنا آخر الكلمات اللينة..
إن نعومة جلد الثعبان بكل ما تبعثه من قشعريرة الخوف هي كلمة لينة.. كنت أعرف أنني لن آكل فرعون ولن أؤذية..
إن المراد تخويفه فقط.. ما أعظم رحمتك وحلمك يا رب..
أليس هذا الحلم الالهي أكبر من قدرة العقول على التصور.. إنني أستطيع كعصا أن أضرب فرعون ضربة واحدة فأشج رأسه وأقتله، وأستطيع كثعبان أن التف حوله وأسحق عظامه، وأستطيع بحجمي الثعباني الهائل أن أبتلعه قبل أن يسرع إليه أي واحد من جنده وقبل أن يغيثه أحد..
ورغم ذلك، كان المطلوب مني أن أتحول أمامه فقط من شكل العصا إلى شكل الثعبان..
وبين قسوة العصا وليونة جلد الثعبان مساحة كافية ليؤمن فرعون إن كان يريد أن يؤمن..
أي حلم لله على عبيده..
سبحان الله.. سبحان حلم الله..

حين هدأ روع وموسى وسكن جأشه واطمأن قلبه. إنتقل من مقام القبض إلى مقام البسط فدعا الرحمن:
﴿قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً. قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ولقد مننا عليك مرة أخرى﴾.
استجاب الله تعالى دعاء عبده ورسوله موسى.. وامتلأ قلب موسى بالإيناس الجميل والرحمة السابغة والله يذكره بمننه السابقة عليه؛ ﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى إذا أوحينا إلى أمك ما يوحى، أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني. إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن، وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسي﴾.
أدركت من خطاب الله تعالى لموسى مجد موسى كإنسان ونبي.

لقد اصطعنه الله تعالى لنفسه.

أيضاً فهمت الدور الخطير الذي كلفه به القدر الأعلى وعلمت أنـني أداة اقنـاع بنبوة موسى.

حين انتهى موقف المخاطبة الالهي لموسى، قفل موسى عائداً لأهله.. فصحبهم ومضى يحث خطاه قاصداً مصر. أدب على الأرض كما تدب العصا.

لاحت أبواب مصر. تذكرت مثل حلم بعيد غارق في الضباب طفولتي كفرع شجرة في مصر. سار موسى جوار حديقة فرعون، هنا ولدت واليوم أمر على موطني فأحـسّ بالدهشة. لشد ما يتغير المخلوق.

لم يعد موطني يثير في نفسي ما كان يثيره أيام الطفولة، لا ذكريات لي هنا، هكذا أحسست..

أيضاً أحسست أنني ألعب دوراً عظيًما في مشهد بشري. اختلطت سيرتي الأولى بسيرتي الثانية وتوحدتا في تسبيحة طويلة. زار موسى شقيقه هارون وانفرد به في احـدى غرف البيت البسيط.

وضعني موسى جواره وأفهم أخاه سر مهمتنا نحن الثلاثة مع فرعون.

نحن الثلاثة.. موسى وهارون وأنا..

دخلنا قصر فرعون، ما أعظم الفرق بين بيت موسى وهارون وبيت فرعون، ذلك بيت صنعت جدرانه من الطين النيء، وهذا بيت صنعت جدرانه من الحجارة المكسوة بالخشب المعطر وصنعت أرضه من الرخام، وأثاثه من المرمر والعاج والأبنوس والذهب. كل شيء يضوي في قصر فرعون.

يتلألأ كل شيء ويلمع كل شيء باستثناء التعبير الذي يطل من وجه فرعون.

كان التعبير قاسياً بارداً جباراً لا تشوبه ذرة رحمة، وفهمت لماذا أرسلت له.

قال فرعون: موسى أخيراً..

قال موسى: نعم وقد عدت إليك بخير الدنيا والآخرة، تغير تعبير وجه فرعون من البرود القاسي إلى الدهشة. قال بما يشبه الاستنكار المستكبر، وما يشبه الهزء المستتر.

انت تعـود إليّ بخير الدنيا والآخرة. ما كل هذا الكرم يا موسى. من أين جاءك هذا الخير لتعود به إليّ. قال موسى بلطف: جاءني من الله وقد جئت رسولاً من الله أدعوك لعبادته.

نهض فرعون من كرسي العرش وسار قليلاً، ثم توقف يخاطب موسى: من زمان بعيد وأنت لا تؤمن بي يا موسى. سـكت فرعون ثم عاد يقول: لقد كنت تنكرني دائًما، لم تعترف بي يوماً واحداً كإله.

سار فـرعون أمام كرسي العرش، وراح يتأمل مجموعة من الرسوم على الحائط، ثم التفت إلى موسى وسأله، أنت لا تؤمن بالوهيتي يا موسى؟

قال موسى: أؤمن بالله رب العالمين.

قال فرعون كأنه يمتحن موسى: وما رب العالمين؟

قال موسى: رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين.

إلتفت فرعون لمن حوله وقال ولهجته تخوض في أوحال الهزء: ألا تستمعون؟

كان يسأل من حوله من رجال الحكم والوزراء والبلاط سؤال استنكار ويستشهد بهم على جرم هذا الذي جاء يعرض عليه الإيمان.

تجاوز موسى سخرية فرعون وعاد يقول: ربكم ورب آبائكم الأولين.

خرج فرعون من هدوئه وارتفع صوته وقال: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون.

لم يكد فرعون يتهم موسى بالجنون حتى ساد صمت. كانت التهمة جارحة بأي مقياس وكل مقياس، كانت جارحة لأنها كاذبة وكانت جارحة لأنها تهزأ من عقول الحاضرين وتستخف بهم جميعاً..

تقدم هامان وقال وهو ينحني لفرعون:

ـ هل أصدر أمرا لرجالي بطرد موسى من القصر..

انتشى فرعون بملق هامان وقال: لا.. لم نسمع بقية كلامه بعد.. إن موسى يدعوني إلى الله.. إنني أرفض الدعوة..

ماذا بقي عندك يا موسى..

ـ قال موسى: لم يبق الكثير.. لا أريد أكثر من لفتك إلى آيات الله في الكون.. خلق الله تعالى كل شيء يا فرعون.. هل يستطيع أي إنسان منا أن يوجه حركة السحاب وينشىء المطر..؟

ـ هل يستطيع أي جبار من جبابرة الأرض أن يخرج أزواجاً من نبات الأرض.. لقد خلقنا الله من الأرض.. وإليها يعيدنا بالموت.. ومنها يخرجنا بالبعث..

قال فرعون: بعد أن أصغى طويلاً وعكست ملامح وجهه علائم الملل:

ـ آه هذه قضية أخرى يا موسى..

دعنا منها ولننظر في قضيتك أنت..

قال موسى: أي قضية؟.

قال فرعون: هناك قضايا كثيرة.. أبسطها قتلك المصري وهربك من مصر.. أي اسم يسميه القانون لهذه العقوبة.

قال هامان: مقاومة السلطات الحاكمة.

قال فرعون: وهو يلتفت لهامان: ما هي عقوبة من يتخذ إلهاً غيري.

قال هامان: السجن مدى الحياة..

تحرك فرعون وسار نحو موسى..

قال: لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين..

قال موسى: أولو جئتك بشيء مبين..

كان تحدي موسى لفرعون واضحاً، وكانت إشارته الغامضة لهذا الشيء المبين كافية لوقف تقدم فرعون.

وقف فرعون في قاعة المرمر وصرخ.. قال: ﴿فأتِ إن كنت من الصادقين﴾.

تراجع موسى خطوتين إلى الخلف وألقاني من يده أنا العصا على أرض قاعدة المرمر.

خيل إلى فرعون أن موسى يتراجع إرتباكاً وخشية، خيل إليه أن العصا سقطت منه..

ابتسم فرعون ابتسامة واسعة.. ولمست الأرض فتحولت إلى ثعبان مبين.. رحت أتلوى، وافتح فمي، واخرج لساني منه.

فوجىء فرعون تماماً..

جمد في مكانه.. ماتت ضحكته على وجهه، زحف على وجهه إحساس لم يره واحد من بلاطه من قبل..

كان وجهه يتلون بين الأصفر والأخضر، ورحت أتلوى على أرض الصالة..

أراد فرعون أن يتكلم.. ولكن لسانه ارتعش في فمه ولم يطاوعه على الحركة.. ساد صمت عميق لم يكن يسمع فيه سوى صوت زحفي على الأرض واحتكاكي بالهواء وفحيحي المخيف..

بهت كل من في البلاط ممن شهد الآية..

كان أول من تخلص من ذهوله هامان، صرخ بصوته :

ـ أيها الحرس..

إلتفت نحوه، ونظرت إليه بعيني المفتوحتين اللتين لا تطرفان أبداً.. لا تطرف الثعابين.. ليس لها جفون.. لا ننام فنغمض عيوننا.. ننام وعيوننا مفتوحة.. استدرت نحو هامان وأخرجت لساني الرفيع الأسود فماتت بقية كلماته في فمه..

خرس هامان، وظل الواقفون يحدقون فيّ حتى تدخل موسى وتقدم نحوي وأمسكني، فعدت سيرتي الأولى وتحولت إلى عصا..

كان تحولي إلى الجمود إيذاناً بانطلاق السنة الحاضرين وفك عقالها.. تكلم فرعون أخيراً.

قال: آه.. أنت..

لم يقل أكثر منها.. لم يسعفه عقله بأكثر من كلمته المبتورة.. أفاق هامان من ذهوله.. وقال:

ـ سيدي الفرعون.. هذه حيلة السحرة.. إن في مصر عشرات السحرة الذين يستطيعون تحويل العصا إلى حية..

تقدم موسى من فرعون وقال:

ـ يا فرعون.. ليس ما رأيت حيلة من حيل السحرة.. هذه آية من الله لك.. وإليك الآية الثانية..

وضع موسى يده تحت جناحه ثم أخرجها.. لم يكد يفعل حتى ظهر وهج أبيض لا علاقة له بضوء الشمس ولا بنور القمر.. سقط الوهج على قاعة المرمر، وانعكس على ذرات المرمر الشفافة وزاد من كمية الحزن الشاحب الذي يلونها..

كانت يد موسى بيضاء من غير سوء.. انتشر بياض اليد في المكان كأنه نصفي الثاني.. كان وجودي المخيف آية في يد موسى، وكان بياض يد موسى آية أخرى في يده..

أحسست بذبذباتي الخشبية، وبحركة خلاياي الحية كثعبان، إن جسد فرعون يمر بحالة

تقترب من السجود القهري، كان فرعون ذكياً، لم يكن مخبول العقل أو عديم التمييز. . وأدرك على الفور خطورة ما جاء به موسى، ولكنه انصاع لمصالحه الخاصة وقرر أن يدخل صراعه مع موسى. . بيت في نفسه فكرة القتل. .

انتقل من معاينة آية الخوف إلى آية الصفاء. . ولكنه لم يخف ولا صفا. . عبر عليهما مغمض القلب ولو أنه خاف لصفا. .

تقدم فرعون من موسى ووقف على مسافة منه وقال:

موسى: ما الذي جئت تريده منا؟.

قال موسى وهو يتواضع لله ـ أريد أن ترسل معي بني إسرائيل ولا تعذبهم. .

قال هامان: لقد انكشفت المؤامرة التي تختفي وراء سحر موسى. .

لقد جاء موسى يخرجنا من أرضنا بسحره. . !

قال فرعون: لقد انتهت المقابلة يا موسى. . انصرف الآن وسوف نتصل بك فيما بعد. .

نظر موسى لفرعون . واستدار وخرج. . انصرفنا إلى بيت أخيه هارون. .

جلس موسى للعشاء مع هارون. .

قال هارون: هل شاهدت وجه فرعون وهو ينظر إلى الحية؟

قال موسى: نظرت إلى قلبه. . خشع وجهه للآية ولكن قلبه لم يخشع. .

قال هارون: ماذا تظنه يفعل؟

قال موسى: سيثير علينا الدنيا.

سكت هارون وأمسك بي وقال لموسى فجأة:

ـ هل تعرف ما الذي جاش بفكري حين رأيت عصاك منذ سنوات. . كدت أسألك أن تعطيها لي. . . ثم أمسك لساني شيء.

سكت الاثنان فترة ثم عاد موسى يتحدث. . قال: اقنع هامان فرعون أننا سحرة، وأغلب ظني أنه سيستعين علينا بالسحرة.

قال هارون: لو اقتصر الأمر على السحرة لهان الأمر. . ولكنني أخشى أن يدبر لنا فرعون شيئاً. .

قال موسى: كلمني الله تعالى قال: ﴿إنني معكما اسمع وأرى﴾ انهض بنا إلى الصلاة.

الصلاة أفضل من حساب التوقعات فيما يمكن أن يحدث. .

نهض موسى وهارون وانخرطا في صلاة عميقة وراحا يسبحان الله.

مرت الليلة. .

في اليوم الثاني جاء رسل فرعون إلى موسى. اخبروه أن فرعون يريد رؤيته. .

ذهبنا. . موسى وهارون وأنا. .

في هذه المرة كان فرعون يحشد كل وزرائه وقادة جنده ورجال دولته. كان الاجتماع في القاعة الكبرى. .

دخلنا نحن الثلاثة. .

كان موسى يرتدي ثوباً من الصوف الأبيض، وكان يضع في رجليه نعلاً قديمة لم يغيرها. .

وكان هارون يرتدي ملابس أفضل من موسى، ولكن الاثنين كانا لا يستخدمان أساور الذهب للتزين كما يفعل رجال الفرعون، وقد حرص فرعون على أن يدخل القاعة وهو يرتدي أفخر ثيابه وجواهره وتيجانه. .

كان يمسك في يده عصا من الذهب الخالص التي تنتهي بياقوتة حمراء، وهكذا تلألأ فرعون تحت مشاعل القصر المتوهجة. . ووقف موسى وهارون في ملابسهما المتواضعة. .

أشار فرعون إلى ملابس هارون وقال:

ـ نفس ملابسك ليلة الأمس. .

حنى هارون رأسه وابتسم بينه وبين نفسه. . وعاد فرعون يشير إلى موسى ويقول:

ـ لولا ألقي عليه أسورة من ذهب. .

كان معنى عبارة فرعون تكذيب موسى في نبوته، لو كان رسولاً حقيقياً فلماذا يجيء هكذا فقيراً، ولماذ لا يلقي عليه أسورة من ذهب. . لماذا يترك الله أنبياءه فقراء. .

رفع موسى رأسه وقطب وجهه وقال: يسخر فرعون من فقري، بينما الغني فتنة من الله والفقر ابتلاء منه.

قال فرعون: اسمع يا موسى. . لقد بحثنا في أمرك وأمر ما تدعيه من إرسال الله لك. . أنت ساحر يريد إخراج بني إسرائيل من مصر بسحره، وهؤلاء قوة عمل نملكها، وخروجها من مصر يضرنا مالياً. . ونحن نتحداك. .

إن حيلة العصا التي تتحول إلى حية من الحيل التي ينبغ فيها صبيان السحرة في مصر. . سنحضر لك السحرة. . ما هو الموعد الذي تحدده. . وما هو المكان؟

قال موسى: موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى. .

انصرفنا من قصر الفرعون بعد أن قبل موسى تحدي الفرعون.

جاء يوم الزينة. .

نشر فرعون في انحاء مصر كلها نبأ التحدي المشهود بين موسى وسحرته. كان موعدنا يوم الزينة. . وذلك أول يوم في أيام قيامة النبات من موته الشتائي في الربيع. .

ذكرني هذا اليوم بسيرتي القديمة. . في مثل هذه الأيام كنت أنهض من الموت كفرع في شجرة، وكانت الأوراق تولد من غصني وتعلن بخضرتها المبهجة عن قيامة الموتى. .

كان اليوم المحدد للنزال آية في حد ذاته، لو أن فرعون عكف على سطور اليوم وقرأها وحدها لكان ذلك حجة كافية لله عليه ولاستتبع ذلك إيمانه. . لكن فرعون كان لا يقرأ في سطور الكون. . كان يمر بقلبه المغمض على آيات الله في الأرض والسماء.

واذن فإن العصا تلزمه. .

ذهب موسى وهارون وحدهما إلى الموعد.. ووفد قادة فرعون وجنوده ووقفوا في اماكنهم.. حشر فرعون آلاف الناس ووقفوا يتفرجون كما لو كان ما يقع لا يعنيهم ولا يتصل بهم.. وصل السحرة فحياهم الجنود برفع اسلحتهم، ولمعت نصال الرماح والسيوف في ضوء الشمس.. وكانت تحية الجنود فيما يبدو إشارة إلى الشعب الذي احتشد للفرجة.. فهم المصريون الاشارة، ارتفعت اصواتهم تحية للسحرة.. ووسط هذا الجو المثير ارتفعت ابواق الجند ولعلعت تعلن عن وصول فرعون..

وصل فرعون محمولاً على سرير ملكه.

لم يكد يظهر، حتى سجد القادة، والجند، والسحرة، والمصريون.. لم يبق غير ثلاثة لم يسجدوا لفرعون.

موسى.. وهارون.. وعصا موسى.. اتحدث عن نفسي.. أي زهو تحس به الجمادات حين تنتصر على مهانة اللحم الانساني وضعته حين يسجد لغير الله.

أمر فرعون الناس أن تنهض من سجودها له.. احترق وجهه غضباً حين لم يبق منتصباً في الساحة غيرنا نحن الثلاثة.. كانت إشارة فرعون إيذاناً للسحرة بالتقدم.. تحركوا نحو فرعون وقالوا له: بماذا يأمرنا فرعون..

قال فرعون: يقول موسى إن له إلهاً غيري.. وقد ألقى عصاه فصارت ثعباناً.. وقد فهمت أنه يتحداني بسحره..

استدار كبير السحرة وتوجه صوب موسى وقال بصوت آمر قوي:

يا موسى.. إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى.

قال موسى: بل ألقوا..

تهيأ السحرة لألقاء عصيهم وحبالهم على الأرض وصرخوا يقولون ـ بعزة فرعون انا لنحن الغالبون..

قال موسى: ويلكم.. لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب..

كان ما وقع بعد ذلك شيئاً مثيراً..

ألقى السحرة عصيهم وحبالهم على أرض الساحة.. فإذا المكان يمتلىء بالثعابين فجأة..

سحر السحرة أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، خيل إلى جميع الحاضرين أن هذه ثعابين حقيقية..

ساد صمت موحش.. وراح الناس يتأملون ما يجري على أرض الساحة بانبهار عظيم..

اتسعت ابتسامة فرعون وضاقت نظرة موسى..

تقدم هامان بحركة قصد أن تكون مهيبة وانحنى أمام فرعون واستدار يحيي السحرة.. هلل الجند، فكان تهليلهم إشارة إلى الناس أن يهللوا.. تصاعدت صيحة واحدة من الجمع المحتشد.. هزت الصيحة موسى، وأدهشه ما رأى على أرض الساحة.. واوجس في نفسه خيفة..

أحسست بمشاعره حين اهتزت يده وهو يمسك بي .. طمأن الله تعالى موسى.. أوحي إليه.

﴿لا تخف. إنك انت الأعلى﴾.

كنت أعرف أن ما أشاهده أمامي على الساحة هو سحر بشري.. هذه الأشياء التي تتلوى على أرض الساحة ليست ثعابين حقيقية. أنا وحدي الثعبان الحقيقي رغم صورتي الخشبية واهتزازاتهم الثعبانية.. إن الفرق بين الثعبان الحقيقي وثعبان الساحر، ان ثعبان الساحر لا يأكل ولا يشرب..

إن الرسامين في قصر الفرعون يرسمون الثيران والأبقار على جدران المعابد، وهذه الثيران والأبقار أجمل من الثيران والأبقار الحقيقية، ولكنها لا تؤكل ولا يمكن شرب لبنها.

كانت هذه الثعابين التي صنعها السحرة لا تختلف عن رسوم الفنانين.. كانت سحراً كسحر الفن وإيهامه.. وادهشني ان موسى خاف.. وسجدت لرحمة الله حين طمأنه الله:

﴿لا تخف. إنك أنت الأعلى.. وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا، إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾..

ألقاني موسى من يده.. تحولت إلى ثعبان مبين.. واكتشفت فجأة أنني جائع..

ثعبان جائع وسط مجموعة من العصى والحبال التي تتحرك.. لقفت أقرب عصا جواري، زاد جوعي بعدها فانثنيت إلى الحبل الذي يتراقص هناك والتهمته.. زاد جوعي وزادت دهشتي.. أيمكن أن أكون جائعاً لهذا الحد.. لم أكن قد أكلت شيئاً أو شربت شيئاً منذ ملايين السنين..

كانت وجبة طعامي هي عصى السحرة وحبالهم التي ألقيت في الساحة.. انقضضت انظف الساحة من كل ما فيها من كيد السحرة..

كان الناس قد هللوا حين تحولت عصى السحرة وحبالهم إلى الحركة، وهكذا أكلت مع ما أكلت من هذه العصى تهليل الناس وضجيجهم..

نظفت نصف الساحة فانخفضت أصوات الناس، وتحولت إلى النصف الثاني والتهمت ما فيه في ثوان قليلة.. كنت افتح فمي وألتهم ما أجده أمامي..

بعد ثوان قليلة كانت الساحة قد خلت تماماً من حبال السحرة وعصيهم وسحرهم وكيدهم.. وساد صمت ثقيل.. لم يعد باقياً في الساحة سواي.. وتحولت وزحفت نحو سحرة فرعون. كانت أعينهم تكاد تبرز من مآقيها من الدهشة.. نهض كبيرهم وقال: ليس ما رأيناه سحراً، هذه آية من الله.. انهزم السحرة واعترفوا بهزيمتهم.. كانوا أكثر الحاضرين علماً بإمكانيات السحر وقدرة السحرة، وكان ما شهدوه أمراً يعلو على افهامهم ويتجاوز كيدهم، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون. فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين.

وألقى السحرة ساجدين. قالوا: ﴿آمنا برب العالمين.رب موسى وهارون﴾.

لم يكد فرعون يرى السحرة يسجدون لله حتى نهض واقفاً وصرخ ﴿قال فرعون آمنتم

به قبل أن آذن لكم، إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون. لأقطعن أيديكنم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين. قالوا: إنا إلى ربنا منقلبون، وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا. ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾.

جن جنون الفرعون حين سجد السحرة واسلموا لله... تحول غضبه من موسى إلى السحرة.. كانت فجيعته فيهم أكبر من اجتراء موسى عليه في تصوره.. هؤلاء سحرته.. أدوات حكمه.. اجهزة نظامه.. كيف يخذلونه كما خذلوه أمام كل هؤلاء الناس..

أثار هذا الأمر فرعون أكثر مما أثاره أي أمر آخر، غاظه أن يؤمن الناس بغيره، وقتل فرعون المؤمنين وصلبهم في جذوع النخل، وطغى وبغى واستكبر وعلا..

ونسي تماماً أن القدرة الإلهية كانت تعد له نهايته تليق بطغيانه.

الغرق..

فمه يمتلىء بالماء والملح..

تلك كانت نهايته..

ولقد كانت نهايته على يدي..

حين رفض أن يرى الآية الكبرى في تحولي من نبات إلى حيوان.. ومن شجرة إلى ثعبان.. اطلعه الله على حقيقتي من الماء والملح..

أوحى الله إلى موسى أن يخرج بقومه من مصر..

طاردهم جيش الفرعون..

قال أصحاب موسى حين اقترب منهم جيش فرعون: إنا لمدركون..

قال موسى: كلا.. إن معي ربي سيهدين..

أوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه..

بي أنا..

نزلت على البحر فانفلق البحر نصفين.. كل نصف كالطود العظيم.. سار قوم موسى وعبروا..

تبعهم فرعون.. نظر موسى إلى جيش فرعون وأراد أن يضرب بي البحر مرة ثانية ايلتئم الموج وينجو موسى من فرعون..

أمره الله ألا يفعل..

قال تعالى لموسى: ﴿واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون﴾

لو ضرب موسى البحر بعصاه مرة ثانية لنجا موسى ونجا فرعون.

ولكن الله شاء أن ينجو موسى ويغرق فرعون.. وصل جيش فرعون إلى منتصف البحر وهنالك انطبق البحر على فرعون وجيشه.

تصاعدت صرخات الجنود من الهلع.. بدأ فرعون الجبار يغرق..

قال وهو يغرق: آمنت انه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين..

ردت توبته إلى وجهه وقال له جبريل عليه السلام : ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسـدين﴾.

وهكذا أزحت الستار عن عناد فرعون في قصره، وأسدلت الستار على عناده في البحر..

غرق فرعون ولفظ البحر جثته..

وعاود موسى السير..

مرت سنوات وسنوات..

لم تعد لي مواقف مثيرة..

عدت عصاً كما كنت..

وجاءت نهايتي ذات يوم في التـيه..

وقعت من موسى عليه السلام وهو ينحدر يوماً من الجبل..

ونظر موسى فوجدني استقر في جوف واد بعيد.. ولا أعرف لماذا تركني في مكاني وعاد إلى بيته بدوني.

أحسست بانقباض.

خيل إليّ أن نهاية موسى تقترب.. وأن الفراق بيننا اشارة لهذه النهاية..

وامطرت السماء في هذه الليلة.. وعرفت أن موسى يموت من بكاء السماء عليه.

بقيت في مكاني وتصلبت على الحزن..

ومرت سنوات:

بحث عني بنو إسرائيل طويلاً ولكنني نجوت فلم يجدني أحد..

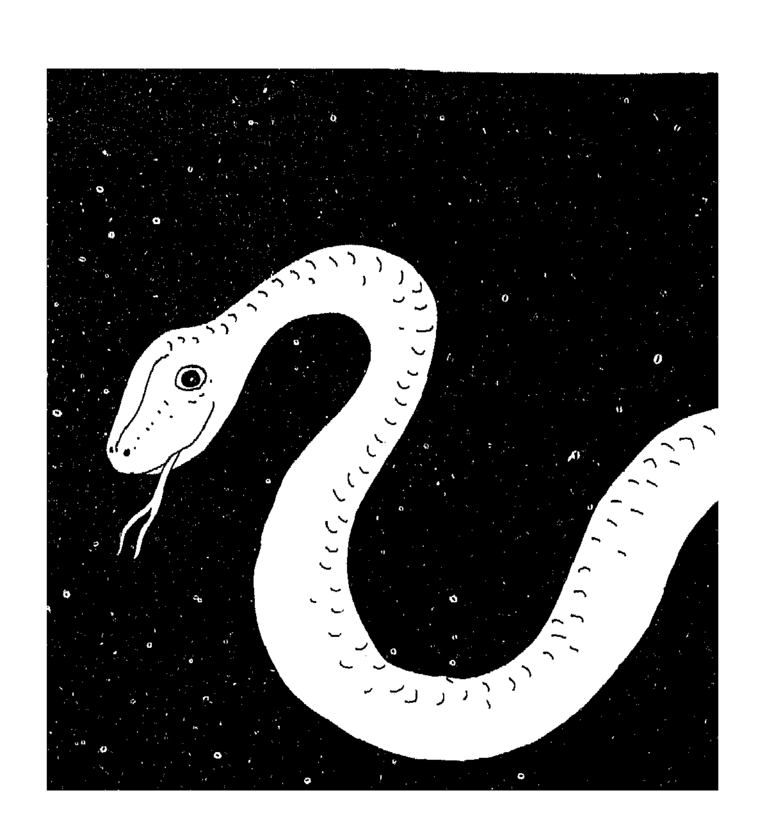
مـن يدري..

ربما كنت أتحول إلى فتنة لهم كما كنت فتنة لفرعون..

حمداً لله..

لم أتحول لفتنة.. إنما تحولت إلى تراب..

عدت لأحضان الأرض.. سراً يدفن نفسه في التراب.



هدهد سليمان

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ. لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾.

(سورة النمل ـ آية ٢٠ ـ ٢١)

اسمي «مارهالا».

اسم لطيف اختارته لي «هيدان».

سيد أنا من سادة الرياح والسحاب والماء. . أطير أياماً وليـالي دون أن أحس التعب. . لا أرى الأرض إلا من عرشي الشاهق في السماء. . وأراها جميلة كلما ارتفعت وابتعدت. . ليس إسمي اللطيف أقل من قدرتي من الطيران. وليس تفوقي في الطيران أقل من قدرتي على الرؤية. أستطيع أن أرى من ارتفاعاتي الشاهقة أين يوجد الماء في الأرض. . قد يعبر الجيش صحراء شاسعة. . نفترض أن الماء نفد. من أين نحضر الماء للعساكر والطيور والوحوش. أنا المسؤول عن رى عطش الجيش كله.

أرتفع عمودياً حتى أجاوز السحاب ثم أتوقف وأخفض رأسي وأتأمل.

أحدق بنظري الثاقب في الأرض. تخترق نظراتي سطح التربة الرملي وتنفذ إلى ما وراءه. تخترق الحجارة الجيرية وتنفذ إلى ما وراءها. . تنزل نظراتي في الأرض وتغوص. . استخدم أشعة كونية للعثور على الماء. . إذا عثرت عليه هبطت من أعلى هبوطاً عمودياً وحددت المكان. . أشير بمنقاري إلى المكان الذي ينبغي أن يبدأ الحفر فيه. . ويبدأ الحفر.

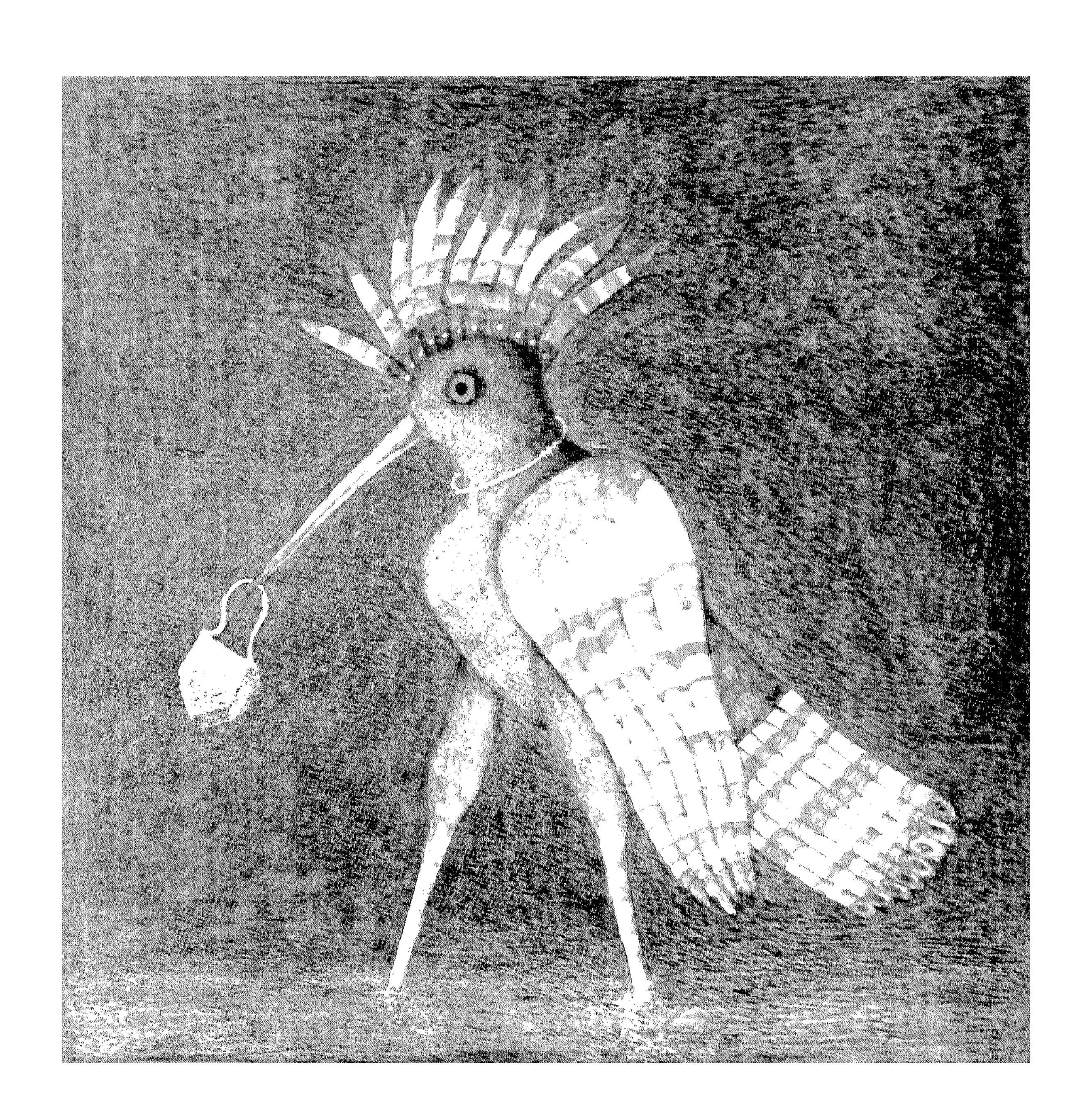
ينتهي حفر البئر فأهبط واستحم وأشرب. أخرج من البئر مبلل الريش فيشرب الجيش بعدي كله. لست في حاجة لتقديم نفسي إلى القارىء. .

فهمتم أنني هدهد سليمان. .

أشهر من نجوم السماء. .

أعرف ذلك.

أعطاني الله ريشاً ملوناً حول رأسي لم يعطه أحداً من الطيور. . الطاووس في أحسن حالاته



لا يرتدي ثياباً مثل ثيابي.. ولا يؤدى جزءاً على ألف من مهامي الخطيرة العديدة التي أؤديها.. الطاووس مخلوق فارغ.. هو دائمًا معجب بنفسه دون مبرر مفهوم.. أما أنا فمتواضع رغم أهميتي الشديدة.. أقول لكم سراً.. أكاد أحياناً أحس أنني أهم من قائد الجيش.. راودني هذا الاحساس مرتين أو ثلاث مرات لا أنكر.. لكنني نحيته جانباً إيثاراً للسلامة واتقاء لشر المتاعب.

أعترف أن سليمان مـلك له هيبته.. أعترف أنني أخاف منه.

رغم خدماتي العظيمة التي أؤديها له.. أراني أخاف أحياناً منه.

لم أتحدث عن أخطر مهامي في خدمته. آثرت أن أحتفظ بأهم أعمالي إلى النهاية. هذه طريقتنا التقليدية نحن العاملين في المخابرات.. لا نقول أهم شيء إلا في نهاية الحديث..

نعم.. أنا «مارهالا» هدهد سليمان ورئيس المخابرات في جيشه..

ليست المخابرات مسألة سهلة. تم اختياري من بين عشـرة آلاف هدهـد.. امتحنهم سليمان جـميعاً فوجدني أذكاهم وأقدرهم على تحصيل المعلومات ونقشها في ذاكرتي والاحتفاظ بها حية طرية.

وتم اختياري يومها..

كان يوماً لا ينسى.

ملأني الزهو.. لا أنكر..

لا أنكر أيضاً أنني أحسست بخطر المسؤولية. إن حياة الجيش كلها أمانة في عنقي الجميل الذي يحيطه تاج إلهي من الريش الملون.

لا تتحرك الجيوش إلا إذا أعطيتها بنفسي إشارة التحرك الخضراء، وأنا الذي أحصل على المعلومات، وبغير المعلومات يبدو أعظم الجيوش مثل عملاق أعمى يستطيع أي طفل أن يكبه على وجهه ويهزمه.

المعلومات هي حياة الجيش.. هي عينه الخفية التي يرى بها عدوه.. وينتصر دائمًا في الحروب من يرى أكثر. من يدري عن عدوه أكثر.

مهمتي أنا أن أعرف..

وأنا دائمًا أعرف.. صحيح أنني أعمل بكل أعصابي، لكنني أيضاً ألعب بكل حيويتي. هناك فرق بين أوقات العمل الرسمية وأوقات الفراغ الحرة، أوقات العمل ملك لـسليمان وجيشه. أعمل فيها حتى النهاية، بعدها لا أهمل التسرية عن نفسي. هذا حقي أيها السادة الطيور.. ليس من حق أحد أن يقول لي أين كنت.. انهيت أعمالي وكنت ألعب.. ما الذي يعنيك أنت أين كنت.. كنت أغازل هدهدة جميلة هناك، أو كنت نائمًا فوق شجرة، أو كنت آكل وأشرب.. ماذا تريدون مني ما دمت أؤدي واجبي على الوجه الأكمل.

ليس دمي ثقيلاً مثل الأسد، ولست متصنعاً وقاره الكاذب وحركته البطيئة.. أعظم ما أكرهه أن ينتقل أحد من عمله إلى بيته فينقل معه إحساسه بالأهمية ويعامل زوجته مثلما يعامل مرؤوسيه.. بكبرياء وعظمة. أعتبر ذلك دليلاً على عـدم النضوج.



العمل عمل واللهو لهو.. ولن تجد أحداً يعرف اللهو حقاً إلا إذا كان يعرف العمل حقاً. الخائب خائب في كل شيء. في العمل واللعب. هذه عقيدتي الثابتة. طبعاً أثارت طبيعتي حولي عديداً من المتاعب وجندت لي أعداء كثيرين. لا أنكر أن لي أعداء أقوياء.

الأسد مثلاً أحد أعدائي القدامى.. المفروض أن الأسد يعمل جناحاً أيمن في الهجوم في جيش سليمان.. تتبعه أسود ونمور عديدة.. نعرف يا سيدي الأسد أنك أسد.. أنك قوي.. أنك ملك الحيوانات لكنك يا سيدي الأسد مهما سموت لا تستطيع أن ترتفع عن الأرض مثلي. أنا الطير الطائر الذي يقول لـك في أي اتجاه تمضي وبأي سرعة تنطلق وأي هدف تنقض عليه..

يثير الأسد أعصابي كلما تذكرته..

إعتاد الأسد كلما تغيبت أن يسأل سؤالاً فـي ظاهره البراءة وباطنه الخبث.. إنه يقول: - أين ذهب الهدهد؟

وعادة يسمع سليمان كلمة الأسد. يزأر الأسد إذا تحدث كـأن من حوله أصيبوا بالصمم. مخلوق سوقي.

أعرف أن الأسد يتعمد إحراجي بكل الوسائل.

لا تتوقف عداوته عند تنبيه الملك سليمان إلى غيابي، وإنما يتطفل عليّ أحياناً بالأسئلة. سألني ذات يوم.

- لماذا لم تتزوج حتى الآن؟

قلت: أرجـو أن تعني بشؤونك الخاصة.

قال الأسد: أسألك سؤالاً مجرداً فماذا أغضبك؟

قلت: يغضبني أن هذه مسألة شخصية بحتة. هل تحب أن أسألك أنا لماذا تزوجت؟

ضحك الأسد ضحكة هزت جدران الخيمة التي نعيش فيها فازداد نفوري منه. لماذا لا يهتم بشؤونه الخاصة ويستحم. إن رائحة الأسد تزكم الأنوف، وما كلمته يوماً إلا وأنا أدير منقاري بعيداً عنه.

استدعاني الملك سليمان ذات يوم.

نظرت إلى الشمس فرأيتها تتهيأ لرحلة الغروب.

يقترب موعد صلاة الملك سليمان، فلماذا يستدعيني الآن؟. المفروض أن عملي ينتهي بعد قليل.. ذهبت إليه مهموماً، أخشى ما أخشاه هذا الاستدعاء المفاجىء.. أجهل ما يريدني سليمان من أجله، ولهذا أخاف. لو كنت أعرف لما هزني الخوف. هذه قيمة المعلومات والمخابرات. طرت نحو بيته.. وقفت ونقرت كريستال الشباك.. كل شبابيك سليمان من الكريستال الملون بينها اطار النوافذ نحاس لامع عليه نقوش من الفضة.. يغوص الجن في أعماق البحار لاحضار الرمل الناعم، ثم يشعلون تحته أحجاراً وأخشاباً حتى ينصهر الرمل ويذوب ويصنعون منه الزجاج بأنواعه.. يعجبني سليمان.. نبي صالح وملك مهيب، ورجل يعرف كيف يختار ثيابه وكلماته. ليس فيه من وجهة نظري غير عيب واحد فقط. ذكاؤه الحاد.

أحياناً تتكلم معه فيخيل إليك أنه يقرأ أفكارك.. أو يقرأ ما بين سطور الكلمات التي تقولها والتي لا تقولها.. وفي مثل هذا الحوار الذي يجري بين طرفين غير متكافئين، لا بد أن تنهزم.. وأنا لا أحب أن انهزم..

مخلوق أنا أصلاً للانتصار.. سمح لي الملك سليمان بالدخول. دخلت الحجرة.. كانت إحدى زوجاته تجلس عند قدميه.

حنيت رأسي بتحية عميقة وقلت: السلام على النبي الملك سليمان الحكيم.

اعرف أن هذه هي الألقاب التي يحبها سليمان..

قال سليمان ساخراً: السلام على الهدهد الذي يعشق اللعب أكثر مما يعشق عمله.

أحرجتني الملاحظة أمام زوجته. حنيت رأسي ونفشت ريشي الملون فانعكست عليه أشعة الشمس وظهر التاج الذي وضعه الله على رأسي أجمل من التاج الذي صنعه الجن لسليمان.. فهم سليمان مغزى الحركة وابتسم..

قال جاداً: لم تقدم إليّ تقريرك الاسبوعي منذ ثلاثة أسابيع.

قلت ـ سيدي القائد.. ليس هناك جديد على الاطلاق.. يعمل الجن بمنتهى الاخلاص، ويشتغل الجند بأقصى الطاقة، وتمضي الأحوال هادئة في المملكة.. وقد فهمت من حديثك أنه لا داعي لتقديم تقرير إذا كان كل شيء في موضعه.

قال سليمان وهو يقطب: أنت لا تفهمني يا مارهالا.. لماذا تتصور أن عملك يقتصر على كتابة التقارير.. هذا أسلوب تقليدي في عمل المخابرات.. المفروض أن تعطيني إحساساً بأنك تبتكر في عملك..

قلت : حدثني الملك النبي قبل ذلك أنه راضٍ عن عملي.

قال سليمان برفق: تعرف ضعفي إزاءك يا مارهالا.. تعرف انني احبك.. راض أنا عن ذكائك ولست راضياً عن عملك. لم تقدم إليّ فكرة عبقرية تجعلني أحس أنك تستحق دخول التاريخ.. ما زال عملك عادياً..

انحدرت قطرة من العرق على جبهتي.. أحسست الحرج وفكرت في حبيبتي هيدان.. قال سليمان كأنه يقرأ أفكاري:

ـ هل تعرف انثى من بني جنسك تحمل اسم هيدان؟.

قلت ـ نعم.

قال ـ سمعت أنك تنوي الزواج منها.

أحسست أن سليمان يورطني فانطويت على الصمت، أدرى أنه يعرف موقفي من الزواج.

عاد سليمان يقول: لو كنت تعطي لعملك نصف عبقريتك في اللهو لصار لك شأن عظيم.

أشار بيده أن أنصرف فانصرفت مهموماً مثقلاً.. حائراً بين سليمان وهيدان. تقول لي: أنت دائمًا مشغول، ويقول سليمان لي: أنت دائمًا تلعب. وقد طالت حيرتي بينهما، ولم أعرف كيف أرضيه أو أرضيها. هي مأساة العباقرة في كل الأزمنة والعصور.. انصرفت إليها.

كانت خارجة من النهر بعد أن استحمت. لم تكد تراني حتى فردت جناحها الأيسر. ألقيت بنفسي في أحضانها ووضعت رأسي على رقبتها وتنفست. تطاير الريش الجميل حول عنقها.

سألتني وهي تغمض عينيها: سمعت أن سليمان يريدك.

قلت ـ قادم لتوي من عنده.

قالت بغيظ ـ لو كنت تعطيني نصف ما تـعطيه لعملك لصرت أسعد هدهدة في الدنيا.

قلت بضيق ـ قال سليمان عكس ما تقولينه الآن.. يعطلني الحب عن النجاح في العمل.

قالت بدلال ـ سليمان يتجنى عليك ويظلمك.

قلت بحسم ـ غير صحيح.. أنت وحدك الظالمة يا هيدان.

قالت باكية ـ أنت دائمًا مشغول، دائمًا مسافر، دائمًا في اجتماعات مع مرؤوسيك. أنت إما ذاهب الى سليمان وإما قادم من عنده. أين مكاني في حياتك.. أين أنا في قلبك.

قلت فجأة ـ اسمعي يا هيدان. أنت أجمل هدهدة في الدنيا.. وعندما أموت سوف أحلم حلمًا واحداً يبدأ بمنقارك وينتهي بمنقارك. لقد اعطتني كلماتك فكرة عبقرية. تقولين إنني دائمًا أسافر. لم أسافر منذ فترة طويلة. هذا سر خمولي في العمل... سأسافر اليوم.. سأتجه جنوباً إلى جبال اليمن. قلبي يحدثني أنني سأعود بعمل طيب، وهناك أيضاً بدل السفر.

أطير مرتفعاً محلقاً متعجباً من غرابة الأناث.. تقول كل هدهدة عرفتها ما تقوله هيدان. غير أنني أميل إلى هيدان. لو كانت أقل غيرة لتزوجتها. أخشى أن تفسد الغيرة حياتي. ما أجمل مشهد الأرض من ارتفاع شاهق. تبدو الصحراء مثل بساط من الذهب، ثم يجيء البحر مثل ثوب من

الفيروز الأزرق، ثم تجري الحقول الخضراء تحت صدرك، أحس بـــيد الجـلال الخالق وهي تسوق السحاب إلى قمم الجبال الملونة. يصطدم السحاب بالقمم ثم يهبط الثلج مثل قبلات بيضاء.

خشع قلبي خلال طيراني السريع.. رحت أسبح بحمد الله تعالى خلال طيراني فازداد ارتفاعي دون أن أحس أو أشعر.. أنهيت تسبيحي. فقلت أتأمل الأرض بحثاً عن المياه.

عثرت على ثلاث مناطق للمياه لم تكتشف بعد في صحراء مهجورة.. حددت في ذهني مناطق المياه وزدت سرعتي.. أليس مدهشاً أنني أطير دون أن أعرف سر الطيران!!

ها هي أسوار سبأ..

الأسوار بيضاء والطرق واسعة والحقول كثيرة والقصور عديـدة وهناك حـرس كثيف في الطرق، وثمة معبد هائل مكشوف تملأ الشمس ساحته.

رجحت في نفسي أنهم أغنياء وأقوياء من شكل مدينتهم.. ان طرقهم مستوية لا تعرف المطبات، وأسطح المنازل نظيفة وتمتلىء باصص الزرع.. اخترت شجرة عالية في أكبر قصر في المدينة ووقفت..

رأيت هدهدة لطيفة.

حييتها باحناء رأسي وأدرت وجهي عنها. رحت أفكر في طريقة لحملها على الكلام. لم استغرق وقتاً طويلاً في التفكير..

هوايتي المفضلة حمل الآخرين على الكـلام.

قلت وأنا أنفض ريشي فجأة ـ أليست هنا أنهار قريبة.

قالت الهدهدة ـ هل أنت غريب؟.

قالت بحذر ـ سائح في أرض الله. أليست الأرض ملكاً لله؟

قالت الهدهدة ـ وهي تقترب من غصني أكثر ـ الأرض هنا ملك للشمس.

شعرت بحاسة المخابرات الخفية أن في الجو رائحة عمل.. اقتربت منها قائلاً بود:

ـ كيف تكون الأرض ملكاً للشمس أيتها الهدهدة الوديعة؟

قالت الهدهدة بسذاجة وصراحة ـ هنا يسجد الناس للشمس

فاجأتني كلمتها وقفز سليمان لذهني على الفور.. أخيراً عثرت على قضية خطيرة.. قضية لم أكن أحلم بها قط.. ناس يسجدون للشمس.. أليست هذه خيانة عظمى لتوحيد الله؟. أليس سليمان نبي الله وسيفه في الأرض؟. تدخل القضية في اختصاصه إذن.. أحسست أنني قد صادفت يومي السعيد على الأرض.. خبطة هائلة..

ملأت صدري سعادة غامرة وأردت أن أطير واصرخ من الفرح وأفرد تاج الريش فوق رأسي وأقبضه.. ولكنني أمسكت أعصابي كأي رئيس عتيد للمخابرات..

إلتفت إلى الهدهدة متمتماً بهدوء ولا مبالاة:

ـ لـطيف جداً.. لطيف جداً..

سألتني البلهاء ـ ما هو الشيء الذي تراه لطيفاً فيّ؟.

قلت مجاملاً ـ طريقتك في نطق الكلمات.. إنني هدهد يسافر كثيراً ويرى كثيراً ويعرف كثيراً.. لم أر مثلك هدهدة تنطق الكلمات بهذه الوداعة.

ارتعش الغصن الذي تقف عليه، أصاب السهم هدفه، رأيتها تفرد اجنحتها بحركة تبدو غير مقصودة.. كأنما لتنفض عنها التراب. أرادت أن تريني رشاقتها.. لا بأس بها على أي حال. لم أكن في حالة تسمح لي بالتفكير في الحب.. ما هي الخطوة التالية. أريد أن أعرف أكبر قدر من المعلومات عن هذه القضية على الفور.. لكنني لا أستطيع أن أبدأ استجوابي لها كي لا أثير شكوكها.. يجب أن يبدو كل شيء طبيعياً كجزء من حديث عفوي عن الطقس أو الشجر أو الطعام أو الأنهار.

فردت تاج الريش فوق رأسي ونفشت صدري وصفقت بأجنحتي وأريتها كم أنا ساحر وجذاب.. واقتربت الهدهدة من الغصن الذي أقف عليه أكثر.

قالت ـ لم تحدثني عن نفسك. من أين أنت قادم. إلى أين أنت ذاهب. هل عندك هداهد صغيرة.. ماذا تأكل. كيف تجد طعامك. اسمك. متى ولدت؟

آه.. أراها هي التي تستجوبني.. قررت أن الجأ لأسلوب الهجوم الساحق.

فردت جناحي الأيمن وضربت الغصن الذي تقف عليه ضربة قوية مفاجئة فكادت تسقط من فوقه. مالت قليلاً إلى الأمام واختل توازنها فتلقيتها بجناحي الأيسر. ورأت نفسها تقف على نفس الغصن الذي أقف فوقه وقد اقترب منقاري من منقارها..

لو رآني سليمان لظن أنني ألعب، ولو رأتني هيدان لتصورت أنني أخونها ومزقت الهواء بصرخاتها الغاضبة.. خطأ.. هذه النظرة خطأ.. هو عمل نؤديه من أجل مهنتنا.. وكل شيء يهون إذا تعلق الأمر بالمعلومات. عرفت منها عدد الناس في سبأ. وحدثتني عن عدد الجنود والضباط. أخذتني لمخازن أسلحة الجيش فالتقطت لها صورة بعيني وأودعت الصورة في عقلي. أرتني مداخل المدينة ومخارجها وأنهارها التي تشرب منها. شاهدت حقول الفلاحين ومصانعهم وبيوتهم. أخذتني من جناحي إلى معبد الشمس الذي يسجد فيه الناس للشمس. ورأيت قرصاً عظيمًا من الذهب المحلى بالجواهر. وهو قرص تنعكس عليه أشعة الشمس فيخطف وهجه البصر.. ولا أنكر أن ضحكة أفلتت مني ونحن نشهد معبد الشمس فنظرت إليّ الهدهدة باستغراب. أخذتني لقصر الملكة التي تحكمهم فرأيت امرأة على قدر غريب من الحسن.. لم أر لها مثيلاً في قصر سليمان. ولاحظت أن ملابسها تغطي قدميها وتنسحب وراءها وهي تمشي، وقدرت أنها امرأة محتشمة محافظة، ثم افهمتني الهدهدة أن في إحدى قدميها عيباً فهي تخفيهما معاً. لم تكن متزوجة.. ولكنها تملك شخصية امرأة تشبه شخصية الرجال.. رأيتها تعامل رؤساء قومها ووزراء مملكتها ومستشاريها معاملة حاسمة.

عيبها الوحيد هو سجودها للشمس. رأيتها وقومها يسجدون للشمس.

كان عرشها آية من إيات فن النحت العظيم.. سجلت في ذهني أوصاف عرشها الكاملة.

انتهى ما جمعته من معلومات . مكثت خمسة أيام في عاصمة المملكة وقراها البعيدة. عرفت طول الطرق واتساعها وعرضها وقدرتها على احتمال المركبات الحربية لسليمان، بعد أن قدرت في ذهني أنه ربما يريد مهاجمة المملكة.

استطعت تجنيد الهدهدة اللطيفة التي التقيت بها في سبأ. دون أن أكشف لها شخصيتي.

أثارت بعض المتاعب في البداية حين لاحظت أن اهتمامي بملكة سبأ أكثر من اهتمامي بها، ثم أفهمتها أنني هدهد فضولي هوايته طرح الأسئلة. اطمأننت منها إلى أن أحداً من الناس في سبأ لا يعرف لغة الطيور والوحوش والحيوانات مثل سليمان.. ورغم ذلك لم أحدثها عن حقيقتي أو مهمتي. من يدري. الاحتياط أفضل..

بعد انتهاء مهمتي تماماً في سبأ. فكرت أن ألهو قليلاً. أليس هذا حقي.. انتهى عملي على الوجه الأكمل فأي ضرر في قليل من اللهو.

قلت لزميلتي وتلميذتي الهدهدة: نريد مكاناً ريفياً فيه ديدان في الأرض ونهر قريب. وصحبتني لشاطىء ريفي جميل..

قضيت ثلاثة أيام تشبه الحلم.. هدوء مطلق وريف وادع وخير عميم وصمت مريح للأعصاب . رتبت المعلومات في ذهني أول يوم وصلنا فيه ثم قضيت اليومين التاليين مع الهدهدة.

لا شيء يريح عقل هدهد مرهق مثل ثرثرة فارغة يسمعها من هدهدة تحبه. كانت تسألني لماذا لا نسافر إلى مصر. يقولون إن هناك ريفاً رائعاً يمتلىء بالطمى وحظائر تحفل بالطعام. قلت لها رداً على ثرثرتها: إن في مصر زحاماً من الهداهد ومشكلة اسكان هدهدية وأنا لا أحب الزحام والضجيج.

كنت أقول أي كلام لأصد نفسها عن الذهاب

سألتني يوماً ألم أفكر في الاستقرار والزواج؟ وما هو الشيء الذي أحلم به أفضل من ذلك؟

لم أقل لها هل تتصورين أنني هدهد بلا عمل.. لم أقل لها أن ورائي مهاماً خطيرة في جيش سليمان.

تذكرت سليمان في اليوم الثالث. قلت لنفسي ماذا لو كان أحد الجن في جيشه يتمشى قريباً من هنا فرآني أعبث وألهو وأستمتع بهذا المصيف الريفي الهادىء..

ماذا لو نقل الصورة لسليمان.

يذبحني سليمان لو عرف.

قلت للهدهدة فجأة: سأرحل غداً.

قالت: خذني معك.

قلت: ليتني أستطيع.

قالت: لماذا لا تستطيع؟.

قلت : سأعود إليك مرة ثانية.

بدأت تبكي وهي تلصق رأسها بصدري فقلت: دموعك تمزق قلبي ولكنني مضطر للرحيل وسوف تفهمين يوماً لماذا أرحل. . لقد أحببتك ولكنني يجب أن أسافر.

قالت يائسة منهارة مهددة: سأتوقف عن تناول الطعام والشراب لو ذهبت غداً.

قلت ـ بل أنا الذي ينتحر إذا مكثت غداً. أنت لا تعرفين سليمان.

قالت ـ من يكون سليمان ؟.

قلت ـ أخي الكبير وسيدي وتاج رأسي.

هناك مشكلة عائلية تستوجب سفري غداً. أريد أن أسافر وفي ذهني صورتك وأنت تضحكين. . ابتسمي أيتها اللطيفة. . ابتسمي. . لم أستطع أن أنام ليلتها. .

في منتصف الليل تركت فراشنا الدافىء وسط أغصان الشجر. . وطرت نحو السماء بلا صوت. .

قلت لأجنحتي: اقصى ارتفاع وأقصى سرعة. نمت أثناء الطريق فطرت طيراناً آلياً. . وصلت إلى خيمة الطيور في جيش سليمان.

وصلت فإذا الدنيا كلها مقلوبة عليّ.

لم أكد أدخل خيمة الطيور حتى أسرعت نحوي عشرات الطيور فزعة مرتعدة تسأل ـ أين كنت. أين كنت ؟

تشاءمت من طريقة الاستقبال وقلت مدعياً رباطة الجأش ـ ماذا حدث. . ولماذا تصرخون هكذا؟

قالوا خرج الملك سليمان في جولته على الجيوش. . مر على الجن، ومر على الوحوش. . ثم جاء إلى خيمتنا. . ناديت العصفور ـ وكان يعمل مديراً لمكتبي ـ وسألته ماذا حدث. قال حدث ما قالوه لك. جاء الملك سليمان.

﴿وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين. لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين﴾.

ارتعشت عظامي فتظاهرت بالثبات وسألت:

ـ هل قال سليمان كل هذه التهديدات؟

قال العصفور ـ قالها كما نحكيها لك بغير زيادة وبلا نقص.

قلت للعصفور ـ ماذا كان ردك أنت.

قال العصفور ـ أردت أن أقول إنك في مهمة ولكن منقاري كان يرتعش ويصطك فلم أستطع أن أكمل الكلام.

قلت لمدير مكتبي ـ لا تخف. . مركزنا ثابت وقد كنت في مهمة. ماذا قال أعدائي عني وكيف استغلوا الموقف ؟

قال العصفور ـ برزت أنيابهم جميعاً وقال كل واحد منهم كلمة كسم الثعبان. قالوا أنت طيب ولطيف ولكن ؟ بعد كلمة لكن ألحقوا بك نقائص الدنيا كلها يا سيدي، واتهموك باللعب والاهمال. . نحن في مأزق يا سيدي.

قلت ـ لا تهتم. . سأتخلص من المأزق.

تظاهرت بالثبات ورحت أتمشى ولكنني وجدت نفسي سأقع مغشياً عليّ، كنت أرتعش ولا أعرف كيف يستقبل سليمان قصتي عن سبأ.

ربما لا يصدق. ربما تصور أنني اختلق له قصة وهمية لتبرير غيابي. .

وصلت هيدان ممزقة الريش باكية. ارتمت عليّ وصرخت:

ـ أين كنت. سليمان يهدد بذبحك. . وهو غاضب أشد الغضب. كان الموقف دقيقاً. إن هدهدتي الحبيبة مرعوبة. . صرخت فيها أن تكف عن البكاء فكفت. قلت لها آمراً. . من يظنني سليمان. . يسيء فهمي هذا الملك العظيم ويتصور أنني ألعب، سأحاسبه على رأيه في أفضل جنوده. نفشت صدري وقلبي يرتعش من الداخل.

سكنت هيدان واطمأنت من وثوقي. . ومضيت بتراب السفر نحو قصر سليمان. مضيت وقد تنازعتني الاحاسيس المتضاربة المختلفة. . كنت خائفاً وحانقاً ويائساً وآملاً ومرعوباً وشجاعاً في نفس الوقت. قيل لي إن سليمان يأكل. وقد أمر ألّا يدخل عليه أحد

قلت للحارس: تنحّ عن طريقي فلم آت هنا لألهو أو ألعب. . معي أخبار لا تحتمل الانتظار لحظة.

لم يفهم الحارس ما قلته له. لا يفهم لغتنا أحد غير سليمان. سمع النبي وهو يأكل صرخاتي الغاضبة فأمر أن أدخل عليه.

دخلت غرفة الطعام ووقفت في الطرف الثاني من المائدة بعيداً عن يده. . قلت لسليمان وهو لم يضع سكينه بعد:

﴿أحطت بما لم تحط به، وجئتك من سبأ بنبأ يقين﴾.

لم أكد أقول لسليمان «أحطت بما لم تحط به» حتى أحسست أنني دخلت التاريخ. من الذي جرؤ قبلي على قولها له. ومن الذي سيجرؤ بعدي على قولها له.

لا أحد.

إنني أقول لسليمان بنبرة هجومية: إنني أعرف ما لا تعرف.

هي جرأة دفعني إليها اليأس والخوف. كنت مضطرا لهذا الأسلوب. أفضل طرق الدفاع أن تبدأ بالهجوم. يعلم الله ـ خالق سليمان وخالقي ـ أنني كنت أرتعش من الداخل وأنا أقولها له. وضع سليمان سكينه في الطبق الذهبي وانحنى على المائدة وأطلت من عينيه نظرة دهشة. عدت أقول له قبل أن يفيق من دهشته:

﴿إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾.

كان سليمان يتابع ما أقول بدهشة في البداية، ثم بغضب، ثم بدأ على وجهه الاهتمام. أدركت أنه يصغي بعمق. قلت أستغل طوق النجاة الممدود فانشأت أتحدث ﴿ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾.

كانت هذه الجملة الأخيرة أصلاً من كلمات سليمان التي يقولها للناس وهو يدعوهم إلى الله. وقد وجدت المقام مناسباً للاستشهاد بها في حديثي عن سبأ. انهيت كلامي وانتظرت.

نكس سليمان رأسه، وزوى ما بين حاجبيه، وراح يفكر.. وساد صمت. ارتفعت دقات قلبي حتى خيل إلي أنها تملأ فراغ القاعة الهائلة وتكاد تزحزح الجدران من مكانها.. أخيراً رفع سليمان رأسه وتحدث قال ﴿سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾.

أحسست أن ضغط دمي يعود لحالته الطبيعية.. لقد نجوت مؤقتاً.. أنشأت أتحدث بسرعة. قلت لسليمان كل ما جمعته من المعلومات عنها.. حدثته عن عرشها الهائل الذي يعتبر تحفة فنية من تحف الصناعة الذهبية. حدثته عن معبد الشمس الذي يقيمون فيه شعائرهم ويسجدون.

حدثته عن عدد قوات المملكة والجيش واستعداداتهم، باختصار، وضعت أمام ذاكرته كل ما جمعته من المعلومات.

أمر سليمان باحضار ورقة وقلم.. كتب شيئاً في الورقة ثم أغلقها ومدها إليّ. وقال:

﴿إذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون﴾ طرت من نهاية المائدة والتقطت كتاب سليمان بمنقاري ولويت عنقي وتهيأت للرحيل..

تحسست الخطاب بمنقاري وقلت لسليمان:

ـ سيدي القائد..الرحلة طويلة وتيارات الهواء في أعالي الجو قد تمزق ورق الخطاب. اقترح أن نضعه في غلاف ذهبي يقيه الهواء.

أمر سليمان بصنع غلاف من الذهب للخطاب. وأمرني أن أحضر في الصباح لاستلامه والقيام بالمهمة.

كانت أمامي ساعات كاملة حتى يجيء الصباح.. خرجت من قصر سليمان مزهواً أحس أنني نجوت.

سألني مدير مكتبي (العصفور) ـ ماذا حدث يا سيدي الهدهد. أراك قد نجوت. قلت بكبرياء أوقفه عند حده ـ اهتم بعملك أنت. هل رأيتني مهدداً لتقول إنني نجوت.

سألتني هيدان بلهفة ـ ماذا قال لك سليمان وماذا قلت له؟

قلت لها برصانة ـ هذه أسرار أمن عليا فاهتمي بريشك المزق.

مررت على أعدائي جميعاً. مررت على الشامتين بنا، كان الأسد قد قال كعادته كلمة رديئة في حقي حين تحدث سليمان عن ذبحي.. قال الأسد بعد أن غادر سليمان الخيمة: الهدهد فعلاً يستحق الذبح.

ها قد جاءت فرصتي لأرد له تحيته ..

سألني الأسد بصوته الجهوري السوقي ـ أين كنت يا مارهالا؟. قلت للأسد: متى كان قادة المخابرات يحدثون الجند أين كانوا.. أنت جندي أيها الأسد.. أنت مجرد قوة يوجهها عقل آخر..

أهتم بشؤونك وستعرف حين تصدر اليك الأوامر بالحركة أين كان مارهالا. كنت أختال مزهواً وقد أغلقت فمي تماماً. لم أقل لأحد ولم يعرف أحد ماذا دار بين سليمان وبيني. تركت كل واحد يحفر في ذاكرته ويجهد نفسه. ومضيت صامتاً يحف بي جو من الغموض والخطورة. قلت لكم إن مهنة المخابرات مهنة شاقة.

انتهى غلاف الخطاب فحملته وطرت به إلى سبأ. دخلت غرفة نوم الملكة ووقفت على أحد النقوش البارزة في السقف وأسقطت الخطاب عند رأسها. استيقظت بلقيس.. عيناها جميلتان حقاً.. ولكنها تعبد الشمس للأسف. فتحت الملكة الخطاب وقرأته. رأيت من مكاني في السقف أن قلبها يدق بعنف. لا أعرف حتى الآن ماذا قال سليمان لها. دقت ناقوساً إلى جوار فراشها فحضر ثلاثة من الخدم، أمرت بعقد اجتماع للوزراء وممثلي الشعب على الفور. راحت تتلفت حولها لتعرف من أين جاءها الخطاب.. التصقت أكثر بالسقف كي لا تراني. دخلت هدهدتي السبئية الحجرة.. طارت نحوي وهي تبكي وتصرخ.

ـ أين أنت يا مارهالا.. دخت عليك يا حبيبي فأين أنت. ماذا تفعل في مخدع الملكة. هل تبحث عني هنا.. ما الذي جاء بك بهذه السرعة. هل حللت المشكلة العائلية؟

قلت لهدهدتي بحسم ـ أصمتي قليلاً فإن وراءنا عملاً أهم.

ألقت الهدهدة بنفسها عليّ وراحت تقبلني. ونظرت بلقيس إلى السقف فرأتنا معاً.. تأملتنا قليلاً ثم نهضت مسرعة تأخذ حمام الصباح. كان واضحاً أنها مشغولة تفكر في خطاب سليمان.

مكثت في سبأ يومين. وعدت طائراً بأقصى ارتفاع وأقصى سرعة. وجدت سليمان يتفقد جيشه.. قلت له: هل تمد إليّ يدك أيها الملك لأقف عليها فإنني مجهد من الطيران.

مد إليّ سليمان يده فوقفت عليها. سألني عما تم في أمر رسالته. قلت له ألقيتها على الملكة. فاستدعت على الفور وزراءها ورجالها وممثلي شعبها و.. ﴿قالت يا أيها الملأ إني ألقي إليّ كتاب كريم. إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين. قالت يا أيها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون. قالوا: نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين. قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون، وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون﴾.

سألني سليمان ـ ما هي ملاحظاتك الخاصة على ما حدث.

قلت ـ أعتقد أن الشورى عندهم صورية.. فإنها سألتهم رأيهم فحدثوها عن قوتهم ثم فوضوا إليها الأمر في النهاية. هم قوم بلا رأي. ثم إنهم يتصورون أنهم يحاولون شراء سكوتك بهدية. ضحك سليمان طويلاً فاستراحت أعصابي.

وصل رسل بلقيس يحملون هديتهم. كنت أول من عرف الخبر، أنبأتني هداهد الاستطلاع بكل شيء، هناك هداهد طائرة في الجو طوال الليل والنهار. هؤلاء هداهد مخابرات يتبعونني ويعملون تحت أمرتي.. قسمت العمل فيها بينهم ليحملوا إليّ أي خبر عن أي قدم غريبة تدب في

المملكة. عرفت أوصاف الهدية منهم وحدثت الملك سليمان عنها وأنا أقاوم الضحك. كانوا فرحين بهديتهم يتصورون أنها شيء عظيم. كانت الهدية بالنسبة إلينا.. أقصد بالنسبة لسليمان.. شيئاً عادياً، أخلط كثيراً بين سليمان وبيني هذه الأيام، وذلك شيء خطير. أعترف بذلك. قابل الملك سليمان رسل بلقيس وهو جالس على عرشه وحوله أسود من الذهب وأسود حقيقية. تثاءب أحد الأسود الحقيقية فحدثه سليمان بلغته أن يكف عن التثاؤب، وسأله أين كان يسهر ليلة الامس. كان هذا هو الأسد السمج الذي لا يكف عن ازعاجي. قلت لسليمان: إن الأسد كان يغازل انثى جديدة ألحقت بسلاح الأسود.. أعتدل الأسد في وقفته وشد صدره لأعلى ثم زأر معتذراً. أغمي على رئيس وفد بلقيس من المفاجأة وكان عجوزاً شيخاً لم ير في حياته أسداً حقيقياً. رفض سليمان هديتهم وأفهمهم أنهم يخطئون لو حاولوا شراءه بالذهب. أشار إلى ذهب الحيطان والأرض والتماثيل وأفهمهم أنه لا يطلب سوى اسلامهم.

هددهم سليمان بالغزو.. يعجبني سليمان في إيجاز عبارته الدال على قوته. إنه لا يهوش ولا يعمد إلى التضخيم شأن الضعفاء.. تغنيه قوته عن ذلك. دعوني أذكر نص عبارته لرئيس الوفد بعد أن أفاق: ﴿فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون. ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ انصرف الوفد وقد لمعت وجوه أعضائه بعرق الخوف البارد. وجلس سليمان مطمئناً واثقاً.

مرت الأيام.. عاودت حياتي الطبيعية ونجا عنقي من الذبح وظهر صدقي. مشكلة المشاكل بالنسبة للمهمين من أمثالي الهداهد، إنهم مهددون بالذبح في أي وقت.. إمَّا قمة المجد أو سيف سليمان على الرقبة.. ليس هناك حل وسط في الموضوع، هذه هي السمة البارزة في حياة العظماء. يعيشون دائمًا وسط الخطر. أعرف هدهدا متوسطاً في كل شيء. يعيش في أمان مطلق.. لكن أحداً لم يسمع باسمه، بينما أنا.. لا أريد أن أتباهى.. يعلمنا سليمان التواضع الشديد ويقول لنا دائمًا: إن العظمة الحقيقية تكمن في التواضع، لأن الله سبحانه هو الذي يملك وحده حق الكبرياء، إن قوته تستند إلى قوته، أما البشر الفانون والهداهد الفانية وكل ملوك الأرض وحكامها الفانون، فهؤلاء يعطيهم الله، ولو شاء لامسك عطاءه عنهم فضاعوا.. كيف يفخر الانسان أو الهدهد بذكائه أو منصبه أو ثرائه أو قوته، إذا كانت القوة والذكاء والمنصب والثراء كلها ليست ملكاً لنا، وإنما هي عارية مسترجعة وقرض مسترد. يجب ألا أفخر أو أتيه أو أتكبر.. ها أنذا أخفض رأسي وأفرد اجنحتي وأصلي.. الحمد لك يا رب.. خلقتني هدهداً ذكياً وكان يمكن أن تخلقني هدهداً غبياً. وخلقتني في مركز عظيم وكان يمكن أن تخلقني في مركز بسيط.

وخلقتني أصلاً وكان في قدرتك ألا تخلقني أساساً.. لك الحمد. لك المجد. لك الكبرياء لك الملك. لك الحكم.

اللهم إن القضية توشك على الانتهاء فانصرني فيها. أريد أن أكون سبباً في إسلام الناس يا رب.

كان الملك سليمان يجلس على عرشه وحوله وزراؤه وقادته من الجن والأنس، والطيور

والوحوش، حين التفت إليّ يسألني فجأة: ما أهم شيء لفت انتباهك في مملكة سبأ؟

قلت: عرش الملكة، وإحساس الناس بأنهم متقدمون في فنون البناء والتشييد والصناعة والنحت.. تركني سليمان وأدار بصره في وزرائه وقادته ورجاله، أحياناً لا أفهم سليمان، أحياناً تبدو أسئلته غريبة، غير أن تقدم الوقت بي يجعل أشد اسئلته غرابة يتكشف فيها بعد عن حكمة عظيمة.. تكلم سليمان فجأة.. ﴿قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين. قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وإني عليه لقوي أمين. قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك. فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾.

شاهدت بنفسي ما حدث.. وأعترف أنني ذهلت. أن عرش بلقيس كان قاعدة من الفضة المطعمة بالذهب. وكان كرسياً من الذهب المطعم بالفضة، وكان حائطاً عليه رسم الشمس، صنع كله من الذهب والفضة، كان الغطاء النقدي من الذهب والفضة لمملكة سبأ موضوعاً كله في العرش. وكان العرش ثقيلاً، يزن ما يقرب من عشرة أشجار ثقيلة، وكان بعيداً مسافة طيران يوم كامل من هدهد سريع مثلي.. ورغم ذلك جاء العرش. امتحن سليمان رجاله فقال العفريت إنه يستطيع احضاره قبل أن يقوم سليمان من مقامه، وكان سليمان يقوم من مكانه بعد ساعتين.. وقال الذي عنده علم من الكتاب إنه يستطيع احضاره في لمح البصر.. في اللحظة التي بربش فيها سليمان بعينه كان العرش أمامنا..

أعرف أن الناس ستسأل: من هو الذي عنده علم من الكتاب؟.. ما اسمه؟.. وكيف أحضره؟.. وأي كتاب هذا الذي يمنح هذه القوى الهائلة؟.. وأعتقد بيني وبين نفسي أن هذه أشياء تخص سليمان وحده.. المهم في القصة وجود مخلوق بهذه القدرة في مجلس سليمان.. مخلوق ليس نبياً ولا ملكاً.. مخلوق عنده علم من الكتاب.. شيء آخر غير كتاب الجن.. فإن عفريت الجن كان سيحضر العرش في ساعتين.. لن أقول اسم من أحضر العرش، ولن اتحدث عن كتابه.. من لا يرى قدرة الله فيها حدث ويكتفي، ويسأل أسئلة فضولية لا يستحق عناء المناقشة.. ثم إنكم تنسون أنني رئيس المخابرات في جيش سليمان.. تنسون أن مهمتي الأولى هي كتمان السر بعد معرفته.

وأنا أعرف من الذي أحضر العرش.. أعرف كيف أحضره.. لكن عبثاً تنتظرون أن أحكي.. لن أقول أبداً.. من يدري ربما وقعت هذه المذكرات في أيد غريبة.. ليقل سليمان إذا كان يريد أن يقول.. أما أنا فاني أغلق منقاري على السر وأصمت..

أمر سليمان بتنكير عرشها.. أمر بتغييره.. أمر بوضع الأحجار الكريمة والماسات واللآلىء في أماكن غير مكانها الأصلي حول قرص الشمس.

لم أفهم لماذا يفعل سليمان ذلك.. أحياناً لا أفهم سليمان.. أمر أيضاً ببناء قصر على البحر.. كان الأمر يقضي بأن يكون القصر ممتداً بنصفه في البحر.. أمر سليمان بأن تصنع أرض القصر من الكريستال الشفاف، بحيث يرى السائر في حجرة الطعام مثلاً قاع البحر بأسماكه

الملونة وأحيائه المائية. . أمر أن تصنع الجدران من خشب الصندل المعطر، وأن تصنع الأسقف من الزجاج الملون الـــذي يمسكه الذهب بحيث تسقط أشعة الشمس على السقف فتنهار إلى ألوانها السبعة الأصلية وتلون الحجرة، وبذلك تستخدم الشمس خادماً للانسان كما خلقها الله. . أمر سليمان أن يتم بناء القصر في أقل من الفترة التي يستغرقها وصول بلقيس من سبأ إلى مكاننا. . انتهى بناء القصر. فأمر سليمان أن يوضع عرش بلقيس بعد تغييره وتنكيره وإخفاء معالمه في قاعة الاستقبال في القصر. . أمر أن تفتح الجدران أمام العرش، بدأت أفهم تصرفات الملك سليمان. . إنه لا يريد أن يناقش بلقيس كثيراً. . يريد منها أن تفهم حين ترى ملكه ومجده، وتقارن ملكها الصغير المتواضع به، يريدها أن تفهم أن عبادة الشمس أو عبادة أي مخلوق آخر، لا يمكن أن تؤدي للنجاح أو التقدم، وإن أدت لما يشبه النجاح والتقدم.

لا يتقدم إلا من يسلم وجهه لله أولاً. . ثم يأخذ بأسباب العلم ثانياً.

أدركت ذلك وصدقت الأيام ظني، وأسلمت بلقيس مع سليمان لله رب العالمين.

﴿قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون. فلما جاءت قيل أهكذا عرشك، قالت كأنه هو. وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين، وصدرها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين. قيل لها إدخلي الصرح، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها. قال إنه صرح ممرد من قوارير. قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾.

لم تكد تقولها حتى وقفت أمام الملك سليمان. . صفقت بأجنحتي وقلت:

- سيدي سليمان الحكيم. . ربحت لك القضية. وأنقذت نفساً انسانية من دمار الهلاك. وأنقذت معها شعبها من غباء عبادة غير الله. .

قال سليمان: ماذا تريد يا مارهالا؟. . أنا راض عن عملك.

قلت: أين مكافأتي؟

قال: اختر ما شئت من أمرين، أن نزيد مرتبك، أو نعطيك وسام الهداهد من الدرجة الأولى.

قلت: لا يكفيني الأمران معاً. . أريد أن أدخل التاريخ.

قال: سأعطيك اسمي. . سنسميك هدهد سليمان.

تساءلت: ألست هدهد سليمان.

قال سليمان: أنت هدهد سليمان. . لكنني سأعلن في أرجاء الأرض جميعاً نسبتك إليّ.

قلت لسليمان: لا تسعني الدنيا كلها يا سيدي. . لكنني أطمع فيما هو أكثر. .

قال سليمان دهشاً: ماذا تريد يا مارهالا.

قلت: أريد أن يمتد ذكري في التاريخ. . أريد أن يسمع الملايين عن هذه القضية. . أريد أن يعرفني الناس بعد موتي ابتداء من اليوم إلى يوم القيامة.

قال سليمان بوداعة: ليس هذا بيدي يا مارهالا. . هذا أمر يملكه الله وحده. .

قلت: أعرف ذلك أيها النبي العظيم.. أعرف.. لكنك تملك أن تدعو الله أن يخا على الزمن.. رفع سليمان رأسه وسألني فجأة:

ـ مارهالا.. أيكون الغرور قد أصابك. أتكون قد ظننت نفسك شيئاً..

قلت بجرأة: ليس الغرور أيها النبي هو مشكلتي.. أريد أن يعلم الناس أن متواضعاً بسيطاً كان سبباً سخره الله تعالى لإسلام أمة كاملة.. هذا حقي أيها النبي.. ومجدي في نفس الوقت.

تبسم سليمان ومد يده وربت على رأسي ودعا الله أن يعطر ذكري على امتداد الزمر القيامة..

انتهى سليمان من دعائه لي..

انحنيت على يده التي تربت على رأسي وقبلتها..

صرفني بإشارة من يده.. قلت وأنا أتهيأ للإنصراف:

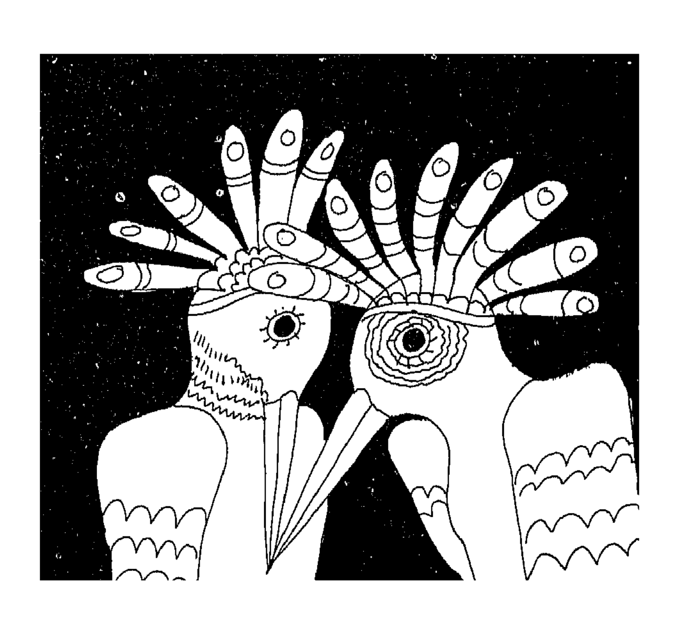
ـ أعرف أن الله يستجيب دعاءك أيها النبي العظيم.. لكنني أفكر دهشاً كيف يمت في التاريخ حتى يوم القيامة.. أي كتاب هذا الذي يعيش إلى يوم القيامة؟.

قال سليمان: مثلك أنا يا مارهالا لا أعرف الغيب.. سألتني أن أدعو الله لك فدعو صدقني.. لست أعرف كيف يحقق الله دعوتي..

مثلك تماماً تنتابني الدهشة من هذا الكتاب الذي يعيش إلى يوم القيامة..

أي نبي يكون صاحبه؟.

لست أعرف يا مارهالا.. هذا كله غيب لا تدريه ولا أدريه مثلك..

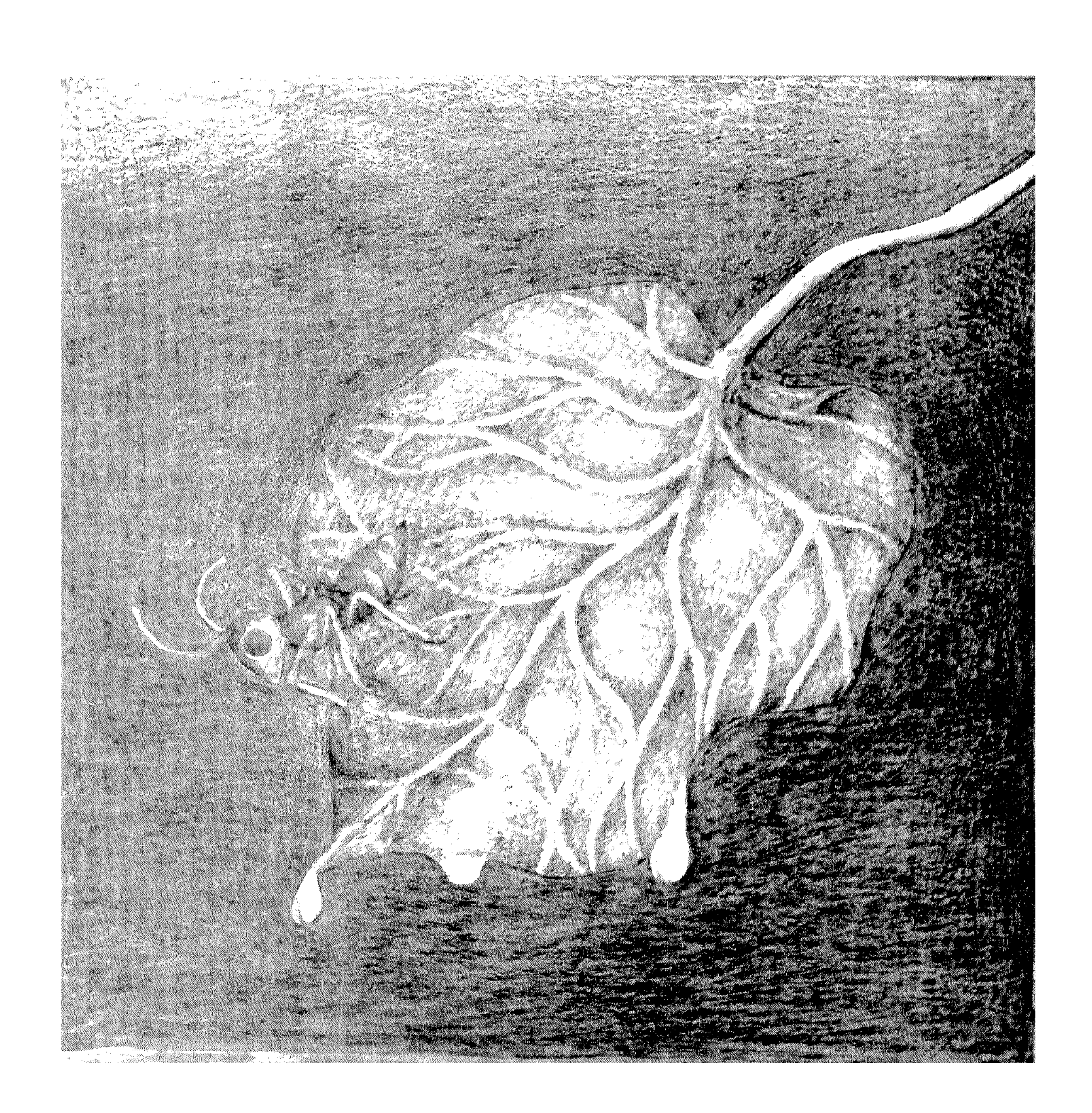


نملة سليمان

﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ: يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

(سورة النمل ـ آية ١٨)

أعرف لماذا خلق الله النمل بوصفي نملة..
ولكنني فشلت أن أعرف لماذا خلق الله الإنسان..
هذا المخلوق الغريب المدهش... وأحياناً هذا المخلوق المزعج..
يسير هكذا بلا مبالاة.. يطأ بأقدامه مئات من جيوش النمل.
يحطم بخيله آلافاً من النمل..
دون أن يحس أو يشعر..
دون أن يعرف أو يدري..
دون أن يدرك..
دون أن يلاحظ.. دون أن يفهم.. دون أن يغضب أو يحزن..
أي قسوة تنطوي عليها اللامبالاة حين لا ترى ولا تسمع..
أي قسوة..
نحن نحمل حبة الأرز في نصف يوم كامل..
ليست حياتنا سهلة..
أحياناً نعثر على قطعة من السكر.. ويجتمع مجلس الخبراء الأعلى في الأمن الغذائي..
ـ هناك بعض فتات السكر
ـ أين؟
ـ على بعد ألف مسيرة نملة من شجرة التفاح..
ـ كم نملة تلزم لنقلها؟
ـ عشرة آلاف.



ـ احشدوا جيشاً من خمسين ألف نملة . .

لماذا نسرف في حشد جيوش النمل . .

لأن الإنسان يسرف في تحطيمنا دون سبب أو مبرر، لا أريد أن أسرف في الحديث . . المفروض انني نملة . . والنملة شيء صغير . . حشرة صغيرة، والاختصار جزء من طبيعتنا، والحكمة جزء من طباعنا، وما قل ودل هو شعارنا في الحياة.

ورغم أن حجمنا لا يتجاوز ملليمترين . . إلا أن الله الرحيم الكريم عوضنا عن صغر الحجم وضعف الجسد بموهبة التنظيم والإدارة وإجراء الحسابات الدقيقة.

نحن لا نؤخذ على غرة، لا تدهمنا المفاجأة . . نؤمن بقضاء الله وقدره، ونعرف أن كوباً من الماء يستطيع إغراق جيش من النمل . . ولكن إيماننا بالله لا يمنعنا من إجراء حسابات وعمل دراسات للجدوى وتنظيم كل شيء وإدارة كل شيء باحكام . . بل إننا نفهم أن الإيمان بالله يقتضي هذا ويستوجبه . . فإن للكون قوانين لا تنكسر لأحد ولا تخرج على طبيعتها لمخلوق . . لا أريد أن أطيل عليكم . . كنت نملة من نمل الحراسة في وادي النمل . . هل تعرفون أين يقع وادي النمل؟ .

أنتم لا تعرفون أين يقع وادي النمل . .

هذا أفضل . . من الأفضل أن تخبيء المخلوقات الصغيرة أوديتها حرصاً على حياتها، إن الظن السائد ان ضآلة حجم المخلوقات يوشك أن يكون سبباً في هلاكها، ووسط غابة الحياة الدنيا، إما أن تكون ذئباً أو تأكلك الذئاب، وإما أن تكون نمراً أو تأكلك النمور، أليس هذا ما يقوله البشر؟ ماذا يفعل النمل في الدنيا إذن وهو يكاد يكون أصغر الخلائق . . ؟

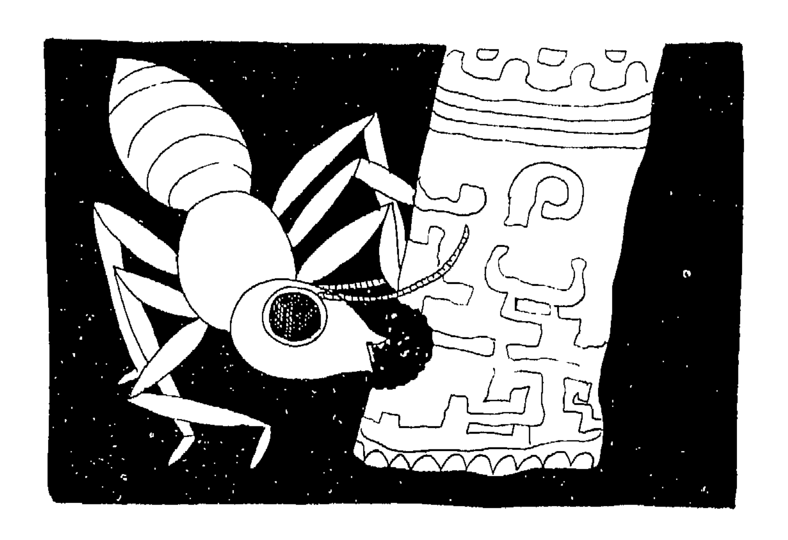
إن رحمة الله تعالى أجابت على السؤال فلم تعد لنا حاجة أن نصير ذئاباً لكي لا تأكلنا الذئاب . .

لقد زودنا الله تعالى بحياة مدهشة، وليست هناك كائنات يبلغ التخصص فيها ما يبلغه من الدقة في عالم النمل . .

إن النمل لا يعيش وحيداً، إنما يعيش في مستعمرات يبلغ عددها مئات الألوف، وتقسيم العمل بيننا قاطع وواضح، إن عمل الإناث مثلاً لا يمكن للذكور القيام به، وعمل الشغالات لا يمكن لغيرهم أن يؤديه، ومدننا تقع تحت الأرض . . وهي مدن تتصل بشبكات معقدة من الطرق التي يستحيل على غير النمل أن يسير فيها، ونحن نبني مدننا تحت الأرض على أعماق تكفي لابعاد أي خطر محتمل . .

ونحن ثلاثة أنواع . . الإناث والذكور والشغالات . . وكل جنس منا يولد وهو يعلم وظيفته تماماً، وليس هناك من يعلمنا كالبشر، نحن نتعلم مباشرة من الله، تلقت أول نملة خلقها الله كل علم النمل، وورثته للأحفاد، لا تكاد النملة منا تولد حتى تعرف الجنس الذي تنتمي إليه، وتبدأ على الفور بإداء كل واجبات هذا الجنس . .

لا نتضرر . . ولا نطمح ولا نطمع ولا نحلم . .



لا تنبت لنا أجنحة إلا عندما نحب. . في موسم التزاوج وحده تنبت لنا أجنحة، وما يتصوره الناس انه جنس خاص من النمل الطائر ليس في الحقيقة إلا الذكور والإناث في موسم الحب. . وعندما ينتهي الموسم يسقط الذكر على الأرض ويموت، لقد انتهت مهمته ولم يعد لحياته معنى، وبموت الذكر تبدأ مهمة الأنثى. . تقرض أجـنحتها لأنها لن تحتاج إليها مرة أخرى، ثم تقوم بعمل عشها في الأرض وتبيض، وهذا العش الصغير هو الذي سيصير فيها بعد مستعمرة من مستعمرات النمل، وهي مستعمرة يمكن أن تصير مستعمرات وتتحول إلى وادٍ من أودية النمل. . ويقع هذا الوادي فوق الأرض وتحتها. . ويضم مساكن لكل فرد فيه، ويضم الأنواع اللازمة لإقامته، ويضم نسبا محددة لكل نوع من الأنواع فيه، ومن الأسرار التي لم يكتشفها العلماء عنا بعد، ولا أظن أنهم سيكتشفونها، السؤال التالي. .

لماذا ينمو النمل ويعطي أجناسه المختلفة من ذكور وإناث وشغالة بإعدادها المحددة؟

لماذا تبيض النملة الأم بيضاً يفقس عن شغالات. . ولماذا تنمو هذه الشغالات بحيث توفر للنملة الأم أن تتفرغ بعد ذلك لوضع ملايين البيض بقية عمرها. .

ولماذا تبيض الأم الذكور بعد ذلك، ولماذا تبيض الإناث بعد ذلك. . ولماذا تختار هذا العدد المحدد من الذكور وهذا العدد المحدد من الإناث، بحيث يكفي مجموع الاعداد لاستمرار الحياة وانتظامها بشكل مدهش. . هل تحسب النملة الأم وهي تبيض كل هذه الحسابات التي لا يستطيع أي عقل بشري أو الكتروني أن يقوم بها. . هل تفعل النملة ذلك؟.

إن البشر لا يستطيع التحكم في نوع الجنين، ولكن النمل يفعل هذا بمنتهى البساطة. . ويفعله دون أن يعرف أنه يفعله. .

ولسوف يقف العلماء أمام هذا السر المثير لعالم النمل، وسوف يظل السر غامضاً عليهم، وأنا لا أعرف جواب هذا السر. .

سأكتفي بالقول أن الله الرحيم الكريم قد علم قبل خلق النمل ما سوف نلقاه من البشر، وعلم الله تعالى إن قدم طفل من أطفال الآدميين تستطيع أن تقتل ألف نملة دون قصد لو سارت في مستعمرة للنمل.. ولهذا السبب زودنا الله بما لم يزود به البشر، وهدانا لما لم يهد إليه البشر، ومنحنا أسلحة تعين على البقاء في عالم لا يهدأ فيه صراع البقاء لحظة.. أحدثكم الآن عن نفسي قليلاً.. ولدت نملة شغالة.. نملة كادحة.. نولد على هيئة البيض، ثم نصير يرقات، ثم عذارى.. ثم نعرف بعد ذلك جنسنا الذي ننتمي إليه..

عندما فقست البيضة التي كانت ملاذاً لي غسلت الأم اليرقة بلسانها وقدمت إليّ الطعام الذي اختزنته في معدتها وقامت بحمايتي من الأذى حتى كبرت.. بعد أن كبرت أدركت انني نملة من نمل الحراسة..

إن النمل من الشغالات يعمل في مهام كثيرة.. هناك خدم لتنظيف المستعمرات، وهناك جند لحماية المستعمرة، وهناك شرطة للحراسة، أنا من شرطة الحراسة.. قائدة في شرطة الحراسة..

راقبت في بداية الحراسة مستعمرتنا التي كانت تنمو ببطء مثير ولكنه يشبه القانون في ثباته وتقدمه..

راقبت الشغالات اللائي يقمن بمهمة المرضعات للصغار، راقبت الشغالات اللائي يحلبن بقر النمل.. نعم.. نحن نحلب حشرات المن التي تصنع رحيق العسل، مثلما يحلب الآدميون البقر.. راقبت البنائين من الشغالات وهن يحفرن أنفاقاً ومساكن تحت الأرض.. كنت مسؤولة عن الأخطار الخارجية.. وهي تتلخص في كلمات متعددة أخطرها هي البشر..

نعم...

هناك مئات الأخطار التي تهدد النمل من قوى الطبيعة، وأول هذه الأخطار هو المطر، نحن مخلوقات لا تعرف السباحة في الماء، نحن نغرق في الماء، ولا يكاد البرق يبرق ويرعد الرعد من بعده حتى نطلق صرخة التحذير ونعلن حالة الطوارىء ويهرع النمل جميعاً إلى مساكنه تحت الأرض.

ونرقب نحن شرطة الحراسة الموقف من مناطق بعيدة عن المطر ولكنها أقرب إليه من بقية مساكن النمل.

عندما ينتهي المطر لا نهرع إلى سطح الأرض، نظل في مساكننا نرقب الموقف، وننتظر ظهور الشمس.. والشمس مخلوق غريب لم يره واحد منا قط، ولكننا نشعر بوجودها لأنها تأكل أعظم الأخطار التي تهددنا، إن الشمس تأكل الماء..

لا تكاد الشمس تظهر في مكان فيه ماء حتى يبدأ أمر مثير لا ندريه نحن، ويتمثل هذا الأمر في أن الشمس تشرب الماء.. إن الماء يختفي حين تظهر الشمس.. أين يذهب. هل يتبخر؟ ما معنى ذلك؟ إننا نفاجأ دائماً بعد ظهور الشمس ان البحيرات التي صنعها المطر تختفي وهذا السر يحيرني كثيراً حين أتأمل الأشياء في أوقات فراغي من الحراسة.. لم أفهم.. لم أعرف.. لم أدرك.. هكذا مضيت أسبح الله تعالى وأنا أعلن عدم فهمي أو معرفتي أو إدراكي لحكمته..

كل ما أعرفه ان الله رحيم بالنمل، ومن آيات رحمته فعل الشمس في المياه، ولكن كيف تفعل الشمس ما تفعله في المياه؟.

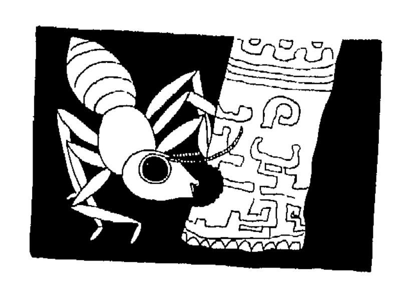
هذا سر اعترف بعجزي عن حل غموضه.

بعد المياه في الخطورة يجيء الإنسان.. الإنسان يدمرنا ويقتلنا ويسحقنا وهو لا يحس.. وهو لا يشعر..

لماذا لا يحس الإنسان..؟ لماذا لا يشعر؟

إجتمع النمل آلاف الاجتماعات وبحث هذا السؤال، كانت النتيجة أن الإنسان يسحقنا بأقدامه لأنه لا ينظر في الأرض وهو يسير، إنما ينظر أمامه أو خلفه أو حوله ولكنه نادراً ما ينكس رأسه.. ما أشد كبرياء هذا المخلوق المسمى بالإنسان..

لو انه نظر تحت أقدامه لما وقعت الكوارث التي وقعت خلال تاريخ النمل الطويل.



أعترف انني صادفت في حياتي الطويلة بشراً أو إثنين من البشر كانا يسيران وهما ينظران في الأرض. كانا عابدين زاهدين لله، وكان تواضعهما يأخذ شكل رحمة تمتد آثارها إلى النمل. لا أعرف اسم الرجل الثاني، ولكن اسم الرجل الأول كان هو النبي الملك سليمان الحكيم.

عرفت سليمان الحكيم لأن معرفته كانت جزءاً من مهمتي في الحراسة.. وحراسة أودية النمل لا تقع داخل أودية النمل ذاتها، هناك حراسة ثابتة لنمل يأخذ مواقع داخل المستعمرة، وهناك حراسة متحركة تدب بعيداً عن المستعمرة وترصد أي تحركات يمكن أن تؤثر على وادي النمل..

كانت حراستي من هذا اللون..

تحركت أدب ذات يوم.. سرت طويلاً طويلاً فقطعت ما يسيره الإنسان في دقائق، لم أشعر باليأس ولا أحسست بالكراهية تجاه جنس الإنسان. ميزة النمل إنه صغير الحجم كبير في تصرفاته..

نعم.. أعترف انني نملة حكيمة، والحكمة أفضل من الثراء بما يصاحبه من غرور وأفضل من الفقر بما يتبعه من كراهية..

سرت أدب. . خطوة بعد خطوة. . نسبح الله ونحن نسير. . وأحياناً نتوقف ونغير إتجاهنا ونسير خطوة ثم نعود إلى مسارنا الأصلي، هذا الذي يراه البشر عجيباً في تصرفات النمل له حكمة. . نحن نسبح الله في الاتجاهات الأربعة. .

وحيثما نولي فثم وجه الله تعالى.

أعرف ذلك. . وهذه هي المعرفة التي تنبع منها شجرة الحكمة، صادفت شجرة بعد سير طويل. . صعدت إلى الشجرة. . وقفت. . نظرت. . سبحت الله واستدرت ونظرت. .

تجمدت نظراتي كما يتجمد النمل إذا سار فوق العسل. . دهمني خوف مفاجىء. .

كان هناك ألف ألف خطر لم يسفر عن وجهه بعد.

كان هناك جيش رهيب يتجمع. . لم يكن هذا الجيش عادياً، ولا كان كجيوش هـذا الزمان. .

الأصل أن يكون الجيش جنوداً من البشر. . إن جيش النمل جنود من النمل. . فقط. .

لم يكن ما أمامي جيشاً من البشر. .

كان هناك جيش من الجن والأنس والطير.

﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن والأنس والطير فهم يوزعون﴾ صفوف لا نهاية لها من البشر، وصفوف لا نهاية لها من الحيوان، وصفوف لا نهاية لها من الطير. . ورياح تتجمع ويبدو أنها مسخرة لهذا الجيش، ثم صفوف من الجن. . والجن مخلوقات غير مرئية. . نحسها نحن النمل ولا نراها، ولا نشغل أنفسنا بها، ملأتني الرهبة حين شاهدت جيش سليمان. .

لو سار هذا الجيش في وادي النمل فهذا معناه ان وادي النمل سوف يهلك. . سوف يتحطم. . وسيتم هذا بغير أن يشعر الجيش. .

نزلت من الشجرة. .

أسير بسرعة الخطر. . هذه هي أقصى سرعة للنمل. . ولنا خمسة أنواع من السرعة هذه أقصاها. .

فتحت سرعتي على النهاية القصوى ونزلت من الشجرة. . كنت أطلق في نفس الوقت رائحة لها مدلولها في عالم النمل، ويعني إطلاق هذه الرائحة تحذير النمل وتجمعه فوراً على مشارف المستعمرة. . هرع كل النمل الذي كان يعمل خارج المستعمرة عائداً إليها على الفور. . وصلت إلى وادي النمل. .

كان هناك اجتماع طارىء للمسؤولين عن حراسة المستعمرة جمعتهم رائحة الخطر التي أطلقتها. .

وقفت أقدم تقريري لأعلى مسؤول في مستعمرة النمل. .

كان هذا المسؤول نملة صامتة ولكنها قديرة على اتخاذ قرار سريع في أقل من لمح البصر. .

قلت: هناك جيش قريب يتجمع. .

قالت النملة المسؤولة: كم عدد البشر؟.

قلت: ليس الجيش من البشر وحدهم. .

قالت النملة المسؤولة وهي تحك رأسها بيدها: ليس الجيش من البشر؟ قلت: هناك جيش من الجن.. والبشر.. والطير..

إنعقد اجتماع من أعلى المسؤولين في مستعمرة النمل، واستمر الاجتماع ثواني قليلة.. ولكن إجراءات الأمن صدرت لجميع النمل داخل المستعمرة وخارجها، كانت الأوامر الصادرة للنمل داخل المستعمرة أن يبقى في مساكنه وبدأت الشغالات في تهوية المساكن توطئة لاحتمال البقاء فيها فترة طويلة.

صدرت الأوامر للنمل خارج المستعمرة أن يعود بأقصى سرعة إلى مشارف المستعمرة.أقيم نظام مزدوج للحراسة الخارجية، تم إعداد كل أجهزة الإنذار في المستعمرة وكلفت أن أكون على رأسها لأطلق صرخة التحذير النهائية..

كان مكاني فوق تل صغير في أحوال الحراسة العادية، ولكن مكاني تغير في هذه الظروف الاستثنائية وصعدت على فرع شجرة ووقفت أنظر..

كانت نظراتي تتجه إلى الأفق.. طريق محدد عند الأفق.. طريق لا بد أن يسير منه جيش سليمان إذا أراد أن يعبر المنطقة.. لم أقف طويلاً.. بعد فترة من الوقت ظهرت صورة الجيش.. كانت صغيرة كالنمل من على البعد ثم راحت تكبر قلت: ﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾.

لم أكد أطلق صرخة التحذير حتى هرع النمل إلى مساكنه.. لم يدهشني ذلك.. وقع في نفس الوقت حدث آخر. أدهشني هذا الحدث كثيراً، توقف سليمان فوقف جيشه.

نظر النبي سليمان إلى الشجرة التي أقف فوقها وتبسم ضاحكاً. أدهشني ما حدث كل الدهشة.

أيمكن أن يكون هذا الانسان قد فهم ما قلته. إن ابتسامته تحمل مذاق العسل وتبدو مبطنة بالرحمة التي لا نحسها إلا من النمل تجاه النمل.

أحسست ان سليمان فهم ما قلت ولهذا توقف.

فوجئت به ينحني برأسهويقول: ﴿رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾.

أدركت أنه يخاطب الله ويصلي.

زادت دهشتي.

زاد هو من دهشتي حين التفت إليّ وقال يخاطبني بلغتي.. ـ لا تخافي.. لن يحطم الجيش وادي النمل.. سنميل في سيرنا بعيداً عن الوادي..

قلت له ـ وأنا لا أكاد أصدق سمعي ـ من أنت يا سيدي؟. إنك تتحدث لغة النمل.

قال ـ أنا عبد الله ونبيه سليمان.. أبي هو داود النبي، علمنا الله تعالى منطق الطير والحيوان

قلت له: أنت نبي وابن نبي؟.

قال: نعم..

قلت له: وتقول لله أدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ؟

قال نعم. . .

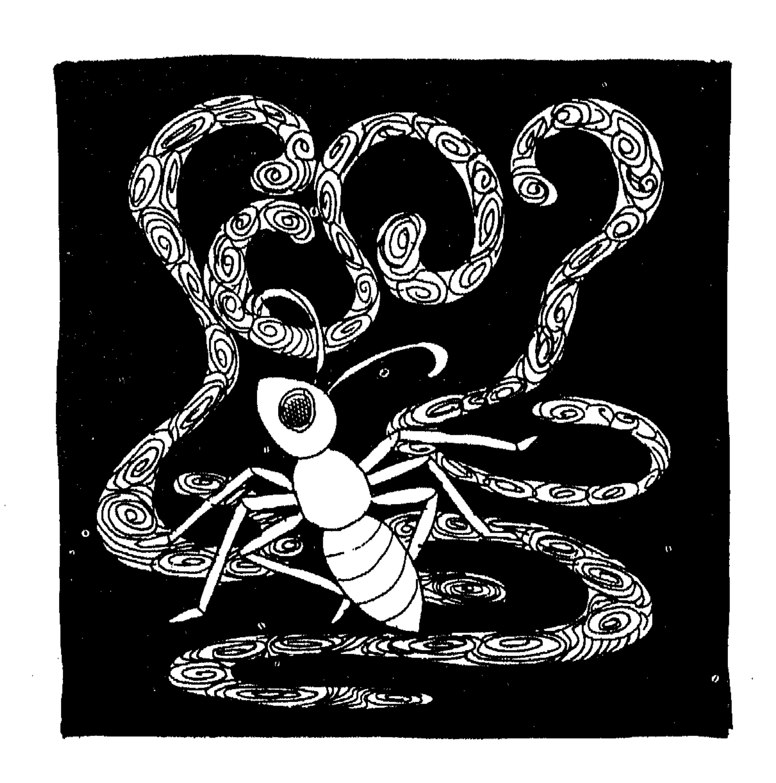
قلت له: ترى مقام العبودية أعلى من مقام النبوة؟.

قال سليمان: لا. . . ليس هناك مقامان أيتها النملة. . ذروة النبوة هي العبودية وهي المقام الأخير في شرف البشر. .

قلت له: أيها العبد الصالح. . سأدعو الله أن يدخلك برحمته في عباده الصالحين. . لماذا لا تدعو لي أنت ؟

قال سليمان وهو يبتسم: لا أعرف بماذا أدعو لك أيتها النملة، لكنني أحس بما يشبه الوحي ان الله تعالى سيجعل من كلماتك التي تحذرين بها النمل آيات يتلوها المؤمنون في صلاتهم. . . .

التفت سليمان إلى جيشه وقال: ميلوا عن وادي النمل وتقدموا.



دابة الأرض

﴿فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾.

(سورة سبأ آية ١٤)

أحكي لكم ما حدث.

كنا نسمع ونحن مجرد نمل نعيش في منازلنا، أنباء متفرقة عن علاقات الجن بالناس، وكنا ندرك، رغم عقول النمل الصغيرة، إن هذه العلاقات كانت سلاحاً للجن، لقد سخر الله الجن لسليمان، سخرهم له كجند من جنوده، وخدم في مملكته، إنهم يغوصون في أعماق البحار، ويعملون له ما شاء من القدور والقصور والبيوت في أيام، ويعبدون الطرق في ساعات، وتم هذا التسخير في عصر سليمان وحده ضد قانون قديم يقضي بانفصال طائفة الجن عن طائفة الناس.

وكان هذا التسخير معجزة لسليمان.. وآية من آيات ملكه. وشاهد الناس ما يفعله الجن من أمور خارقة يعجز عنها الآدميون. وكان المفروض أن يزداد الناس إيماناً بالله، وأن يزدادوا إدراكاً لقدرته سبحانه، ولكن الذي حدث هو انتشار الخرافة واستعلاء الوهم، ازداد الناس اعتقاداً في قدرة الجن.. حتى لقد قال الجهلاء إن الجن يعلمون الغيب..

لست أعرف ـ كنملة في حالها ـ من الذي أطلق هذه الشائعة المضحكة؟. إن أحداً لا يعلم الغيب سوى الله.. لا الجن ولا الأنس ولا الأنبياء ولا الأولياء ولا الملائكة..

إن الله هو الخالق، وما عداه ابتداء من الملائكة وانتهاء بالنمل.. مخلوقات.. فيها الجليل كالملائكة، وفيها العظيم كالإنسان.. وفيها البسيط كالنمل.. والغيب هو إرادة الله تعالى كما تنفذ في الأشياء. ولا يعلم هذه الإرادة غيره. وأي إنسان أو نملة.. سواء كان ملكاً على الناس أو ملكة على النمل.. لا يعلم الغيب.. قولوا لي: من الذي يستطيع أن يقول لنا.. ماذا سيحدث غداً؟

اعتذر عن هذه المقدمة البديهية، اعتذر لبداهتها، ولكني مضطرة لبداية حديثي



بها. . قلت إن إشاعة مؤداها ان الجن يعرفون الغيب قد انتشرت . .لست أعرف هل نشرها عفريت من الجن أو إنسان من الناس. . المهم انها انتشرت إلى الحد الذي صارت فيه قضية شبه مسلمة. وكنت أعرف ـ كنملة ـ ان الجن لا يعرف الغيب. غير انه قدر لي يوماً أن أكون. . أنا النملة البسيطة الضعيفة المتواضعة التي تطيرني أقل نفخة من فم الإنسان. . قدر لي يوماً أن أكون دليل الإثبات الوحيد في قضية عدم معرفة الجن للغيب.

إستطعت أن أثبت هذه الحقيقة.

المدهش. . انني فعلت ذلك دون أن أدري. . ودون أن أقصد. . كنت جائعة فلم أدرِ ماذا أفعل. وأكلت العصا.

عصا سليمان. .

أنا نملة من آكلات الخشب.

أريد أن أعود إلى الوراء قليلاً ليمكن أن نفهم. . بدأت معرفتي بسليمان من الأخبار التي كنا نسمعها عنه. .

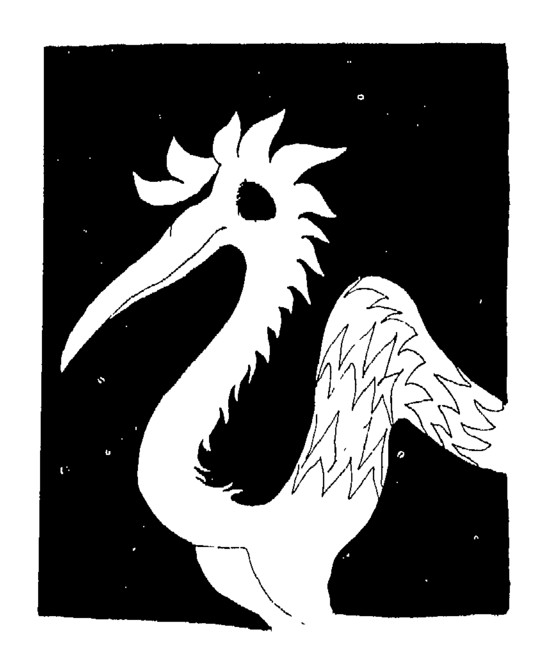
كان سليمان أشهر واحد على الأرض في عصره.

كان غنياً إلى الحد الذي كان يصنع فيه جدران معبده وسقفه من الأخشاب الثمينة المغطاة بصفائح الذهب. . وكنا نحلم. . كنمل يأكل الخشب. . أن ندعى يوماً لهذه الوليمة. غير أن وقوف الذهب في طريقنا إلى الخشب كان أمراً منغصاً للغاية. . لا أمل في هذه الوجبة إذن. . هي وجبة مستحيلة.

كانت هذه المعلومة هي أكثر المعلومات التي نعرفها عن سليمان كانت تتصل بحياتنا اتصالاً وثيقاً. كان سليمان حلمًا بالنسبة إلينا. حلمًا مستحيلاً.

قلت إنني نملة من هواة الخشب، يسمي الناس جنسنا بالنمل الأبيض، تمييزاً له عن النمل العادي الذي لا يأكل الخشب. . والحقيقة أننا لسنا نملاً أبيض. . هذه تسمية شائعة وليست دقيقة ولكننا نقرها لشيوعها.

نحن من رتبة أرقى من النمل قليلاً. . أسمى دابة الأرض. . لوننا باهت، وطريقتنا في الحياة عجيبة. . أحياناً نحفر الأرض ونبني داخلها مساكن تتسع لستمائة ألف نملة، ورغم اننا نعيش تحت الأرض، الا إننا نقوم بعمل نظام رائع للتهوية. . وأحياناً نبني عشرين نفقاً متوازياً تحت الأرض. كل نفق منها يقع تحت الآخر مباشرة، ونقوم بتثبيت ذرات التراب والرمل بلعابنا فتصبح لهذه الحواجز صلابة الأسمنت الآدمي. . وملك النمل الأبيض يعيش طويلاً. . والملكة هي المسؤولة عن وضع البيض. . وتضع الملكة في حياتها الطويلة نحو عشرة ملايين بيضة، ثم يفقس هذا البيض إلى عساكر وشغالات، ذكوراً وإناثاً. وعساكر النمل الأبيض أكبر حجمًا من الشغالة ورؤوسها كبيرة صلبة. . وعندما نهاجم ـ نحن النمل الأبيض ـ مدينة من مدن النمل الأخرى، تتصدر العساكر مقدمة الجيش. . وتقف الصاعقة قبل مقدمة الجيش، وعساكر الصاعقة من النمل



لها أنف طويل يشبه المنقار، وحين يهاجمها النمل العادي تفرز العساكر ذات المنقار سائلاً لزجاً يلتصق بعنق عسكري النمل العدو كالصمغ.. وبهذه الطريقة نشل أعداءنا ونكسب.. ونحن نتغذى أساساً على الخشب.. في معدتنا أنواع من البكتريا التي تمكننا من هضم الخشب، وتجعله بالنسبة إلينا مثل أشهى الأطعمة بالنسبة للآدميين، وللنمل الأبيض هجرات خاصة.. تخرج تجمعاتنا مرة واحدة في العمر، عندما تطير سحب كبيرة منها فيها ذكور وإناث بحثاً عن بيوت جديدة.. وتفترس الطيور والحيوانات معظمنا، أو نموت لأسباب أخرى.. ثم ينجو من هذه المجموعة الطائرة ذكر وأنثى يبدآن على الفور في حفر بيت جديد، بعد أن يتخلصا من أجنحتهما التي لا فائدة منها الآن، ثم يتزوجان في مسكنهما تحت التربة، ويسرعان في إنشاء مستعمرة أخرى جديدة.. وهكذا يكفي إثنان منا لصنع جيل جديد..

كنت أطير.. مع آلاف من جنسي، حين وقعت فجأة.. إنخلع أحد أجنحتي أثناء الطيران فهويت.. أين تظنونني هويت؟.. في محراب سليمان الذي يتعبد فيه... لم أكد أسقط حتى تخلصت من جناحي الثاني، وبدأت أستكشف المكان.. كنت أحس ببعض الدوران من أثر السقوط.. غير انني.. إعترافاً بالحق.. أصبت بدوار أعظم وأنا أجوس خلال المحراب.. إن عظمة المحراب كانت فوق قدرة العقل النملي على التخيل.. الأرض من الرخام المغطى بالسجاجيد.. الجدران من الكريستال الشفاف.. ليس هناك سقف.. كرسي سليمان من الذهب.. سليمان يجلس على كرسيه وقد أسند ذقنه إلى عصا يمسكها في يده.. لا أحد يجرؤ على اقتحام المحراب وسليمان يتعبد.. أي شيء في الدنيا يستطيع أن ينتظر سليمان حتى ينتهي من

صلاته.. وحول المحراب يسرع الجن وهم يتأملون سليمان جالساً، ليؤدوا سخرتهم وأعمالهم، أدركت انني وقعت في شر أعمالي.. كنت المخلوق الوحيد الذي جرؤ على اقتحام محراب سليمان.. ماذا لو رفع وجهه فرآني؟.. قلت لنفسي ألقي عليه السلام حتى لا يفاجأ بوجودي. همست:

ـ السلام على النبي الملك سليمان الحكيم.. أنا يا سيدي نملة وقعت هنا خطأ.. أرجو معذرتك.. لو قلت لي أين الباب فسوف أخرج.

لم يرد الملك سليمان.

رفعت صوتي أكثر.. وظل سليمان صامتاً.

إقتربت منه أكثر.. رفعت رأسي وتأملت وجهه المهيب الجميل العظيم..

كانت عيناه مفتوحتين تحدقان في جزء من الأرض أمامه.. لم يكن يطرف.

قلت لنفسي لعله مستغرق في صلاته، وقفت ساكنة، ومر الوقت وهو لا يتحرك.. تقدمت منه أكثر.. قلت بصوت ضعيف:

ـ سيدي سليمان الملك.. أنا جائعة وقد جاء ميعاد غذائي وليس في الحجرة كلها أي قطعة من الخشب غير العصا التي تستند إليها.. ماذا أفعل؟

لم يرد سليمان.. تقدمت منه أكثر.. أعدت على سمعه التماساً جديداً، أفهمته فيه أنني جائعة، وان العصا التي يستند إليها هي طعامي الوحيد.

ظل سليمان صامتاً.. وانقضى الليل.. وجاء الصباح.. وسليمان لا يتحرك.. أدركت بالهام مفاجىء أنه ميت.. أن بياض شفتيه النبيلتين، وشحوب وجهه الكريم، وصمته الساكن المروع أشياء تعني أنه ميت.. صليت صلاة طويلة على روحه الطاهرة، وتقدمت من العصا.. هي رزق ساقه إليّ من يرزق الدود في الحجارة..

بدأت ألتهم العصا.. آه.. هي من شجر الخروب.. يذكرني الخروب بالخراب.. مات صاحب العصا وسيدرك بيته الخراب..

ـ عليك الصلاة والسلام أيها النبي الكريم.. طبت حياً وميتاً.. ميت أنت ولكنك تطعمني عصاك فما أنبلك.

عاودت الأكل.. أكلت جزءاً منها في أيام.. إختل توازن الجسد العظيم فجأة وخر سليمان نحو الأرض.. لم أكن أقصد ذلك.

لم يكد سليمان يقع على الأرض حتى أحسست أن جسدي كله يتزلزل..

كان الجن يمر على المحراب فشاهد سليمان راقداً على الأرض.. نشر الجن النبأ..

دخل المحراب وزراء سليمان فألفوه ميتاً..

توقف الجن حين علم نبأ موت سليمان، أدرك الجن أنه تحرر من تسخير سليمان له.. اكتشف الناس أن سليمان ميت منذ زمن..

طوال هذا الزمن كان الجن يعمل دون أن يعرف بموت سليمان.. كان موته غيباً فلم يعرف به الجن..

﴿فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾.

كشفت أنا النملة الصغيرة ما كشفت، وأسقطت دعوى معرفة الجن للغيب.. أسقطتها حين أسقطت العصا.. ورغم أن فمي لا يكاد يرى.. فقد أسدلت به الستار على ملك سليمان العريض.

وهو ملك شاركت فيه أعظم المخلوقات وأكبرها وأعتاها، وأسدلت عليه الستار أصغر المخلوقات وأبسطها وأدناها.. فسبحان من يمنح ويمنع، ويؤتى الملك وينزع الملك. وسبحان من جعل لكل شيء بداية، وجعل لكل شيء نهاية.. سبحانه وتعالى على البداية والنهاية.



حمار العزير

﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَأَمَاتَهُ اللهُ مَائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ؟ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مَائَةَ عَامٍ، فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ، وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ، وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾.

(سورة البقرة ـ آية ٢٥٩)

يشيع في حياة النوع المسمى بالإنسان تصور شائع مؤداه أن الحمير لا تقرأ ولا تكتب، وليس هذا صحيحاً على إطلاقه. . هناك حمير تقرأ وتكتب.

نحن نقرأ آثار الرائحة في الأرض، ونقرأ من هبات الهواء إحتمالات التغيير المنتظر في الطقس، صحيح اننا لا نكتب إلا في أحوال نادرة. عندما يكون هناك اعتراف أو شكوى أو شيء خطير نريد قوله.

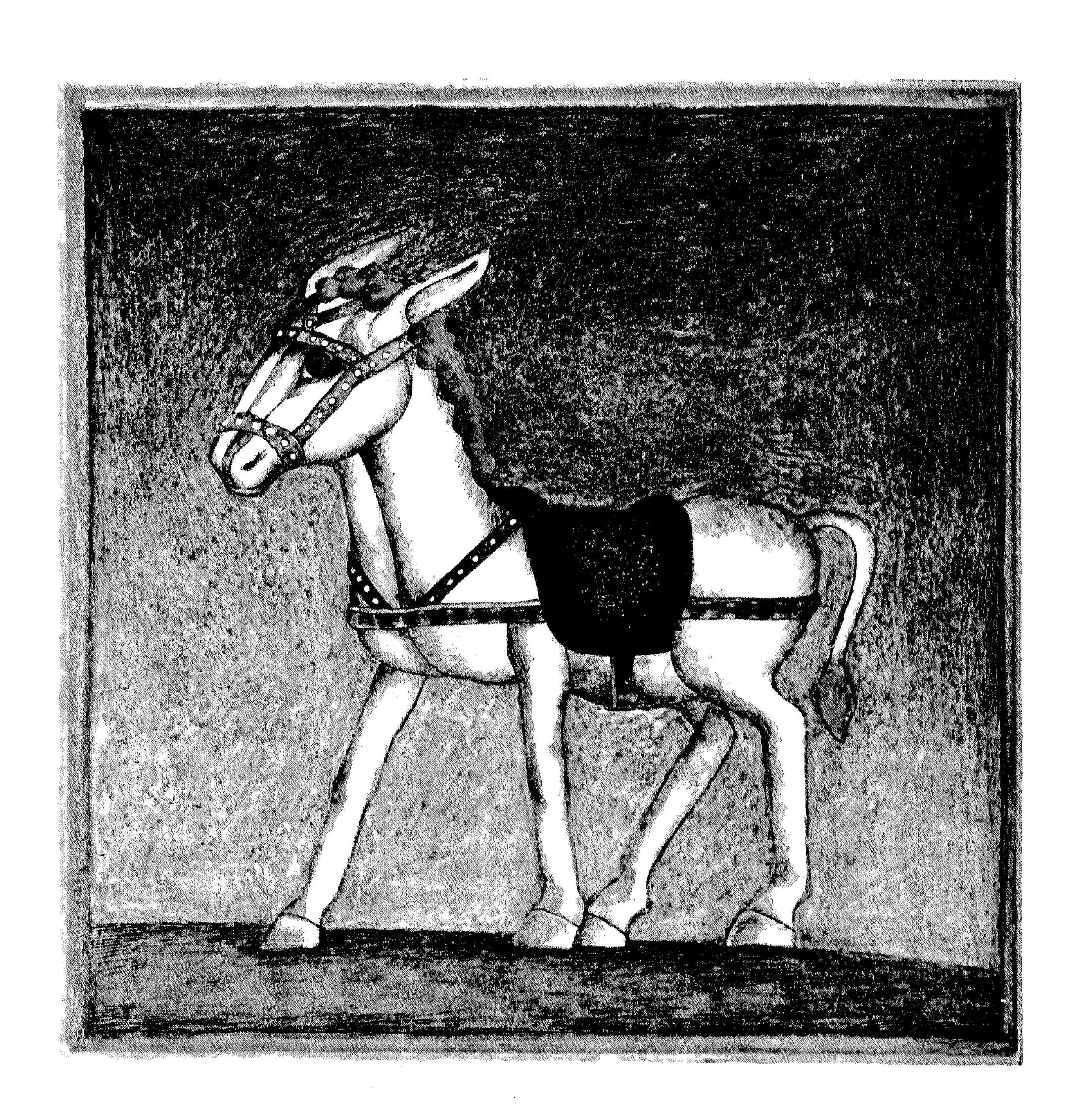
أعرف أن الناس قد كونوا رأياً سيئاً في الحمير. . وأحب أن أقول إن للحمير رأيهم المماثل في الناس. لا أريد أن أشرد. . يحدث لنا معشر الحمير أن نشرد أثناء السير أو الكلام.

يتشتت النظر في الجانبين بدلاً من اتجاهه إلى الأمام، ولهذا يضع الناس لنا حواجز معتمة على جانبي عيوننا لوضوح الرؤية وتحديدها. . لو كان هذا ممكناً في الكتابة لصار للحمير في دنيا التأليف شأن.

نسيت أي منعطف كنت أقف عنده في الكلام. .

تذكرت الآن. . كنت أتحدث عن جنس الحمير. .

ينحدر جنس الحمير الصابر الذي انتمي إليه من حمار وحشي عظيم عاش في الأيام القديمة الطيبة في غابات الصومال، ثم أنشب الصراع أظافره بين هذا الجد الوحشي والأسد. كان الأسد اللعين لا يستطعم غير لحم جدنا الراحل. . وكان كل هم هذا الجد أن يتناسل. . ولم ينفعه ذلك واستمر عدده يتناقص. . أخيراً إهتدى جدنا الأكبر إلى طريقة ينجو بها من الأسد. ترك الإنسان يستأنس أخيب من في ذريته، على أن يحمل الإنسان هم حماية هذه الذرية من الأسد، وفي مقابل ذلك، يقوم الحمار بخدمة الإنسان وحمله وحمل أثقاله وجر متاعه. كان يوماً أسود. انقمست فيه سلالة الحمير إلى قسمين: سلالة وحشية بقيت كما هي، وسلالة مستأنسة جديدة هي نحن، وقد



اختلفت سلالتنا عن الحمير الوحشية القديمة اختلافاً واضحاً. إن الذل يغير من شكل المخلوق الخارجي ويغير تشريحه الداخلي، طالت آذاننا وكبر رأسنا وفقدت أسناننا حدتها وقوي ظهرنا واتسع بطننا، وصارت لنا معدة جبارة يحتاج ملؤها لاحتمال ذل كثير يقع على الرأس.

تم هذا التحول الخطير في حياة الحمير منذ ١٢ ألف سنة، أي في العصر الحجري الجديد كما يقول علماء الإنسان، ويبدو لي أن الله أراد تكريم الإنسان وخدمته فعهد لجنسنا الصابر بهذه المهمة..

إن أحداً في الكون كله لم يستفد من الحمار كما استفاد الإنسان، ورغم ذلك فلا حمد ولا شكر ولا اعتراف بالجميل.

مشكلة الإنسان الأساسية - من وجهة نظرنا المحايدة - انه يقيس كل شيء في الدنيا إلى نفسه ومصالحه، يعتبر الإنسان نفسه مركز الكون وأهم واحد فيه، وهو يثبت لنفسه هذه السيادة بشكل تلقائي بمجرد الميلاد.. وليس هذا ما اتفقنا عليه.

إن الميثاق الذي تم بموجبه تسخيرنا لخدمة ابن آدم كان ينطوي على شرط يحدد الإنسان الذي هو سيد الكون وخليفة الله في أرضه.. وكان الشرط واضحاً وصريحاً في تأكيده ان الإنسان مخلوق راق يعرف الله ويعبده، ويقوم بتعمير الأرض وتغييرها، ويحسن إلى المخلوقات التي سخرها الله له كي تخدمه وتشقى من أجله.

وقد سقط هذا الشرط القديم واكتشف جنس الحمير أن للإنسان تصرفات أسوأ من تصرفات الأسد. كان الأسد يأكلنا بغير التواء، أما الإنسان فيأكل حقنا وعملنا بطريقة ملتوية أشد الالتواء، وهو يرى نفسه متفضلاً علينا رغم أنه مدين لنا، وهو يتصور نفسه أرقى منا بإنسانية لا نراه يملك منها إلا اسمها.

ورغم هذا كله فنحن نصبر.

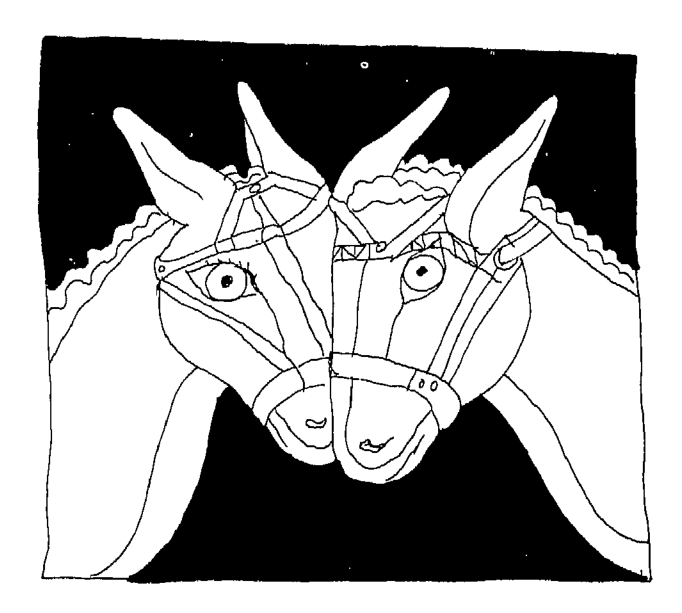
لا أريد أن أدلف من أرض الرضا لأرض المرارة، حمار أنا بالرضا، ولو عرفت المرارة أو الغضب لصرت أسداً أو نسراً أو وحشاً، ونحن لا نحب التغيير. كل الحمير تنفر من التغيير. ذلك طبع فينا وفطرة وجبلة.

لم أقدم نفسي إلى القارىء.. أنا حمار أبيض يميل جسده إلى الحمرة أعيش في مدينة ريفية في فلسطين، سيدي وصاحبي رجل أشيب طيب اسمه عزير، يقرأ معظم الناس اسمه على أنه عزيز ثم يقولون إن الحمير أغبياء وبلداء. لن أتوقف للمناقشة. ماضٍ أنا في طريقي وذيلي يهتز.

لماذا أريد أن أكتب مذكراتي، رغم معرفتي أن الحمير جنس يتحلى بفضيلة التواضع وإنكار الذات..

هاء.. هذا سؤال هام..

أريد أن أؤكد للقارىء - سواء كان حماراً أم إنساناً - انني لا أكتب هذه الأوراق للمباهاة أو التعاظم أو الفخر، لا أريد أن أثبت لنفسي قيمة أكثر من بقية الحمير. كل ما في الأمر أن تجربة غريبة وقعت لي. تجربة مثيرة ومذهلة.



وهي تجربة لو وقعت لغيري وحكاها لي لما صدقتها. مشكلتي أن هذه التجربة وقعت لي شخصياً. عاينتها بنفسي، ولسوف أحكيها كما وقعت تماماً.

تصوروا انني توفيت، وصمت تنهيقي وكف عن اللعلعة. وبليت عظامي واستحالت إلى التراب، ثم عدت مرة ثانية إلى الحياة والتنهيق.

يدور رأسي وتتقلقل عظام الجمجمة حين أذكر ما حدث.

ماذا لو بدأنا القصة من بدايتها.

لا أحب الأسلوب الجديد في رواية القصص من نهايتها واستخدام طريقة الفلاش باك.

ولدت ذات يوم.

وكل الحمير تولد ذات يوم. ليس هناك جديد في الأمر. الجديد انني سألت عن أبي فنظرت أمي نظرة حائرة إلى عشرات الحمير الذين يقفون أمام مرابطهم وقالت باحتقار: كان أبوك القديم وحشاً عظيماً يصارع الأسد.

وأنشأت أمي تحكي لي قصة طويلة عن أمجاد أبي القديم أيام كان يعيش في غابات الخوف التي تثير في المخلوق أنفس ما في طبيعته من خصائص. بعد نهاية القصة.. وجدت أمي لم تجب على سؤالي.. وعرفت حين كبرت أول حقيقة في دنيا الحمير.

هناك أم وليس هناك أب.

لا تعرف الأم من هو الأب من فرط الإنشغال والتعدد. ولا يعرف الطفل من هو الأب، لأن الحمار الذكر لا يربي أبناءه ولا يعني بهم ولا يلتفت إليهم. آلمتني هذه الحقيقة في طفولتي.. غير أن ما تصورته فوضى قاسية يومئذٍ قد انكشف لي فيما بعد عن حكمة عظيمة.

إن الحمار يتعرض كنوع صابر صامت لعذاب يؤدي لتقصير عمره على الأرض، ومن المهم في دنيانا أن يزيد النوع ويكثر النسل، ولهذا السبب يشتغل الحمار دائمًا بالرغبة نحو الجنس الآخر، وليس هناك حمار يعتقد أن هناك أنثى تخلو من الجمال أو السحر.. ونحن لا نعرف كجنس تحريم الأقارب المحرمة، أيضاً نجهل اقتصار الذكر على أنثى واحدة..

وغني عن الذكر أن انطلاق الحواس بغير رادع هو خاصة مميزة من خصائص الحمير.. وأحياناً نجد هذه الصفة في الناس.. وأقول في نفسي عندما أرى أحداً من الناس مثلنا لا يعرف الحياء.

ـ ها هو حمار أصيل يتخفى وراء قناع الجلد الآدمي.

وأحس نحو هذا الزميل بتعاطف وود. إنه يستمتع بحريته في ممارسة الحب مثلنا. وهو مثلنا لا يفكر إلا في شيئين: الطعام والإناث.

وأحياناً أقول لنفسي: ماذا تظن.. ربما كان هذا المخلوق حماراً ثم تطور. لعله الصورة المتطورة من الحمار. من يدري؟

كنت أحب أن أتحدث عن طفولتي مثل الكتاب الآدميين.

يؤسفني انني لا أذكر طفولتي. كل ما أذكره منها هذه القصة الخيالية عن جدنا القديم الذي عاش في الغابات. وفيما عدا ذلك أرى طفولتي غارقة تماماً في الظلام. بالنسبة إلينا معشر الحمير لا نفكر فيما مضى. ولا نشغل البال بما لم يقع بعد. ذهننا مغموس تماماً في اللحظة الحاضرة. لا نرى ما قبلها ولا نعي ما بعدها. كل ما أعرفه عن طفولتنا أن تسميتنا فيها تختلف عن تسميتنا في الكبر. يقال عن الحمار الطفل إنه جحش. والجحش حمار صغير. حمار سعيد. حمار لم يمزق بعد قناع الوهم عن الحقيقة. يعيش الجحش وسط وهم سابغ بأن الدنيا هي أمه التي ترضعه ويسير وراء ذيلها سعيداً.

ثم يكبر الجحش ويكف عن الرضاعة، ويخرج إلى الحياة.

إن صدمة هائلة تنتظره عند منعطف الطريق القادم. تسقط أمه من ذاكرته. لم يعد يعرفها إن رآها. لن يعود إلى التمسح فيها. صارت بالنسبة إليه مخلوقة غريبة لا يميزها شيء عن الأخريات. وكلما ازداد استواء الحمار إكتملت له مميزات شخصية، وهي النظرة إلى الحب على الشيوع. والنظرة إلى الطعام على الشيوع. وهذه القدرة على أداء أشق الأعمال وأقساها.

وصل سيدي وصاحبي عزير.. شممت رائحته حين دخل البيت.. رفعت رأسي ونهقت سروراً بوصوله.

أنا أحب هذا الرجل بصدق.. وهو رجل طيب لم يضربني يوماً بالعصا ولا بيده.. يطعمني أفضل الفول ويأكل هو أسوأه.. يرحمني ويريحني ويقسو على نفسه. أعيش معه منذ عامين.. بعد عام ونصف عام إكتشفت أن الرجل نبي من أنبياء الله، اعتذر لاكتشافي هذه الحقيقة متأخراً ولكنني في نهاية الأمر حمار ولا أريد أن أدعي ما ليس لي من الفضل.. وقبل أن التحق بخدمة هذا السيد الكريم والنبي الطيب.. كنت أشتغل عند تاجر غني.. أو لص بخيل إن شئت الدقة.

أقسم بمخازن الفول الذي جففته الشمس، كما أقسم بحقول البرسيم الشتائي الأخضر أن سيدي السابق كان لصاً بخيلاً.

حين اشتراني راح يربت على رأسي وظهري فتصورت انه طيب وأحببته، ولم نكد نصل إلى بيته حتى تشاءمت..

كان الرجل يكسب في اليوم الواحد ثروة تكفي لشراء حقل من الفول، وكان يعيش على بيضة كل اسبوع.. يأكل ١/٧ بيضة كل يوم. ومعها كسرة من الخبز الجاف ثم ينهال على زوجته ضرباً لأنها أكلت بيضة كاملة، كان يعيش في بيت بدائي صنعه من جذوع الأشجار، وكانت حيطان البيت الهشة لا تقاوم برد الشتاء المروع. وحين وضع أمامي الطعام نهقت تنهيقة قلت فيها: بطني كبير والعلف قليل وهذا للعلم.

نظر إليّ نظرة قاسية وانهال على ظهري ضرباً.. وفهمت إنه أدرك معنى التنهيقة.. بعدها اعتدت التحفظ في التنهيق أمامه.

وبدأت أيامي السوداء في خدمته.

إكتشفت انه اشتراني لبناء بيت حجري. كان الرجال يكسرون له حجارة الجبل فأحملها على ظهري حتى مكان البناء. ومرت الأيام وتسلخ ظهري وانكسر وسطي من ثقل الحمل، ولم يكن يقدم إليّ إلا أردأ أنواع الطعام، وكنت إذا لقيت حمارة بيضاء في الطريق فشممت الأرض ورفعت رأسي عالياً وثنيت شفتي العليا وألصقتها بأنفي وصفقت بأسناني وزعقت عليها بنداء الحب.. كان يضربني ولا يدعني أمارس هوايتي المفضلة. ويقول تبريراً لذلك إنه يريد أن يحتفظ بقوتي لإنهاء أعماله.. إذا كنت أنا أحتفظ بقوتي لمثل هذا الموقف.. أنظر إلى الأنانية. كرهته يوماً كراهيتي للذئب وأكثر.

صبرت على العمل، وصبرت على الجوع، واحتملت عذاب الضرب والتجويع، وسجنت نفسي في طبيعتي المسالمة التي لا تعرف غير الاحتمال، فلما تعرضت حريتي في ممارسة الجنس للتهديد، رأيتني أفكر بعمق.

هذه هي الحالة الوحيدة التي تفكر فيها الحمير بعمق.

نظرت حولي في حياة الناس والحمير نظرة متأنية فاحصة فماذا رأيت؟ رأيت الجزاء لا يوزع على قدر الجهد المبذول، وإنما يوزع على قدر قدرتك على النفاق. ورأيت أخس النفوس تجلس على عروش الكبرياء والثراء والاحترام، ورأيت أن الخطيئة التي تستطيع دفع الثمن على الأرض تواصل مسيرتها التاريخية آمنة مطمئنة، ورأيت اللصوص تسرق طعام اليتامى فيقدم اليتامى والأبرياء إلى السجن، ورأيت الإنسان تزيد قيمته في الحياة كلما زاد ما يأخذه منها، لا كلما زاد ما يعطيه لها. ورأيت الإنسان يظلم أخاه الإنسان ويستحل لنفسه ما يحرمه على غيره، ورأيت حمارة بيضاء فنهقت أناديها فسقطت الضربات على ظهري، وحيل بيني وبينها.

وذلك فوق قدرة الطاقة. إحتملت ما فيه الكفاية.

طفح الكيل وفاض وانسكب مثلما تنسكب المياه من جردل قديم.

وحز هذا الموقف في قلبي مثلما تحز الأنهار لنفسها مجاريها في الأرض الصلبة. قلت في تنهيقة أليمة: العلف قليل والبطن كبير والحر شديد وظهري متسلخ وأنا وحيد وهذا للعلم. . تقول الحمير دائمًا في نهاية تنهيقها: وهذا للعلم، إتباعاً لروتين قديم تمضي عليه الحمير جميعاً. . وليس كالحمير جنس يحافظ على الروتين ويهواه. .

إنتهت تنهيقتي فقررت أن أغير أسلوبي تماماً في الحياة. . هل أصير حصاناً يختال ظهره تحت عجيزة سلطان جائر أو ملك ظالم، هو انحدار يلبس ثوب الرقي، وثمة استحالة أن أصير حصاناً. ثم إن الحمير تنفر من التغيير، لم يبق هناك مفر من العناد.

قررت أن أحرن.

حاول سيدي الظالم أن يحملني أثقاله فحملتها فلما دفعني بعصاه لأمشي رفضت أن أسير، إنهال الضرب على ظهري ووجهي فازددت صبراً وثباتاً ورفضت الحركة.

وذهب بي إلى شيخ يدعي معرفته بطب الحمير وسأله:

ـ هل الحمار مريض؟

جس الرجل بطني بعصاه، وفتح فمي ونظر في أسناني وقال:

ـ الحمار كالجن ولكنه بليد.

رسمت على وجهي تعبيراً من البلادة.

واشتد الضرب وازداد عنفاً، فاشتد إصراري على عدم الانتقال من مكاني خطوة. ثم نهقت قائلاً: هي علقة تفوت ولا أحد يموت وهذا للعلم. . ثم أوجعني الضرب يوماً وكان يصدر من ورائي فرفعت قدمي ومددتها في اتجاه الضارب. هي رفسة واحدة تندرج تحت حالة الدفاع الشرعي عن النفس.

أصابت الرفسة يد الظالم فصرخ متألماً وأرغى وأزبد وقال:

ـ يعاندني الحمار ويضربني فسوف أقتله. أحضروا الفأس والسكين.

لم تتحرك في جسدي شعرة.

أعرف أنه بخيل ولن ينفذ تهديده. ربما فكر في بيعي.

أثمرت سياسة العناد وقرر الرجل بيعي في أول سوق ينعقد للحمير.

سحبني إلى السوق وراح ينادي:

حمار نشيط وشقي وقدرته على العمل لا تكل. . أنظروا إليه. .

سأل أحد التجار ـ بكم تبيعه؟

قال ـ عشر قطع فضية.

تحرك التاجر بي قليلاً فتماوت وتباطأت، فتح التاجر فمي وقال: أسنانه سليمة وشابة. . فما سر بلادته. . قطعتان فضيتان. . صرخ صاحبي كمن طعنه أحد بسكين، وانهال ضرباً عليّ وهو يؤكد انني حمار يساوي ثقله ذهباً. عاد يحاول حثي على الجري فرفضت. أدعيت الكسل وتباطأت. كنت أعرف انني أغامر باحتمال أن أبقى مع صاحبي ولا أباع، ورغم ذلك قررت التمادي، كنت أريد أن أباع بأبخس الأثمان نكاية في صاحبي البخيل، وقد حدث ما توقعته. .

باعني بعد أن يئس مني وقبض قطعتين ونصفا وانصرف يشيعني بنظرات الحقد. لم يكد التاجر الجديد يعتلي ظهري حتى طرت به في الطريق. ووقف صاحبي القديم يرمقني وقد أغرورقت عيناه بدموع الغيظ.

لم نكد نغيب عن ناظره حتى تباطأت، ما الذي أخذناه من النشاط والعمل والسرعة. لا شيء.. نكسل إذن.

وصلنا إلى بيت التاجر فاكتشفت أنه يقتني عدداً هائلاً من الحمير.. ورأيت أكثر من حمارة بيضاء..

رفعت رأسي ونهقت قائلاً: أنا مسرور.. أنا مسرور... أليست هناك حمارة بيضاء في هذه الناحية.. إنني أحس بالوحدة وهذا للعلم..

ومرت ليلة رائعة.

وجاء الصباح.. واكتشفت اكتشافاً زاد رأيي سوءاً في الآدميين.

رأيت التاجر يقول لمساعده: أفرز لي الحمير البليدة في ناحية..

وخرجت مع الحمير البليدة. أحضر التاجر قطعة من الخشب وأشعلها وراح يمر بها على سيقان الحمير الخلفية مروراً سريعاً.. ربط الحمير في مكانها وراح يعذبها بالحرق.. لم أفهم سر هذه الطقوس الغامضة إلا في السوق.

حينما ذهبنا لعرضنا في السوق.. كانت أقل عصا تمس ظهرنا من الخلف تلمس مكان الحرق. وهو مكان ملتهب.. تمسه العصا فيطير الواحد منا مثل أعظم حصان، ويرتفع السعر غشاً وتدليساً.. ثم لا يكاد الجرح يبرأ حتى يعود الواحد منا إلى بلادته..

كان حظي أفضل الحظوظ..

إشتراني عجوز أشيب هو عزير. قال للتاجر:

ـ أريد حماراً بطيئاً وذكياً يحملني إلى الناس ويعينني في الأرض ورزقه ورزقي على الله.. أشار التاجر إليّ وهو يقول:

ـ اشتريناه أمس بعشر قطع ذهبية، ونبيعه بسبع قطع إكراماً لخاطرك.

دفع عزير ما طلبه الرجل دون مساومة.

أدهشني كرمه.

عدت معه إلى بيته. إكتشفت حين اعتلى ظهري انه رجل طيب. لم يكن يحمل معه عصا. ولم يكن ينخسني في بطني. كان مثل نسيم عليل يمر فوق ظهري. وأحببته. رأيته يعظ الناس وهو في طريق عودته ويوصيهم باتباع الوصايا العشر.. كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها عن الوصايا العشر، لم أشغل نفسي بما سمعته.

عشت مع عزير. كان متزوجاً عنده ثلاثة أولاد.. وكانت لديه خادمة صغيرة تتفانى في خدمته وخدمتي. كان إسم الخادمة «هانم» وكانت عادة تكرمني بالعلف وتتوصى بي، وكنت أعرفها من صوتها.

صارت لي في بيت عزير حجرة خاصة فيها شباك بحري نغلقه في الشتاء بسبب السم الذي ينفذ منه كالسلهوب، فإذا جاء الصيف فتحنا الشباك فجاءت منه طراوة ترد الروح.

أعترف انني استمتعت تماماً بحياتي مع عزير.

مضت حياتي هادئة رتيبة، كنت آكل جيداً وأمارس حريتي في الحب، وزاد وزني وامتلأت، وفصل لي عزير بردعتين جديدتين فنهقت حين رأيتهما قائلاً: جاءتني بردعتان جديدتان وأنا مسرور وهذا للعلم.

لم أكن أشقى كثيراً مع الرجل. إن مشاويره صغيرة ومحتملة، يمر في القرية ويحدث الناس عن الله، ويدعوهم إلى طاعته، وينهاهم عن عبادة الشيطان ويوصيهم باتباع الوصايا العشر. ورغم انني سمعت اسم النبي الذي أنزلت عليه الوصايا العشر إلا انني نسيته الآن. ذهني أحياناً يشرد بغير سبب مفهوم. وأعترف انني واجهت أمرين لم أفهمهما أبداً في سيدي عزير، حديثه الدائم عن يوم القيامة. وقيامه بدعوته للناس بغير أجر. لاحظت انه يتحدث كثيراً عن يوم يقوم فيه الأموات من الموت، ولم أفهم كيف يمكن لمثل هذا الأمر أن يحدث.

لاحظت أيضاً انه يعمل طوال نهاره وليله مجاناً، يدعو الناس بلا أجر.. وتساءلت في نفسي من أين يطعم أسرته ويطعمني، ثم اكتشفت أن له حديقة بعيدة يمر الطريق إليها بالمقابر.. من هذه الحديقة كان عزير يعيش. وكنت أعرف أنه ينوي الذهاب إلى حديقته إذا صحب سلتين كبيرتين ووضعهما على ظهري.

دخل سيدي عزير وهو يحمل السلتين.. وأدركت اننا سنقوم برحلتنا الأسبوعية..

بدأت رحلتنا إلى الحديقة..

سرت نشيطاً راضياً أستنشق الهواء النقي.. بعد طريق مترب دخلنا في طريق أخضر تحفه الحقول من الجانبين.. ثم تغير لون الطريق إلى اللون الأصفر الباهت.. هذا أسخف جزء في الطريق.. نحن الآن في منطقة جرداء قاحلة. خرجنا من القرية تماماً وهدأت الأصوات وبدأت أسير على مهل.. شارفنا مدينة الموتى.. أحسست بتشاؤم ونحن نمر على الخرائب القديمة..

أسرعت في السير حين مررنا على المقابر.. ضحك سيدي عزير حين رآني أحاول اجتيازها بأقصى سرعة ممكنة، يعرف انني أخاف منها.. مد يده وراح يهدئني حتى ابتعدنا عنها.. لا يعرف سيدي عزير ما أراه أحياناً جوار المقابر.. الحجاب مكشوف عنا نحن البهائم ونحن عادة نرى ما لا يراه الناس.. وقد رأيت إلى جوار المقابر أشياء لا أستطيع الحديث عنها.

بعد مسيرة طيبة وصلنا إلى الحديقة..

كان جسدي كله يتصبب من العرق والإرهاق.. جريت إلى الظل واخترت مكاناً مترباً وألقيت نفسي على الأرض ورحت أتمرغ..

لم أكد أنتهي من التمرغ حتى عاودتني قوتي ونهضت نشطاً كأنني أنهض من نوم طويل.. رأيت سيدي يملأ إحدى السلال بالعنب ويملأ الأخرى بالتين..

عرفت أن موعد إنصرافنا قد حان فملأت بطني من العشب الطري الظليل. دناوة سأدفع ثمنها فيما بعد..

وضع سيدي عزير على ظهري سلة التين وسلة العنب وانصرفنا عائدين.

سرت نشيطاً في البداية، ثم بدأت أتنفس بصعوبة.. كانت الشمس حامية كأنها نزلت من السماء وركبت فوق رأسي، كان إثنان يركبان فوق ظهري. سيدي عزير والشمس.. وكان عزير محتملاً أما الشمس فكانت مخيفة.. لم أكد أسير خطوات حتى كان جسدي كله يسبح في العرق، وأنا أكره الأنهار والسباحة بوجه عام. وقفت ونهقت قائلاً:

ـ التراب ساخن والحر شديد وبطني ملآن وأنا طهقان وهذا للعلم.

ربت سيدي على رقبتي فعدت أسير. إقتربنا من المقابر فرأيت ظلالها الخربة المخيفة تشبه حديقة لطيفة.. جريت نحو الظل ودخلت مدينة الموتى.. إبتسم سيدي وتركني أذهب حيث أشاء. كنت أحس بحرارة مخيفة.. وهبط عزير ورفع عن كاهلي سلتي التين والعنب وجلس على الأرض.

كان كل شيء مفرهداً من الحر.. أنا وسيدي وهوام الخرائب ونمل المنطقة.

جلس عزير وعصر بعضا من العنب في صحن.. ثم أخرج رغيفاً من الخبز الناشف وكسره ووضعه في العنب كي يلين فتحتمله أسنانه.. راقبته وهو يعد طعامه ودهشت.. ما أصغر كمية الطعام التي يأكلها الآدميون، كان سيدي عزير هو الآخر يبدو مستغرقاً في تأملاته.. لاحظت أنه يجيل بصره فيما حوله من خرائب وعظام بالية وصمت ميت.. ثم سمعته يقول مندهشاً كأنما يؤكد لنفسه قدرة الله.. سمعته يقول «أنّى يحيى هذه الله بعد موتها».

لم يكد عزير يقول كلمته حتى هاجمه مثلما هاجمني نوم ثقيل مفاجىء.. هذا النعاس الأمر الذي يصحب الحرارة ويبدو فيه انك تستحيل من فرط التعب إلى تراب..

نمت نوماً عميقاً يختلف عن كل نوم نمته قبل ذلك.. وقد وقع هذا قبل أن ألاحظ إنني نمت.. حاولت أن أنهق لأنبه سيدي انه لو نام فسوف يفسد العنب المعصور من الحرارة، ولن يجد طعاماً يأكله عندما يستيقظ.. لم أستطع.. رحت في النوم.

نمت نوماً عميقاً غريباً. أشهد أن هذا النوم كان غريباً حقاً. العادة انني أحلم عندما أنام نوماً عادياً.. أحلم انني أسير في حقول الفول مثلاً.. أو أحلم انني أقابل جدي الحمار الوحشي القديم.. أو أحلم انني لم أزل جحشاً ليست عليه مسؤوليات ثقال.. لكن هذا النوم لدهشتي يختلف عن أي نوم طبيعي.. كان نوماً يخلو من الأحلام تماماً..

ثم أحسست فجأة بوجوده.. لا أتحدث عن سيدي.. لم أكن أرى سيدي عزير أو أحس بوجوده. إنما كنت أحس بوجود كائن آخر.. كائن ليس من أهل هذه الأرض. كائن من نور جليل.. سمعت هذا الكائن يسأل سيدي: كم لبثت نائمًا يا عزير؟. لم أسمع جواب سيدي.. ولم أره.. سمعت هذا الكائن الجليل يقول بعد لحظة صمت قصيرة: «بل لبثت مائة عام» أنظر إلى حمارك الميت يا عزير. أنظر كيف استحال جسده إلى تراب.. تأمل ما بقي من تراب

عظامه.. ثم أنظر كيف يأمر الله الموتى أن يعودوا إلى الحياة.. هو مجرد الأمر وحده يا عزير. أنظر كيف يبحث التراب عن التراب ويلتئم عظاماً. أنظر كيف تغطيه الدماء والعروق، ثم تأمل الجلد كيف ينبت فوقه.. أنظر إلى الشعر كيف يكسو الجلد.. لم يزل حمارك ميتاً فانظر إليه كيف يصحو من الموت.. انهض أيها الحمار الميت منذ مائة عام.

كان الأمر الأخير موجهاً إليّ.. وكنت أسمع كـلمات هذا الكائن الجليل، دون أن أراه أو أرى عزير.. لم أكد أسمع الأمر الأخير حتى نهضت من نومي فجأة.. رفعت رأسي فوجدت الجو لطيفاً وقد ذهبت الحرارة.. لم أر غير سيدي عزير. كان يقف أمامي مندهشاً كأنني أصحو من الموت. نهضت واقفاً أرتعش وجربت أن أنهق فوجدتني لم أنس النهيق.

قال عزير وهو يتأملني ويرتعش - ﴿أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾.. طعام سيدي لم يزل على حاله سليمًا لم يفسد. كيف متنا مائة عام تحول فيها جسدي إلى التراب ورغمها بقي عصير العنب على حاله لم يفسد .. هذا العصير يفسد في ساعات في الحر.

رأيت عزيراً ينخرط في صلاة عميقة، مد يده إلى طعامه فمنعه انفعاله أن يأكل أكثر من لقمة، بعدها ركب ظهري وساقني عائداً إلى القرية.

وتلقيت المفاجأة الأولى في يومي الغريب.

لم تكن هناك قرية.

أقصد القرية التي تركناها قبل أن نذهب إلى النوم في المقابر.. تغير شكل البيوت وتغيرت ملابس الناس وتغيرت برادع الحمير.. وتغير كل شيء. حاولت أن أتشمم الأرض بحثا عن رائحة بيت عزير فلم أجد رائحته.. وقفت في مكاني خائفاً.. بدأت أدرك ما حدث. أدركت بعد أن صرنا في قلب القرية أنني قد توفيت وعدت إلى الحياة.. وأخافني هذا الموضوع خوفاً شديداً.. ولولا عزير وطمأنته لي لجننت. لم يكن خوفي بغير مبرر.. لاحظت أن هذا النوم الذي تمناه قد فصل بيني وبين جنس الحمير فصلاً نهائياً .. لم تكن الحمير تراني فتقترب مني بود كما هي العادة. إنما كانت تنهق خوفاً وتبتعد.. أعلن عزير أنه قد عاد فسخر منه الناس. قالوا خرج عزير منذ مائة عام ولم يعد. مات عزير وشبع موتاً. قال: أنا عزير وقد بعثني الله من الموت بعد مائة عام.. أين أحفادي.. دلوه على أحفاده فوجد عزير أصغر أحفاده في الستين من عمره.. كان عمر عزير خمسين سنة.. وجلس الجد وعمره خمسون سنة مع حفيده وهو في الستين. ورفض الحفيد الشيخ أن يصدق أن هذا الكهل الصغير هو جده. لم يكن في القرية كلها غير إمرأة واحدة هي التي عاشت بعد خروج عزير من القرية.

«هانم» خادمتنا الصغيرة. تركناها في العشرين من عمرها وها قد وصل عمرها إلى المائة والعشرين. أقبلت الخادمة حين سمعت عن عزير وهي تجر جسدها المحطم وتتحسس بعصاها الطريق.. فقدت بصرها من الشيخوخة.. شممت رائحتها فأسرعت إليها ونهقت سروراً بها ورحت أهز ذيلي.

كانت هي الرائحة الوحيدة التي عرفتها في القرية.

قالت المرأة لعزير: من الذي يتحدث عن عزير ويذكره وقد نسيه الناس. ثم انخرطت في

البكاء.. قالت وسط بكائها: كان عزير مستجاب الدعوة فادع الله لي أن أرى.. فدعا لها عزير أن ترى فذهب عنها العمى ورأته.. عرفته فصرخت ترحب به ثم ارتمت على قدميه تقبلهما وتبكي..

وشاركتها البكاء. انعقدت عند عيني حبتان كبيرتان من الدموع.. قال أحفاد عزير: كان عزير يملك نسخة من التوراة في بيته. وقد بحثنا عنها بعد خروجه فلم نجدها. لو كنت عزير فأين هي التوراة؟.

لقد ضاعت أوراقها وتمزقت في الحرب ونسيناها تماماً.

قال عزير مشيراً إلى رأسه وقلبه: لم أزل أحفظ التوراة في قلبي. وهناك نسخة أخفيتها في جذع شجرة قديمة فتعالوا نبحث عنها. ذهبنا إلى شجرة قديمة مهجورة تنمو حولها الأعشاب الطويلة.. وهناك مد عزير يده وأخرج ما بقي من صفحات التوراة.. وتصاعدت صيحات الدهشة من الناس.

وسط لهفة الناس حول عزير نسيني الجميع تماماً..

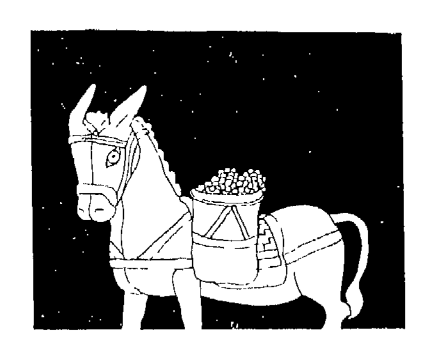
انتهى الأمر وانسحبت من الصورة.. التف الجميع حول نبيهم الذي بعثه الله من الموت ونسوني أنا..

انفردت بنفسي بعيداً عن الناس وطالت وقفتي.. سمعت واحداً من اليهود يقول لزميله همساً ـ عزير ابن الله.

ارتعشت عظامي من الهول.

اضطرني هذا لكتابة مذكراتي والادلاء بشهادتي أمام محكمة التاريخ.

وهذا للعلم.



كلب أهل الكهف

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالوَصِيدِ، لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾.

(سورة الكهف ـ آية ١٨)

اعطى الوفاء كله وأرضى بأقل القليل.

نعم..

أنا الوفاء الوفي، المستوفى للوفاء، القانع بالوفاء، الراضي بأقل الوفاء.

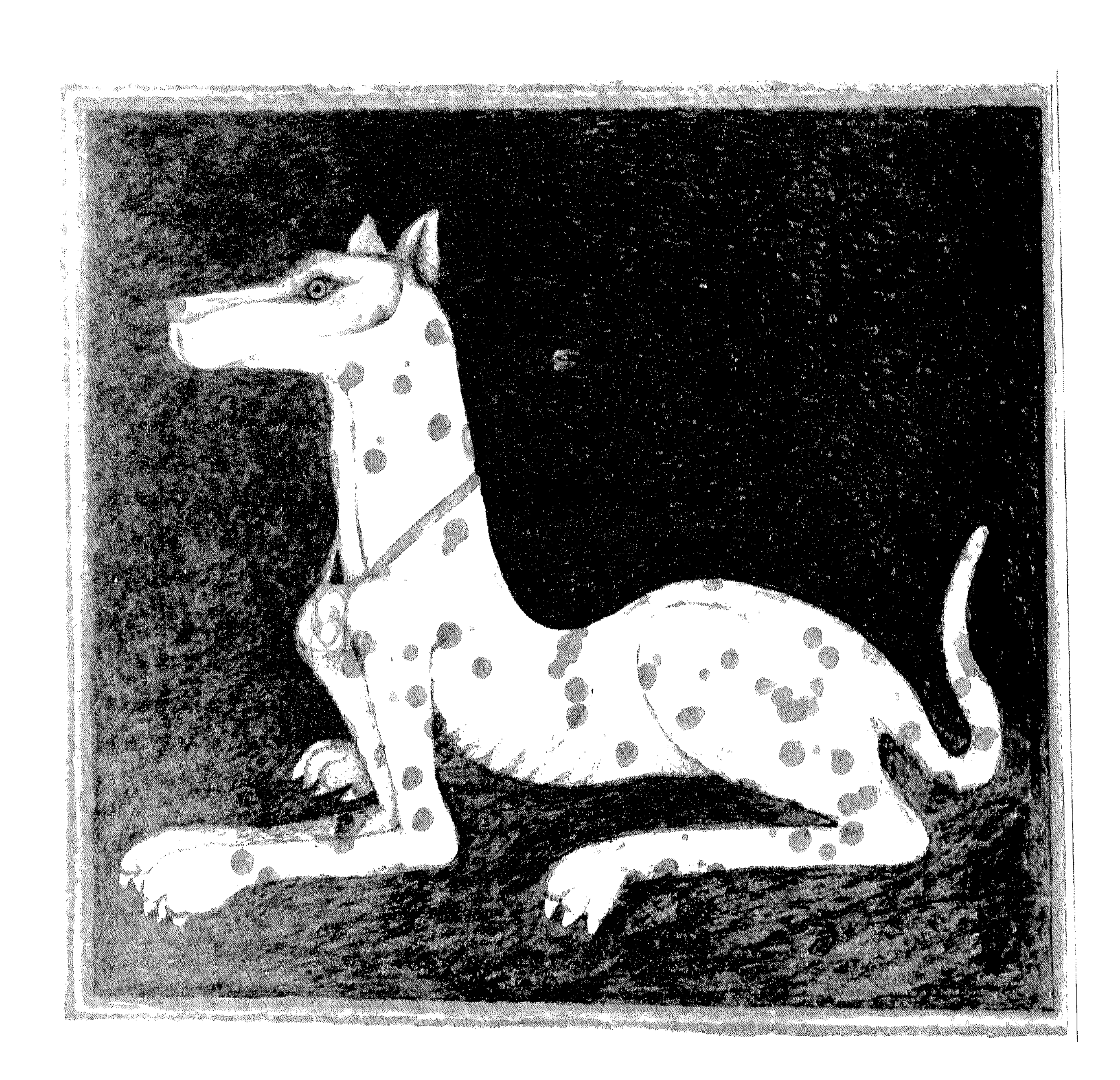
أنا قطمير.. كلب أهل الكهف النائم ٣٠٩ سنة .. المستيقظ بعدها كمن نام نصف ساعة.. شكراً لله أن حدث ما حدث.. فقد كنت أوشك أن أفقد إيماني بوجود العدالة على الأرض.. يتصور كثير من الناس أن الكلاب حيوانات لا تهتم إلا بالأكل والنباح.. وهذا وهم.. ويتصور كثير من الناس أن الكلب شيء نجس. سبة أو شتمة أو شيئاً من هذا القبيل، حتى ليقول الانسان الذي خلقه الله وكرمه لزميله يا ابن.. قاصداً تحقيره واهانته.. وهي ليست إهانة لنا نحن الكلاب.. أن يكون المخلوق كلباً لا يعني أنه كفر.

إن الله سبحانه وتعالى اختار أن يخلقنا كلاباً.. واختار أن يخلق غيرنا ناساً.. ولو أراد سبحانه أن يخلق من الكلب إنساناً، ومن الانسان كلباً لفعل، ولا معقب على حكمه واختياره.. لماذا يسيء إلينا الناس إذن، ويوردون أسماءنا في شتائمهم.. لماذا؟.

سوف أنبح محتجاً على ما يحدث ـ أقول في نباحي: هذا ظلم..

على أي حال.. ليس هذا هو الظلم الوحيد الذي تخصص فيه الانسان.. لعل هذا أبسط أنواع الظلم التي يمارسها. ولقد رأيت ألواناً وأشكالاً من الظلم، بدأت بمولدي واستغرقت حياتي، ولولا المعجزة التي وقعت لنا في الكهف لقلت على العدل السلام..

ولدت ذات صباح مشمس في خرابة نائية في مدينة افسوس.. وحدد مولدي في هذا المكان مستقبلي إلى الأبد.. هي مشيئة الأقدار أن أخرج الى الحياة كلباً ضالاً، وأن أعيش في مملكة ظالمة



وأوقات سوداء.. أرضعتني أمي ثم ماتت قبل أن تتم رضاعتي.. وقد وقع موتها على رأسي وقوع الصاعقة..

أحكي لكم كيف ماتت أمي لتعرفوا نوع الأيام السوداء التي عشناها.. كانت أفسوس مدينة تعبد هواها، وكان حاكمها كافراً بالله، وكان أغلبية أهلها من الامعات وفاقدي الرأي.. هي مأساة أن تولد في مدينة أهلها بلا رأي.. هذا يعني أنك قد ولدت في الجحيم.. إنك لا تستبعد ساعتها أن يقع أي ظلم على رأسك ولو كنت بريئاً.. ما دام الناس يكفرون بالله، فهذا يعني أن كل شيء مباح.. ليس بعد الكفر ذنب..

رأى أهل افسوس فجأة أن عددنا قد زاد.. هكذا قالوا.. قالوا زاد عدد الكلاب.. وهم ينبحون طوال النهار وطوال الليل فلا ننام.. وهم يأكلون من طعامنا ويعضون أولادنا وينجسون معابدنا وينبغي إعدامهم جميعاً.. هكذا قالوا ويعلم الله أنهم كانوا يبالغون، ولو كل واحد منهم بدلاً من أن يدخر في بيته الطعام ويكدسه حتى يتلف، ألقى الينا بكسرة من الخبز، لوفرنا نباحنا وعشنا معهم في سلام.. المهم أنهم ادعوا أنهم لا ينامون الليل بسبب نباحنا، ونسوا أن نباح ضمائرهم هو السبب في أرقهم .. بعدها قرروا إعدامنا، وخرج الرجال المسلحون بالسيوف لاسكات النباح. أنظر كيف يرتفع السيف ويهوي على الكلب منا فتذبح الصرخة قبل انطلاقها، أو يعوي نصف كلب يرى نصفه يختلج على بعد خطوات منه..

كنت رضيعاً لم أكمل الرضاعة، حين دخلوا الخرابة وهم يشرعون سيوفهم.

كنت أرقد بين حجرين في الخرابة. نصف نائم ونصف مستيقظ.. اخفتني أمي مع أخوين لي وذهبت إلى السوق فلما عادت وجدتها تجري وناساً يجرون وراءها وسيوفهم تقطر دماً. هوى السيف فطار ذراع أمي وانكفأت على الأرض متخبطة في دمها وهي تنبح نباحاً ضعيفاً قالت لنا فيه:

ـ اختبئوا جيداً، فقد جن أهل المدينة وخرجوا يقتلون الكلاب.

شاهدت مصرع أمي أمامي.. وتمنيت ساعتها، رغم العداء التقليدي بيننا بين الذئاب.. تمنيت لو كنت ذئباً له ألف ناب وألف مخلب وألف روح.. ظللت أرتعش في مكاني حتى سكنت حركة أمي وانصرف الرجال. بعدها خرجت من مكاني وناديت أمي فلم تستيقظ قلت لها: إنني جائع أريد أن أرضع فلم ترد.. كانت ترقد وسط بحيرة حمراء.. واحدى قدميها تهتز هزات مختلجة وبقية الجسد ساكن.

وهكذا صادفت اليتم قبل أن أتم الرضاعة. وواجهت الحياة وحيداً منذ مولدي.. ولولا كلبة صديقة لأمي.. لولا صدرها الحاني لما كنت أحدثكم الآن.. أرضعتني صديقة أمي حتى كبرت. وقد رعيتها في شيخوختها، وكنت أدفن لها العظام والخبز حتى إذا جاءت تزورني أخرجت لها الطعام وأعطيته لها وجلست أرقبها وأهز ذيلي وهي تأكل.

يعلم الله أنني كنت أطعمها وأنا جائع..

لم أكن أطعمها لأنها أرضعتني أو أنقذت حياتي في الصغر..



أكـون نذلاً يفكر بعقلية المنفعة لو فعلت ذلك . .

كنت أطعمها وفاء لصلتها بأمي وصداقتها لها . . رحم الله أمي ورحمها .

واجهتني مشاكل الدنيا حين كبرت . .

كان عليّ أن أخرج إلى الحياة ساعياً وراء الشمس واللقمة والحب . .

كانت الشمس هي المخلوق الوحيد الذي يتصف بالكرم في المملكة . . أما اللقمة فكانت شحيحة . أما الحب فكان متوافراً . . هذا النوع من الوفرة الذي يمحو مذاقه من الفم ، ويجعله بلا طعم .

من الصعب أن يتصور المخلوق معنى الحياة القاسية التي تعيشها الكلاب الضالة أو كلاب السكك كما يقولون . . حياة قاسية ، عليك فيها أن تدبر أمر معاشك ، وأمر هربك في الوقت المناسب . . من يدري . . قد تتكرر مذبحة الكلاب في أي وقت . . كل يوم تنام في خرابة تختلف عن الخرابة التي نمت فيها أمس . . ليس هناك استقرار ، وهناك هذا الخوف الغامض المجهول من الغد . . وهناك هذا الاحساس الدائم بالمطاردة . . أن تكون دائمًا موضع مطاردة ، يعني أن تنخلع من صفاتك وتتحول إلى كتلة من الرعب المتحرك الذي ينتظر أهون إشارات الخطر ليجري . . حياة مرعبة . . مثيرة ، ولكنها مرعبة . . تعرفت في هذه الحياة على رجل قدر لي أن ألعب دوراً في حياته ، وقدر له أن يلعب دوراً في حياتي . . تم هذا اللقاء والتعارف في إحـدى الخرائب . . لاحظت أن هناك رجلاً من الرعاة ، يلجأ بأغنامه لإحدى الخرائب ، وهناك يترك أغنامه ويصلي . . اقتربت منه يوماً وهو يصلي فسمعته يمجد الله ويدعوه إلهاً واحداً لا شريك له . . أدركت بفطرتي السليمة أنني أمام رجل مؤمن . . وجلست إلى جواره حتى انتهى من صلاته والتفت إلـيّ . . بصراحة . . لم أشعر بالخوف منه ، انتهى من صلاته فأخرج طعامه وجلس يأكل . . رغيفاً من الخبز

وقطعة من اللحم.. رمقت قطعة اللحم فلم أجد فيها أي قطعة من العظام، انتابني اليأس ورغم ذلك هززت ذيلي، رآني أهز ذيلي فأخرج قطعة اللحم من فمه قبل أن يأكلها ونظر إليّ.. هززت ذيلي أكثر.. مد إليّ يده بقطعة اللحم وهو يسألني بلطف هل أحس بالجوع؟.

هززت ذيلي أكثر، ولكنني لم أتحرك من مكاني.. من يدري.. ربما كان لطفه البادي كميناً لاصطيادي، وربما كان يسخر مني.. لا داعي للأمل..

مد الراعي إليّ يده بقطعة اللحم.. هززت ذيلي بفرح أكثر، ولكني لبثت جالساً في مكاني.. أردت أن أعض نفسي لأعرف هل أنا نائم أم مستيقظ.. لا ريب أنني أحلم.. كثيراً ما حلمت بهذا المشهد.. رجل يجلس وفي يده قطعة من الخبز واللحم.. يأكل هو الخبز ويقدم إليّ اللحم..

هو حلم لا ريب في ذلك.. لكن الدنيا شديدة الحرارة.. ولساني مدلى من فمي.. كيف يحس النائم وهو يحلم بلذع الحرارة.. أتكون الاحلام قد تطورت؟!

أدرك الراعي انني لا أثق فيه، فألقى إليّ بقطعة اللحم.. كان بيني وبينه ما يقرب من أربعة أمتار.. طارت قطعة اللحم في الهواء فرفعت رأسي وأدركت أنني لا أحلم. قفزت في الهواء وصوبت فمي نحو الهدف والتقطت الهدية..

جسمي كله يرقص.. ذيلي يرقص.. فمي يرقص. أسناني ترقص.. معدتي ترقص.. الشمس ترقص، والكون كله يغني..

آه.. أيها اللحم.. ما أعذب مذاقك!!.

قلت للراعي وأنا أرقص وأهوهو:

ـ قطعة أخرى لو أمكن.. هذه أول مرة أذوق فيها اللحم في حياتي..

ابتسم الراعي ابتسامة خجلة، فأدركت أن قطعة اللحم التي أكلتها كانت هي كل طعامه.. جريت نحوه ورحت أقبل قدميه وأشم رائحته وأهز ذيلي.. سجلت رائحته في عقلي وأقسمت أن أعيش وفياً لهذه الرائحة حتى الأبد، ويوماً آخر بعد الأبد، وساعة أخرى بعد هذا اليوم..

انصرف الراعي فانصرفت وراءه.. حاول أن يهشني لأرجع، ولكنني أصررت على خدمته.. قررت أن أحرسه وأنبح له وأحمي غنمه وأسهر الليل كي لا يصيبه مكروه.. حاول طردي، ولكنني التصقت به وأنا أقبل قدميه فتركني أتبعه.. فوجئت بأنه يتوجه نحو قصر الملك.. تشاءمت، ولكنني دخلت معه وحولنا الخراف لقصر الملك..

اتضح انه متعهد توريد الخراف للقصر..

يومها التقيت في قصر الملك بقصة حبي على الأرض.. التقيت بكلبة الاميرة «بريسكا».

رائع.. رائع.. أقصد قصر الملك من الداخل. تذكرت الخرابة التي أعيش فيها، وقارنت بينها وبين حديقة القصر، زاد إحساسي عمقاً بالفوارق الطبقية.. نعم.. كلب مثقف أنا.. تثقفنا تجاربنا في الخرائب ونقرأ آلام الدنيا عملياً ونجرب.

شاهدت في حديقة القصر الملكي تمثالاً لكبير آلهة المدينة، تذكرت فجأة أنني شربت كثيراً

من الماء، جريت نحو التمثال ورفعت قدمي و «عملتها». . خرجت لي كلبة سمراء من الحديقة وهوهوت. . . هوهوة مدللة ضعيفة من هوهوات القصور. قلت لها: لماذا تهوهوين؟. قالت: كيف تجرؤ، الا تعلم أن هذا تمثال كبير الآلهة المعبودة في أفسوس. قلت لها: كبير الآلهة والا صغير الآلهة. . كنت محصوراً يا ستي فلا داعي للهوهوة والخوتة. قالت: يقتلك حرس القصر لو علموا أنك لوثت معبودهم. قلت هامساً: أنت كلبة لطيفة ولن تقولي لأحد. . هل تصدقين خرافات الناس . . أليسوا حمقى حين يعبدون الحجارة؟. قالت: أنت أول مخلوق شجاع أقابله في المدينة. . أرجو أن تسجل إعجابي بك. . قلت لها: سجلت الاعجاب وأشكرك. قالت: من أين أنت قادم، ولماذا أنت نحيف لهذا الحد. عظامك تبرز من لحمك. . أنت مضحك. . قلت لها: قادم أنا من إحدى الخرائب، التحقت بخدمة الراعي اليوم. السر في نحافتي هو سوء التغذية وبخل الناس وغلاء الأسعار وندرة اللحم. . تصوري أنني لم أذق طعم اللحم في حياتي إلّا اليوم. . أعطاني الراعي نصيبه من اللحم. . قالت: أرجو ألا تشير أمامي إلى اللحم أو تذكر سيرته. . سئمت من أكل اللحم كل يوم وأتوق لقطعة من العظام. . بدأت أعتقد أنها مجنونة قليلاً. . قررت معاملتها بحذر أكثر. . قلت لها: تقولين أكل اللحم كل يوم. . هل تأكلين اللحم كل يوم؟.

قالت نعم. . قلت: أليس لديك بعض اللحم الفائض؟. قالت: لحم الغداء ملقى في الصحن لم أمسه. . قلت: هل أستطيع أن أرى هذا الصحن؟. قالت سر ورائي فسرت. وصلنا إلى طبق كبير يمتليء باللحم.

أشارت إلى الطبق وقالت: تفضل بأكله كله. قلت لها: إياك أن تهوهوي بعد أن آكله أو تتهميني بالسرقة. . لا أريد أن أسيء إلى الراعي. . قالت: أنت تخاطب ناهيش كلبة الأميرة بريسكا. . وما تقوله عيب. . حنيت رأسي على الطبق وزلطت اللحم زلطة واحدة. لم يكن لديّ وقت للمضغ. من يدري ماذا تأتي به اللحظة التالية. . بعد غمضة عين كان الطعام قد تبخر. . قالت الكلبة كيف تأكل بهذه السرعة. . أنت مفجوع. . ! لقد قررت أن أتزوجك. . اكتشفت أنني أحبك. أيكون هذا هو الحب من أول نظرة. . قلت لها اعتذر عن الزواج وأشكرك على الحب. . ليس في قلبي مكان للحب. عندما يستغرق السعي وراء اللقمة كل طاقة المخلوق، يصبح من العسير عليه أن يحب. الحب ترف لا يقدر عليه الفقراء من أمثالي. . قالت حالمة: شجاع ونحيف ومفجوع وفيلسوف. . زاد حبي لك. دعني أشم رائحتك. تفوح منك رائحة البنفسج. قلت لها في الخرابة شجرة بنفسج فعلاً. كنت أتصور أن الترف قد أفقدك حاسة الشم. . قالت: يدور رأسي كلما رأيتك تقف جواري. هاودني وتزوجني. قلت لها وأنا أجري بعيداً عنها: اسمع سيدي يناديني فمعذرة. . هرعت إلى الراعي. وكان الملك مهتاجاً يصرخ في الراعي: لم أرك مرة واحدة تسجد لالهنا أيها الراعي. راقبتك وأنت تمر على تمثال الاله في الحديقة ورأيت كيف تجاوزته دون سجود هل جننت؟.

قال الراعي: ضعف نظري يا مولاي فلم أر إلهك الموقر.

ارتعشت في مكاني. ماذا لو علم الملك أنني تبولت على صنمه المعبود. عاد الملك يقول وهو

مهتاج: هذه مملكتي أنا. ولن يعبد فيها غير الاله الذي أحدده أنا. وليس للناس رأي غير رأيي أنا. لقد قررت أن يكون حد السيف هو الرأي المطاع في المملكة.. وسوف احاسب حتى على الاحلام والافكار التي تدور في الرؤوس.

قال الراعي: وفق الله الملك في خططه المستقبلة. ست قطع من الذهب للعجول والخراف والماعز.. أحضرت إليك عجلاً سميناً أرجو أن يدفىء بطن مولاي.

أراد الراعي الانصراف فسأله الملك بدهاء مفاجىء:

- أيها الراعي.. أراك تحدث وزيري كثيراً هذه الأيام.. أي شيء يجمع بين راعي غنم ووزير من وزراء المملكة؟. ارتعش الراعي ولاحظت ارتعاشته.. خرجت من جسده رائحة خوف مفاجىء استطيع تمييزها.. أدركت أن الراعي مهدد بشيء لا أدريه.. وقفت ونبحت ضد الملك.. أسكتني الراعي بإشارة من يده وقال للملك:

- لا شيء بيني وبين الوزير أيها الملك.. كان يريد.. كان يريد.. نعم.. تذكرت الآن.. كان يريد توريد اللحم لبيته.

قال الملك بدهشة: لست أعرف أن الوزير من هواة اللحم.. يقولون إنه نباتي لا يأكل اللحم.

قال الراعي وقد عاد اليه الهدوء:

ولكن أسرته تأكل اللحم.. لم أكن أعلم أن وزير المملكة نباتي..

قال الملك فجأة: تستطيع أن تنصرف أيها الراعي..

ألقى إليه الملك ثمن الماشية وانصرفنا.. لم يذهب الراعي مباشرة إلى بيته.. مر على أكثر من بيت وراح ينقر عليها نقرات خفيفة. بعدها ألبسني حول رقبتي طوقاً من النحاس وتركني في حديقة بيته المقفرة. وجاء منتصف الليل فانسل الراعي من فراشه الدافىء وتبعته. خرج من المدينة قاصداً الجبال القريبة فمشيت وراءه. دلف إلى مكان يقع بين جبلين فدلفت معه. كان هناك ستة رجال.. بعضهم رأيته في قصر الملك. وبعضهم لم أره من قبل. احتضنوا الراعي وقبلوه وبدأ حوارهم الهامس.

قال الراعي: ادركت من سؤال الملك اليوم أنه يعرف الصلة بيني وبين وزيره.. يبدو أن الملك يشك في شيء.. أرى أن ننصرف بسرعة.

قال أحدهم: جن الملك. وغداً يبدأ إرهابه. قال رجل آخر: لقد قرر أن يمزق كل من يعبد إلهاً غير آلهته المتعددة. قال الثالث: نحن جميعاً معرضون لخطر الذبح أو الرجم.. وتساءل رابع عن الخطوة التالية. قال الراعي: أرى أن ننتظر إلى الغد ثم نجتمع هنا في نفس الموعد. إذا نفذ الملك تهديده تركنا له المملكة وهاجرنا. أعرف كهفاً قريباً نستطيع أن نقضي فيه النهار، فإذا جاء الليل تسللنا خارج المدينة.. انتهى الاجتماع فانصرفنا فرادي.

نام الراعي فقلت أذهب إلى ناهيش في القصر.. ذهبت إليها فوجدتها تنتظر. قالت لي وأنا أنصرف: أعطني شيئاً اتذكرك به يا حبيبي إلى أن أموت. خلعت لها الطوق النحاس من رقبتي. كان يضايقني. انصرفت. لم أكن أعرف أن هذه هي المرة الأخيرة التي أراها فيها.

تنفس الصباح وانعكست أشعة الشمس على برونز السيوف وهي تحصد الرقاب لمجرد الشبهة. قرر الملك أن يقنع الناس برأيه مستخدماً سيوف جنده كأداة مبدئية للاقناع. كانت سلطات المدينة تقبض على الناس وترجمهم قتلاً بالحجارة.. ثم تقيم لهم بعد ذلك محاكمات عادلة يحكم عليهم فيها بالاعدام. فإذا سأل القاضي اين المتهمون الذين يحاكمهم لتنفيذ عقوبات الرجم فيهم.. حدثوه أن سيف الملك سبق عدل القضاة.. ويصفق الحاضرون إعجاباً بعدل الملك وسرعته. وهكذا تطايرت رؤوس كثيرة، ورجم ناس كثيرون، ووجدت نفسي في مأزق. أن الراعي مهدد هو الآخر بافتضاح أمره ورجمه. ولن تسلم رقبتي بصفتي كلباً يعيش معه. ما العمل إذن. هل أهجره؟ أكون خنزيراً لو فعلت. أنا كلب صفته الأولى هي الوفاء. قلت في نفسي: لن أهجره ولو تطايرت رقبتي ألف قطعة.. على العكس.. زاد حبي له وزادت بنفس الدرجة دهشتي من أهل المدينة. إنهم يشاهدون أنبل من فيهم يقتل فلا يحركون ساكناً.. تطورت الاحداث بسرعة شديدة.. سمعنا خبطاً على باب الراعي فهوهوت.. فتح الراعي الباب.. دلف منه ستة رجال.. من بينهم وزيران للملك. قال الرجال الستة للراعي الى الكهف أيها الراعي. أسرع.. ليس هناك وقت.. وأسرعنا وراء الراعي إلى الكهف. .أمرني الراعي أن أجلس على باب الكهف من الداخل. وأن أحرسهم جيداً وأنبح إذا اقترب أحد.

لم أكن أريد أن أنام.. هذه أول مهمة رسمية يكلفني بها الراعي ويجب أن أثبت وفائي.. سمعت أحدهم يقول: ﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا﴾..

سمعتهم يقولون ﴿ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً. وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا﴾..

تفرق الرجال في الكهف ورقدوا..

كانت مهمتي هي حراستهم. بسطت ذراعي بالوصيد واتخذت وضع الحراسة..

أغمضت عيناً وفتحت عيناً وقلت أحرس هؤلاء المؤمنين بالله.. ثم وجدت عيني المفتوحة تنغلق من تلقاء نفسها.

رحت في النوم.. استيقظت أول واحد.. وجدت نفسي ميتاً من الجوع.. وجدت شعري قد نما حتى أدهشني منظره.. ما هذا؟ أنكون قد نمنا اسبوعاً.. نبحت أوقظهم فاستيقظوا.. خرجوا إلى باب الكهف فرأيتهم في الضوء وازدادت دهشتي. كانت لحاهم قد طالت لأقدامهم، وكان شعرهم يسترسل وراء ظهورهم ويجرجر على الأرض مثل طرحة العروسة. كان منظرهم مرعباً.. أردت أن أفر منهم لولا أنني تشممت رائحتهم فوجدتها كما هي لم تتغير.. بدأوا يتساءلون بينهم ﴿قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا. إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً﴾.

تقرر اختيار الراعي للخروج وخرجت معه . .

بصراحة . . كدت أفقد عقلي . . أين ذهبت أفسوس . . أين ذهبت البيوت والقصور والدور والخرائب . . كانت هناك مدينة ثانية . وملابس ثانية . وكلاب لا تشبه الكلاب التي تركتها قبل أن أنام . التفّ الناس حول الراعي وراحوا يشيرون إلى ملابسه ويتهامسون . . أهذا سائح جديد ؟ . ما الذي يرتديه ؟ . لماذا طالت لحيته هكذا ؟ . أنظروا إلى كلبه هو الآخر ؟ . أنظروا لشعره الطويل؟ راحت الكلاب تنبح حولنا ثم تفر مذعورة كأن ألف شيطان يطاردها . دخلنا مطعمًا دلنا عليه الناس واشترينا قليلاً من اللحم والخبز، ومد الراعي يده في جيبه وأخرج قطعة ذهبية من القطع الست التي أعطاها له الملك قبل أن نلجأ إلى الكهف وننام . . لم يكد البائع يرى عملة الراعي حتى صرخ : عملة أثرية . من أين أحضرتها أيها الرجل الغريب . هل عثرت على كنز ؟ زاد اللغط وتكأكأ الناس حول الراعي فقلت : أطير إلى ناهيش فهي وحدها التي تستطيع أن تحدثني عن الحقيقة . كان هناك قصر آخر بدلاً من قصر الملك الذي تركته . لم يزل بهو الأعمدة على حاله وإن كان قد تكسر وأدركته الشيخوخة .

نبحت قائلاً : ناهيش . . أين أنت يـا ناهيش . خرجت لي كلبة سمراء وتساءلت : من الذي يدعو جدتي من أعمق أعماق الموت ؟ ملأتني الدهشة .

كانت هي ناهيش بعينها . .

قالت الكلبة : أنا ناهيش الصغيرة . . خيل إليّ أنها تتدلل عليّ فاقتربت منها فتراجعت كأنني شبح ، ماذا تريد مني أيها الكلب الغريب الذي خرج من التاريخ عائداً إلى الزمن . قلت بنفاذ صبر : ما هذه الفلسفة يا ناهيش . . أين ذهب حياؤ ك القديم . . أين ذهب صفاء عينيك . قالت ضاحكة : كله إلا الحياء وصفاء العينين . . من أنت وماذا تريد؟ قلت لها صارخاً متوجعاً : أهكذا تغيرك ليلة واحدة؟ . . أيها الوفاء الذي التصق زوراً بجنس الكلاب . . في أي بحر من بحار الغدر ترقد . . قالت بدهشة :

لماذا تبكي هكذا وأنا لم أرك قبل الآن . أدركت أنها تنكرت لي . . يحدث هذا كثيراً في دنيا الكلاب . . قلت لها بألم وتوجع : تتنكرين لي بعد كل ما حدث؟ إن السماء تنشق داخل قلبي ، والنجوم تهوى محترقة . والشمس تنطفىء . أمات حبك لي قبل أن نهضم طعام العشاء؟ حمداً لله انني لم أتهدم . لم أنهر . لم أتزلزل . لم أزل أتنفس . . لم أزل حياً لأنك لا تزالين حية . . هاووو هاوو .

قالت منتشية : كلام لم يقله لي كلب في حياتي قط ، على كثرة من عرفت من الكلاب . ما الذي فعلته لك لتعوي هذا العواء ، كيف أخونك وأنا لم أرك غير الآن . . حركت رقبتها فرأيت الطوق المعدني الذي أهديته إليها ليلة زواجنا . قلت لها : كيف تحتملين مس الطوق على رقبتك . ألا يحرقك نحاسه . . تخونين من أهدى إليك الطوق ، ثم تلبسينه بكل التبجح . . قالت وهي تتراجع : آه . . أدركت حكايتك . . ليس هذا الطوق ملكاً لي . هذا طوق كلبة الأميرة بريسكا . وقد ماتت منذ ثلاثمائة عام . . توارثناه منها جيلاً بعد جيل . . يا إلهي . . تقول إنك أهديت إليها الطوق . .

هل أنت قطمير. . هل أنت الكلب الذي أحبته وماتت وهي تعوي مقسمة على الوفاء له. . هل أنت. .

لم أسمع بقية حديثها. . أحسست أنني أنهار وأتقوض. . بدأت الحقيقة تسطع في عقلي وتغزو كياني فجأة. إذا كانت ناهيش قد ماتت منذ ثلاثمائة عام، فهذا يعني أننا نمنا أكثر من ثلاثمائة عام. .

ارتعش داخلي شيء وبدأت أفهم. . ذهب صنم الآله المعبود من أفسوس. هذا معناه أن الإيمان هو الذي انتصر. أنكون قد نمنا ثلاثمائة عام لنكتشف هذه الحقيقة. . بالنسبة لي، كانت ناهيش قد ذهبت. . ضاعت. . ماتت. وكان هذا كل ما يعنيني من الأمر. . انخرطت في بكاء عميق ودفنت رأسي في الأرض وعويت. . قالت حفيدة ناهيش وهي تقترب مني أكثر: يا إلهي. . ألهذا الحد أحببتها. . كنت أتصورك تتحدث إليّ. . ظننت أنك تغازلني أنا. . لماذا خفق قلبي حين رأيتك. . أيكون الحب قادراً على الاستمرار رغم الزمن. . لماذا لا تكلمني. . يقتلني تجاهلك لي. . أنا أجمل من جدتي ناهيش. . أنظر كيف قصصت شعري على الموضة. كانت كلماتها تصل إلى عقلي مختلطة بصوت بكائي. . قالت حفيدة ناهيش وهي تضع رأسها على صدري. . حاول أن تنساها. . أنظر إليّ وحاول نسيانها. أزحتها وعدت إلى الكهف. . نادتني حفيدة ناهيش. . هوهوت لي بحب، توسلت وهزت ذيلها، ولكنني كنت غريقاً في بئر من الأسى العميق والحزن الأسود. . ذهبت ناهيش. لن أسمع صوتها بعد اليوم. لن أشم رائحتها. لن تلمع عيناها بالحب. . خيل إليّ أن طرقات المدينة تجهش بالبكاء. . طاردتني كلاب المدينة وكانوا يهوهوون ثم يفرون أمامي مذعورين. . زاد إحساسي بالوحدة واليأس ورأيت أقدامي لا تكاد تحملني إلى الكهف. تحاملت على نفسي حتى وصلت. . رأيت أهل الكهف وقد أصابهم ما أصابني. كانوا ذاهلين يتبادلون حواراً متقطعاً لاهثاً يتخلله صمت غريب. . جريت إلى الراعي ورميت نفسي على قدميه وأجهشت بالبكاء، لم يعد لي غيرك في الدنيا أيها الراعي. . ذهبت ناهيش. . ماتت.

مد الراعي يده إلى رأسي وراح يربت عليها.

كان رأسي يدور. .

سمعت الراعي يسأل الوزير: كم قالوا إننا لبثنا في الكهف.

قال الوزير: ثلاثمائة عام وتسع سنوات.

قال الراعي: كيف نمنا كل هذه الحقبة. .

قال الوزير: هذه إرادة الله.

قال الراعي فرحاً كمن اكتشف شيئاً: أطلعنا الله على عاقبة أمره في المكذبين. .

قال الوزير: صدقت أيها الراعي. . انهزم الملك وسقطت آلهته. . من كان يتصور.

قال أحدهم: قد علمنا الآن أي الحزبين أحصى لما لبثنا أمداً. .

قال أحدهم: أقول لكم شيئاً. . لقد أحسست بالغربة في المدينة. . عدت إلى الكهف كمن يعود إلى بيته. مات أبنائي وزوجتي ولم يعرفني في المدينة أحفاد أحفادي، ذكرتني فجيعته بفجيعتي فهوهوت معولاً. .

تذكرت ناهيش القديمة ورحت أقارن بينها وبين حفيدة حفيدتها فازداد حزني على القديمة . .

اقتربت أصوات عديدة من الكهف فنسيت حزني وقفزت إلى باب الكهف ونبحت.

كان ملك المدينة الجديد ووزراؤ ه وكبار حاشيته يتقدمون شعب أفسوس كله . . كانوا قادمين إلى الكوخ وهم يمسكون بأيديهم أغصان الزيتون والزهور والورود. من المدهش أن حفيدة ناهيش كانت معهم . .

لم أكد أرى هذا الجمع حتى نبحت مرتين بعنف فتوقفوا جميعاً. أشار الملك لي: معهم كلب . . ما أعجب ما حدث . .

قال أحد وزرائه: نام الكلب مع القديسين ثلاثمائة عام وتسع سنوات . . عاودت النباح فوقفوا في مكانهم جامدين. رفع أحد حراس الملك سيفه يخيفني فازداد نباحي. قال الملك وهو يعترض يد حارسه.

ـ إياك أن تمس هذا الكلب المبارك . . لقد نام معهم طوال الفترة التي ناموها . . ثم إننا لا نقتل الكلاب بغير جريمة . . من يؤ من بالله لا يؤ ذي مخلوقاته الأضعف. أدركت أن العدالة قد عادت إلى الأرض فكففت عن النباح.

حين عاد الإيمان بالله عادت معه العدالة.

صاح الملك: أيها القديسون . . ليخرج منكم أحد. إن ملك أفسوس هو الذي يخاطبكم. خرج الراعي وخرج بعده رفاقه.

انحنى الملك ووزراؤ ه وحاشيته وانحنى الشعب لنا . .

قال الملك: أيها القديسون المباركون . . نريد أن نسمع قصتكم.

كنت أعرف القصة فانصرفت إلى باب الكهف وجلست . . جاءت حفيدة ناهيش تقول لي: لماذا تجلس وحدك . . ألم تزل تذكرها.

قلت: لم أنم غير ليلة واحدة . . فكيف أنسى في ليلة واحدة.

قالت: بل نمت سنين عدداً.

قلت: نامت عيناي وظل قلبي يقظاً فكيف أنسى.

قالت: فيلسوف أنت يا قطمير . .

قلت هامساً: كانت تسميني فيلسوفاً ومـفجوعاً . .

قالت حفيدة ناهيش: ماذا تقول:

قلت: أبداً . .

قالت: أراك تشيح برأسك عني:

قلت: لم يزل قلبي مشدوداً إليها . .

قالت: الوفاء طبعك الأصيل يا قطمير . . لكنه وفاء يجرح قلبي. أتراك لم تعد كلباً . .

قلت: لست أعرف . . لقد متنا ولم نمت . . نمنا فكيف نمنا ثلاثمائة عام وتسع سنوات . .

أغمضت عيني وفتحتها فإذا العصر غير العصر والمدينة غير المدينة والناس غير الناس . . إن آية الله حين تقع تثير دوار العقل والقلب . . وعقلي يدور وقلبي ينسكب في صدري كالماء ينسكب

لم أعد أحس أنني أنتمي لجنس الكلاب على الأرض.. إنهم يفرون مني... يهربون.

قالت: ولكنني لا أفر منك.. أنت الذي يفر مني.

قلت: النتيجة واحدة، والغربة أصلاً متحققة، وفرارهم مني هو السبب في فراري منك.. والنوم في الكهف يفصل بيننا، لم أعد ملكاً لزمانك أي زميلة الهوهوة..

حيل بيني وبين هذا العصر عندما أغمضت عيني في الكهف.. أنا ملك للتاريخ.. صرت ملكاً للتاريخ.. صرت آية من آيات الله أنا المخلوق البسيط القريب من الأرض.

إنني أرتعش بالغربة والدهشة وشيء من العظمة.. لا أنكر. يزيد حزني على جدتك ناهيش ويزيد فرحي في نفس الوقت.. ولد فرحي الآن فلماذا ولد. أتراني في الطريق إليها..

خيل إليّ أننا ندخل باب الكهف من جديد، لننام بحق هذه المرة..

خيل إليّ أن ناهيش هناك.

في هذا الركن الساكن المظلم الرائع.

وألقيت بنفسي في ظلام النور.



طين عيسى

﴿إذْ قالَ اللهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ، إذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ، تُكَلِّمُ النَّاسَ في المَهْدِ وَكَهْلاً، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإنْجِيلَ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْني، فَتَنْفُخُ فيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْني﴾.

(سورة المائدة ـ آية ١١٠)

طيناً كنت. . ثم صرت طيراً بإذنه سبحانه.

من الطين الذي لا حراك فيه، إلى طير يحلق في السماء. . نفس المادة التي لا تقدر على الحراك، هي ذاتها التي تستطيع الطيران. . هذا أنا. .

لا أعرف كيف أقدم نفسي إلى التاريخ. .

قدمني الله تعالى في آخر كتبه بقوله ﴿إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك، إذ أيدتك بروح القدس، تكلم الناس في المهد وكهلا، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني﴾.

هذا أنا. .

حفنة من الطين كنت. .

أميرة على الطين كنت. . أميرة رغم ذراتي الطينية. . ثم وقعت في الحب. .

قبل أن يمسكني عيسى بن مريم. . وقعت في الحب. . وحين وقعت في الحب دلفت نحو أرض التحولات. .

كيف يصف المخلوق عطر أرض هي في الأصل سماء. .

هادئة كنت وراكدة وراضية بوضعي كطين. . لم أكن أحلم. . لا يملك الطين القدرة على الحلم. . هذه القدرة أعلى من مواهب الطين. . ورغم هذا الوجود الذي يخلو من الحلم كنت راضية. .

كان لي تاريخ قديم قبل أن أصير طيناً من طين الأرض. .

في البدء كنت جزءاً من الشمس، ثم مرت بلايين السنين دون أن أحب فانطفأت الجذوة



المشتعلة وتحولت إلى صخر في كوكب يسمونه الأرض في بقعة يسمونها فلسطين. . طين من أرض فلسطين أنا فانظر كم تعذبت. . مرت آلاف السنين. . دون أن أحب. .

كنت أشرب الماء وارتوي وأقدم الزهور المعطرة رغم أنني أعيش بلا حب. . هذه فطرة الطين أن يرتوي ويزهر.

تكفي بذرة واحدة لأصـنع منها ما يثير دهشة العقل والقلب. لكنني ظللت كما أنا طيناً من طين الأرض. .

لم أكن أرى غير المساحة التي تحتلها ذراتي. . لا يرى الطين بعيونه، ليس للطين عيون، أحياناً أرى بعين دودة أو زهرة. . لا أعرف ماذا يجري جواري. . ولا أعرف ماذا يقع فوقي. .

لا أعرف. . لكنني أحياناً أسعد. . وأحياناً أشقى. .

تسعد الأرض وتشقى رغم أنها بلا قلب ولا مشاعر. . آه. . هذا سر من أسرار الطين ولست أعرف كيف أحدث الناس عنه. . لا بأس. . ليست رغبتي أن أتحدث عن نفسي، ولكنني أريد أن أفعل.

ألا يتحدث من يحب عمن يحب. .

لقد أحببت نفسي. . . أنا قطعة الطين. . حين وقعت في الحب. . ولقد سمعت عن عيسى قبل أن يولد، وشاهدته بعد أن بعث. . ووقعت لي على يديه معجزة التحول من طين هامد إلى طير محلق. . كنت قطعة من الطين في حديقة تلتصق بالمسجد الأقصى. . وكانت مريم تمر جواري دون أن تتوقف وهي في طريقها إلى الصلاة في المحراب. . وحاولت عبثاً أن ألفت انتباه مريم إلى نفسي. .

لم أستطع. . عبثاً حاولت استدعاء نظراتها إليّ دون جدوى. . وفكرت طويلاً ولم أستطع أن أفعل شيئاً. .

ثم نبتت شجيرة ورد صغيرة وضعيفة من طيني ذات يوم. .

كانت الشجيرة مجرد عود أخضر لم يتحول إلى لونه الداكن بعد. . وفوجئت ان مريم تتوقف أمامي يوماً وتنظر إلى شجيرة الورد. .

أردت أن ألفت انتباهها أكثر فلم أستطع. . ووسط حيرتي وأحزاني تنهدت. . فتفتح برعم صغير في الشجيرة. .

واستدار وجه مريم العذراء وراحت عيناها تتأملان معجزة البرعم الذي يستيقظ.

يومها سقتني مريم. . وأحسست بارتواء يختلف عن ري المطر. . كان الماء الذي روتني به هو نفس الماء الذي تشرب منه. . كان الماء عذباً ومعطراً بزهر الليمون، وكان فيه مذاق غير أرضي. . وارتويت يومئذ رياً يشبه العطش. . ووقعت في حب مريم. . كان هذا أول حب أعرفه. .

ألا يتحدث من يحب عمن يحبه. .

أريد أن أصف لكم مريم. . لن أستطيع. . لم أكن أراها كلها، كنت أرى الجزء الذي يقع أمامي مباشرة من وجهها. .



كان وجهها عذباً يشيع فيه النبل، وكانت عيناها تعكسان نظرةً تضطرب بين دهشة البراءة وجمال الصفاء العفوي. .

كان وجهها كالحلم. . كالنهر. . .

بوصفي طيناً لا يحلم أحببت وجهها مرتين. . مرة لأنه وجهها، ومرة لأنني لا أحلم. . وبقدر عجزي عن الحلم كان حبي لها عميقاً وهادئاً وصامتاً. . آه لو كنت أملك القدرة التي تملكها الطيور على التعبير. . آه لو كنت طيراً يستطيع الغناء. . وقف فوق طيني ذات يوم بلبل وراح يغني أغنية قصيرة بدت لي مثل مجموعة من النجوم التي تدور معاً في انسجام كوني. .

وتمنيت لو كنت بلبلاً. .

آه. . كنت أغني طويلاً عند أقدام مريم. .

طويلاً كنت أغني عند أقدامها. .

من عجائب الحب المبدئية أنك لا تعرف لماذا أحببت، ثم يزيد حبك فتعرف لماذا زاد، ويظل السبب الأصلي للوقوع في الحب سراً غامضاً لا يكشف عن ملامحه قط، لم أعرف لماذا أحببت مريم. . ثم زاد حبي لها ذات يوم وان عرفت هذه المرة لماذا زاد. .

﴿وإذا قالت الملائكة: يا مريم. . إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾. . .

فهمت أنني أحببت من توجها الله أميرة على نساء العالمين. . وفهمت سر طهرها الذي يبدو القمر جواره مثل شمعة مطفأة. .

وزاد حبي لمريم. . كيف تقاوم ذرات الطين الوقوع في حب قيمة كهذه القيمة. . عادت الملائكة تخاطب مريم:

﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾.
كان الأمر الصادر لها بعد البشارة أن تزيد من خشوعها لله وسجودها له وركوعها
فرحت لها وحزنت لنفسي..
نسيتني مريم عاماً في غمرة انفعالها الجديد باداء الصلاة.. كانت مريم حين تص
نسبة النبل الكوني، وكان جحود الشيطان وعصيانه يبدو جوار صلاتها مثل حفنة رماد ه
آه.. نسيتني مريم طويلاً.. انشغلت عني بالصلاة.. بدأت أنتظرها كل يوم.. تعله
الإنتظار.. ولم أكن أجد من أشكو إليه غير شجرة الورد.. كانت الشجيرة قد تحولت
شجرة ورد..
قلت لشجرة الورد: نسيتنا مريم العذراء..
لم تقل شجرة الورد شيئاً.. عدت أقول: ربما لم تنسنا.. ظلت شجرة الورد صام
الرياح فتحركت احدى الورود وسقطت من فوق أوراقها البيضاء قطرة من الماء.. لم
كانت السماء تمطر، أو كانت الوردة تبكي.. لم أعرف.. كل ما عرفته أن هذه ال
كانت هي الجواب الوحيد الذي قدمته شجرة الورد خلال حوارنا..
خيل إليّ في نفس اللحظة أن مريم تبكي وهي تصلي.. وملأني يقين طيني عميق
مريم كانت سببا في بكاء الورد.
وزاد حبي لمريم.. زاد بمقدار انتظاري لها، وزاد بنفس نسبة النمو في شجرة الور
أن الحب ملأني بخصوبة لم أكن أدريها في نفسي فولدت عشرات من أشجار الورد..
ورحنا جميعاً ننتظر العذراء..
ثم وقع حدث كوني ذات يوم..
أشرقت الشمس وجففت كل طيني، وعبرت كل السحابات المحملة بالمطر
تتوقف.. وتشققت من العطش، وكان عطشي لرؤية الأميرة التي توجها الله على نساء ال
من عطشي إلى الماء.. وانحدرت الشمس أخيراً نحو فراشها الغامض في الغرب..
الليل.. كان ليلاً قائظاً من ليالي الصيف.. واشتد عطش الورود فمالت بعنقها نحو
أصغر الورود:
□ قتلني العطش.. هل أبدأ رحلتي نحو الذبول؟..
كانت الوردة تسألني فلم أجب.. لم أعرف ماذا أقول.. صليت لله صلاة قصيرة
من العطش، قبل أن أنتهي من الصلاة كانت مريم تجري نحوي وهي تحمل اناءها والم
منه وهي تجري.. تذكرتني مريم فجأة بعد صلاتها.. وجاءت في اللحظة المناسبة تماماً
مريم.. كنت أشرب الماء بلا صوت.. ثم أدفع به نحو سيقان الجذوع وأطمئن أن
راحت تشرب..
فجأة.. وقع حدث كوني هائل..
أحسست بالحدث في اللحظة التي وطئت فيها أقدام الملك أرض المكان.. نزل ج
الملائكة ووقف أمام مريم.. شعرت به قبل أن تراه مريم.. رغم أنني طين من طين الأ

أننا نشعر بآيات الله ونحسها ونستجيب لها قبل أن يشعر بها البشر أو يحسونها، امتلأت ذراتي الطينية برغبة في الطيران حين نزل جبريل.. ورفعت الورود رؤوسها البيضاء ونظرت إليه..

بعد لحظات شاهدته مريم، فوجئت به في البداية.. تأملت وجهه فلم تر أنها تعرفه.. كان جبريل عليه السلام يرتدي عباءة الصور البشرية، ولكن بهاءه كان ينفذ مثل أشعة لا يحجزها شيء من خلال ردائه البشري.. أحست مريم بالخوف والقلق فاحتمت بالله.. تصورت أنه رجل غريب تسلل إلى خلوتها، قالت بخوف: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً.

ابتسم ملاك الرب جبريل ليطمئن قلب مريم.. أجابها في صوت هادىء:

□ إنما أنا رسول ربك..

حين اطمأنت مريم ساق إليها ملاك الرب سر نزوله إلى الأرض قال:

□ لأهب لك غلاماً زكياً..

فرحت مريم ولكن فرحتها تكسرت قبل أن تولد، تذكرت أنها عذراء.. لم يمسسها بشر.. لم تتزوج.. لم يلمسها إنسان.. كيف تلد..

دارت هذه الأفكار في رأس مريم مثل طيور فزعة.. سألت الروح الأمين: أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً..

قال: كذلك قال ربك.. هو عليّ هين.. ولنجعله آية للناس ورحمةً منا وكان أمراً مقضياً.

في الدنيا عبارات تحمل معاني هائلة.. من هذه العبارات كلمة جبريل عليه السلام لمريم عليها السلام..

قال لها ﴿وكان أمراً مقضياً﴾.

أراد أن ينهي نقاشاً طويلاً من الدهشة التي قد تخامر نفس مريم بعد علمها أنها ستحمل وتلد بكلمة من الله..

كانت مريم عذراء وهبها أهلها لخدمة المسجد الأقصى.. وكان مجدها وشرفها أنها عذراء في خدمة المسجد..

كيف تلد العذراء؟ ماذا تقول للناس؟ كيف تدافع عن نفسها وسط عالم شرير لا يؤمن بآيات الله ولا يصدق قدرة الله؟ لست أعرف بوصفي قطعة من الطين في البقعة الشرقية ماذا كانت أحاسيس مريم أو مخاوفها أو أفكارها.. لا أحد يعرف سوى الله..

ولهذا قال لها ملاك الرب ﴿وكان أمراً مقضياً﴾..

أنهى مخاوفها أو وضع حداً لها أو أمرها أن تصرف ذهنها عن الأمر كله، فقد كان أمراً مقضياً.. قضاه الله وشاءه..

مهمة مريم اذن أن تصرف ذهنها عن التساؤلات إلى شيء آخر.. عليها أن تستسلم للأمر المقضي..

تستسلم وتتفاءل وتفرح.. إن الله تبارك وتعالى شاء لها أن تكون مطهرة ومصطفاة على نساء العالمين، وشاء لها أن تصير أما لنبي كريم يولد بكلمة من الله وروح منه..

نفخ ملاك الرب جبريل في الهواء. فوقعت المعجزة وتحولت العذراء إلى أم تحمل آية الله.
﴿وكان أمراً مقضياً﴾.

رددتها مريم بعد اختفاء الملاك، وانصرفت مسرعة إلى محرابها ونسيت الإناء الذي تشرب منه، والذي جاءت تسقينا منه..

أحببت مريم العذراء الأم، أكثر مما أحببت مريم العذراء.. زاد حبي لها بمقدار حبي لهذا المولود بكلمة من الله..

مرت أيام وشهور.. كنت أرى مريم كثيراً.. كانت هناك على مبعدة قصيرة مني مجموعة من أشجار النخل الطويل، وكانت الأم العذراء تتمشى من البقعة الشرقية التي يقع فيها طيني، إلى النخيل الذي يبتعد عنا خطوات..

وكانت مريم تقف طويلاً عند النخيل.. وأحياناً كانت تجلس على العشب.. أحياناً كانت تذكر الله، وأحياناً كانت تبدو صامتة وشاحبة..

وذات يوم جاءها المخاض وهي تجلس جوار جذع النخلة، قالت وسط آلامها: ﴿يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾.

رغم إيمان مريم العظيم، ورغم اصطفاء الله لها، ورغم مشيئته أن تحمل آيته إلى البشر، رغم كل هذا المجد كانت موجبات القلق في نفس العذراء أكبر من موجبات الطمأنينة..

هذا قلق الطين البشري..

أستطيع كطين أرضي أن أفهم هذا القلق وأقدره.. ان مريم تنتمي لمجتمع بشري لا مجتمع من الملائكة، وهي تخضع لقوانين البشر أصلاً، ومن هذه القوانين ان المرأة لا تلد إلا إذا تزوجت، فإذا زعمت أنها لم تتزوج ثم ولدت.. كان هذا دليلاً على البغاء..

ليست المشكلة هينة إنما هي ثقيلة الوطأة.. سوف تتهم العذراء بالبغاء.. أي تضحية يقدمها البشر الذين يصطفيهم الله.. إن التضحية تبدأ عندهم من الشرف وتنتهي بأن يدق الجسد بالمسامير أو ينشر بالمناشير أو يطعن غيلة من الخلف..

كانت مريم أطهر امرأة في الأرض.. ورغم ذلك فسوف يردد مجتمعها كله هذه الكلمة:
﴿يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً﴾.

عبرت الجملة ذهن مريم قبل أن تلد.. وكانت تعذبها وتدهشها.. فهي لم تختر مما يقع شيئاً، إنما هو أمر مقضي..

هكذا حدثها ملاك الرب..

حين جاءها المخاض وأحست بآلام الوضع خرجت من فم مريم كلمات الضعف البشري:
قالت: ﴿يا ليتني مت قبل هذا.. وكنت نسياً منسياً..﴾.

أي عذاب كانت تتعذبه لتقول مثل هذه الكلمات.. ذلك عذاب فوق طاقة البشر على التحمل.. قشرته من الخارج هي العذاب ولكن لبه وقلبه الرحمة الحانية والمجد الإلهي..

قالت مريم كلمتها وهي تلد.. حين فوجئت بالمولود ورأت بعين الخيال ما ستلقاه من مجتمعها

وقومها. . حين وقع هذا عادت مريم إلى الضعف البشري وتمنت لو كانت نسياً منسياً. .
في هذه اللحظة ناداها من تحتها:
﴿أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً، وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً، فكلي واشربي وقري عيناً فأما ترين من البشر أحداً فقولي اني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾.

انتهى الأمر وبدأ صوم العذراء عن الكلام.
خرجت بالطفل وعادت إلى قومها وهي تحمله. .
وبدأ اللغط وطارت الشائعات ولم يعد للمجتمع اليهودي المنافق كله غير حادث العذراء التي ولدت. .
تجاوز المجتمع اليهودي الظاهرة الخارقة فيما حدث، وتوقف عند طين الشائعات وراح ينثر من شفتيه طيناً مماثلاً ملأ به الجو. .
كنت أمثل الأرض، وكان أبنائي من الورود يمثلون النبات. . وكنا معاً شاهدين على طهارة مريم وبراءتها. .
لم نكن وحدنا الشهود. . كان الكون كله شاهداً على براءتها، وكان رب الكون يعلم كل شيء، ورغم ذلك مرت مريم العذراء بأيام عصيبة. . كان المجتمع اليهودي يعرف في قرارة نفسه براءة مريم. . ولكن نفاقه حكم عليه أن يقف في صف اتهامها. .
رغم أنني جزء من طين الأرض إلا أنني أستطيع أن أفهم هذه الظاهرة العجيبة. . حين ينحط مجتمع ما. . يرفض أن يصدق وجود النقاء أو الطهر في أي صورة من الصور. . بل ان هذا المجتمع نفسه يقف ضد النقاء والطهر في أي صورة من الصور. .
إن وجود النقاء في صوره العليا يؤذي مشاعر النفاق والفساد. . ومن ثم يستل الفساد أسلحته ويبدأ الحرب. . وليس هناك أسهل من حرب الشائعات الوضيعة. .
ولقد وقع حادث حسم الأمر كله، أو كان المفروض أن يحسم الأمر. . ورغم ذلك لم يفلح هذا الحادث في قطع الألسنة الموحلة. .
عادت مريم وهي تحمل عيسى، عليهما السلام. . سألها قومها نفس العبارة: يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً. . نفس العبارة التي رددتها مريم في نفسها حين تمنت الموت. . تذكرت مريم هذه المرة ما حدثها به عيسى. .
أشارت إليه. .
فهموا أنها صائمة. . لكن دهشتهم تعاظمت. . كيف يكلمون طفلاً ولد منذ لحظات. . قال رؤساء الكهنة لمريم: كيف نكلم من كان في المهد صبياً؟ ووقعت المعجزة وتكلم عيسى. . قال: اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً. والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً.

رغم هذه المعجزة الحاسمة ظلت حرب الشائعات تدور حول مريم، وظل المجتمع اليهودي يلوك في فمه القصة بعد حذف المعجزات منها.. وزاد احساسي بالألم وزاد حبي لمريم وعيسى عليهما السلام..

رغم انني قطعة من طين الأرض، رغم درجتي البسيطة في عالم الحياة والأحياء كنت أتألم وأحب وأسعد وأشقى..

ومرت أيام.. لم أعد أرى فيها مريم..

نسيت مريم الإناء الذي أحضرت لنا فيه الماء..

نسيته في مكان قريب مني..

يا إلهي.. كيف تشرب اذن؟.

افتقدت أخبار مريم وابنها العظيم..

ثم مر جواري ذات يوم بعض حرس الحاكم الروماني هيرودس، وكان معهم رجل يبدو أنه من جهاز الأمن الاستخباري أو المخابرات الأمنية، كان هذا الرجل يسأل أسئلة كثيرة.

نظر الرجل إلى شجيرات الورد وتكعيبة العنب وأشجار النخيل وأمر أن ينصبوا له مائدة جوار أرضي وجلس يسأل الصغير والكبير..

- ما هي قصة الطفل الذي تكلم في مهده؟ ما هي حكاية الشائعة التي تقول إنه هو «المخلص» الذي سيخلص شعبه..؟ من هو شعبه؟.. ممن سيخلص شعبه؟ هل يخلصه من روما؟ هل هناك مؤامرة ضد روما؟ هل يقود المؤامرة طفل يتكلم في لفافته؟ هذا الطفل ستار يخفي وراءه رجالاً كباراً هم مخططو المؤامرة، من هم هؤلاء؟

كانت أسئلة المحقق تنهال بسرعة على الكهنة وسدنة المعبد وكل من كان في السوق أو سمع أو رأى أو خيل إليه أنه سمع أو رأى.. كان واضحاً أن الأمر قد أزعج سلطات روما..

وأدرك الناس أن يد الدولة تتحرك وتوشك أن تضرب، ولهذا أخفوا القصة بأكملها وأنكروها تماماً..

قال أحد الكهنة رداً على سؤال المحقق: هل تصدق أنت يا سيدي المحقق أن طفلاً يولد من غير أب.. أجاب عن السؤال الثاني بقوله: هل تصدق أنت يا سيدي المحقق أن طفلاً مولوداً يتكلم في المهد.. رفع المحقق رأسه وقال: أيها الكاهن.. أرجو أن تجيب على أسئلتي إجابات كاملة، إنني لم أحضر لهذا المكان لتسألني أنت وأجيبك أنا..

أصابت صوت المحقق خشونة مفاجئة حين جاء لهذا الجزء من عبارته.. قال الكاهن وقد سرت إليه عدوى الخوف من خشونة المحقق: سيدي المحقق. أنت تسألني في أوهام وأحلام.. أنا لا أصدق أن عذراء تلد ويتكلم ابنها في المهد.. لا أحد يصدق هذه القصة الخرافية.. لقد أزعجوا سيادتك بلا مبرر..

كان المحقق الروماني يحس بالبؤس لأنه ترك روما وجاء إلى فلسطين وأدرك أن القضية التي جاء يسعى وراء خيوطها تنكشف عن أوهام، أقنعته كلمات الكاهن اليهودي فقد كانت - بمنطقه

المعتاد ـ صحيحة، وانتشر خبر المحقق وتسامع به الناس وأوصى بعضهم بعضاً أن يخفوا تماماً قصة المسيح الذي ولد بكلمة من الله، وتكلم بعد ساعات من ولادته.. كان هذا أكثر أماناً في الظروف القاسية يومئذ.. وأنكر جميع الناس ما شاهدوه بأعينهم وسمعوه بآذانهم.. وحمل المحقق أوراقه وعاد راضياً إلى روما..

اختفى المحقق ولم أعد أراه..

بعد اختفاء المحقق بيومين ظهرت مريم، كانت تحمل ابنها وتسير في ظلمة الليل وهي تتوقف كل خطوات وتتلفت حولها.. وظهر لها ملاك الرب.. أمرها أن تسافر إلى مصر..

أبدت مخاوفها من وحشة الطريق ورهبة الخروج فطمأنها الملاك وأفهمها أن كل أصحاب الرسالات يخرجون من ديارهم فترة..

وهكذا خرجت مريم واختفت أخبارها عني سنوات.. أحببت مصر بقدر ما أحببت مريم وابنها آية الله.. كنت أعرف أن طين مصر قد حنا عليهما وآواهما، وكنت أحس أن أرض مصر أحبتهما بمقدار ما أحببتهما..

ومرت سنوات.. وبلغ المجتمع اليهودي قمة نفاقه.. كان هناك شكل خارجي تتم المحافظة عليه، وحقيقة داخلية تهدرها التصرفات تماماً.. كانت الشريعة مطبقة تطبيقاً حرفياً جامداً وحولها آلاف السياجات، وكان الظلم قانوناً سائداً في الحياة، وكانت هناك سبع درجات للطهارة، وستة وعشرون صلاة ينبغي تلاوتها أثناء غسل الأيدي قبل تناول الطعام، ولم يكن في المجتمع كله طاهرون بحق، كما كانت الصلاة قد تحولت إلى طقوس. أفرغت من محتواها كاتصال بالله، كان الكهنة يرتشون، ويغيرون في كلمات التوراة، يخفون بعضها ويظهرون البعض، وكان كهنة المعبد يبيعون كفارات الذنوب من الحمام والطير بأسعار مرتفعة يثرون منها على حساب المصلين الفقراء، وساد المجتمع كله لون من ألوان البغاء الفكري، وفسدت الرؤوس فيه ففسد الجسد...

وكان هناك تشديد ظاهري في تطبيق نصوص الشريعة، يقابله تسيب مخيف في رعاية روح الشريعة..

وهكذا التأمت قشرة المجتمع اليهودي على نظام بشري قد تهرأ تماماً من الداخل..

ووسط هذا الجو عاد عيسى من مصر، وبعثه الله إلى الناس.. كانت القيمة الوحيدة المعبودة في هذا الوقت هي الذهب.. أو النقود بصفة عامة.. أما الروح فقد ألغي من قاموس القيم، حتى ظن اليهود أن دم المخلوق هو روحه..

كان عيسى بشراً جاء بكلمة من الله.. وروح منه.

وكان هدف دعوته اعلاء كلمة الله وروح الشريعة الحقيقية.

وكانت معجزاته كلها تتصل بالروح..

كان يحيي الموتى.. أليس هذا اعادة لروح من مات واثبات لوجود الروح ووجود البعث..

كانت معجزته معي أنا الطين أيضاً تتصل بالروح.

أراد عيسى عليه السلام أن يحطم فكرة الحياة الجسدية كفكرة عليا للحياة.

ولهذا كان يطعم الآلاف من سمكة واحدة.. وكان يريد أن يقول للناس إن وجود الروح لازم لملء خيمة الجسد، وإن الخيمة لا يصيبها الجشع إلا إذا غاب عنها الوعي بالروح، فإذا ملأ الروح الجسد شبع الآلاف من سمكة واحدة.

ثم جاء دوري..

كان الناس يتصورون أن المرء إذا مات وعاد لطين الأرض لم يعد هناك من يقدر على بعثه.. انتهى الأمر وضاعت الروح مع الدم وذهبت حين ذهب..

كان الناس يحدثون عيسى بهذا.. وكان يسمع جهل الجاهلين فلا يتغير وجهه، وذات يوم جلس عيسى جوار شجرة الورد.. والتف حوله جمع هائل.. كانوا يحدثونه في الروح، ويبدون شكوكهم حول القيمة التي يتصورها عيسى للروح..

نظر عيسى حوله ثم انحنى على الأرض، أمسك بيديه الكريمين قطعة من الطين هي أنا..

ارتفعت عن الأرض للمرة الأولى في حياتي.. راح عيسى يستمع الى كلماتهم وهو يضغط عليّ.. كنت أحس أن ضغطاته تملؤني بشيء جديد.. رفع عيسى يده بقطعة الطين وسأل من حوله:

□ ما هذه؟

قال الناس: هذه قطعة من طين الأرض..

سأل عيسى: هل تستطيع هذه القطعة الطينية ان تطير في السماء؟.

أجابوا: لا تستطيع!! سألهم لماذا؟ صمتوا فلم يجيبوه.. قال عيسى: لأنها تخلو من الروح.. لو صنعت منها طيراً كالبلبل.. لو نفخت فيها سائلاً الله أن يولد فيها الروح.. ألا تطير عندئذ؟..

كان عيسى يتحدث وهو يصنع مني كهيئة الطير حتى إذا انتهى نفخ في جسدي فتحولت إلى بلبل.. طرت بعيداً وأنا أنظر إلى عيسى والجمع المحتشد حوله..

أنشأت أغني.. هززت أجنحتي ومضيت أطير.. أي متعة أن يكون المرء طيراً يستطيع الصعود عمودياً في السماء..

كان عيسى يتحدث وأنا أبتعد..

أطير إلى مريم.. أريد أن أغني عند أقدامها طويلاً.. المشهد يصغر كلما ارتفعت في السماء..

يا إلهي.. انني أرتفع في السماء أكثر..



فِيلُ أبْرَهَة

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ ﴾.

(سورة الفيل ـ آية ١)

في الكتلة شيء مهيب يعلو على النقاش، كتلة الحجارة أو الصخور أو اللحم الحيواني، وحين تتبدى هذه المهابة أمام المخلوقات الأصغر، تنكمش الأحجام الصغيرة مستجيبة لغريزة حب البقاء.. وليس في ضخامة الفيل على الأرض حيوان، ولست مزهواً لأنني ضخم، لا أنكر أن الزهو هو الذي يحرك أعطافي بالقوة، حين اندفع مهاجماً أدفع بكتلة الجسد كتلة مماثلة من الهواء.. ويرتد عدوي إلى الخلف مدفوعاً بقوة الهواء، يقهره الهواء قبل أن أقهره..

ما أعجب أحاسيس القوة، أي عقل بسيط مثل عقل الفيل لا بد أن تسكره القوة، ولقد عشت الجزء الأعظم من أيام حياتي خاضعاً لتأثير هذه القوة المسكرة، وحين سكرت صحوت..

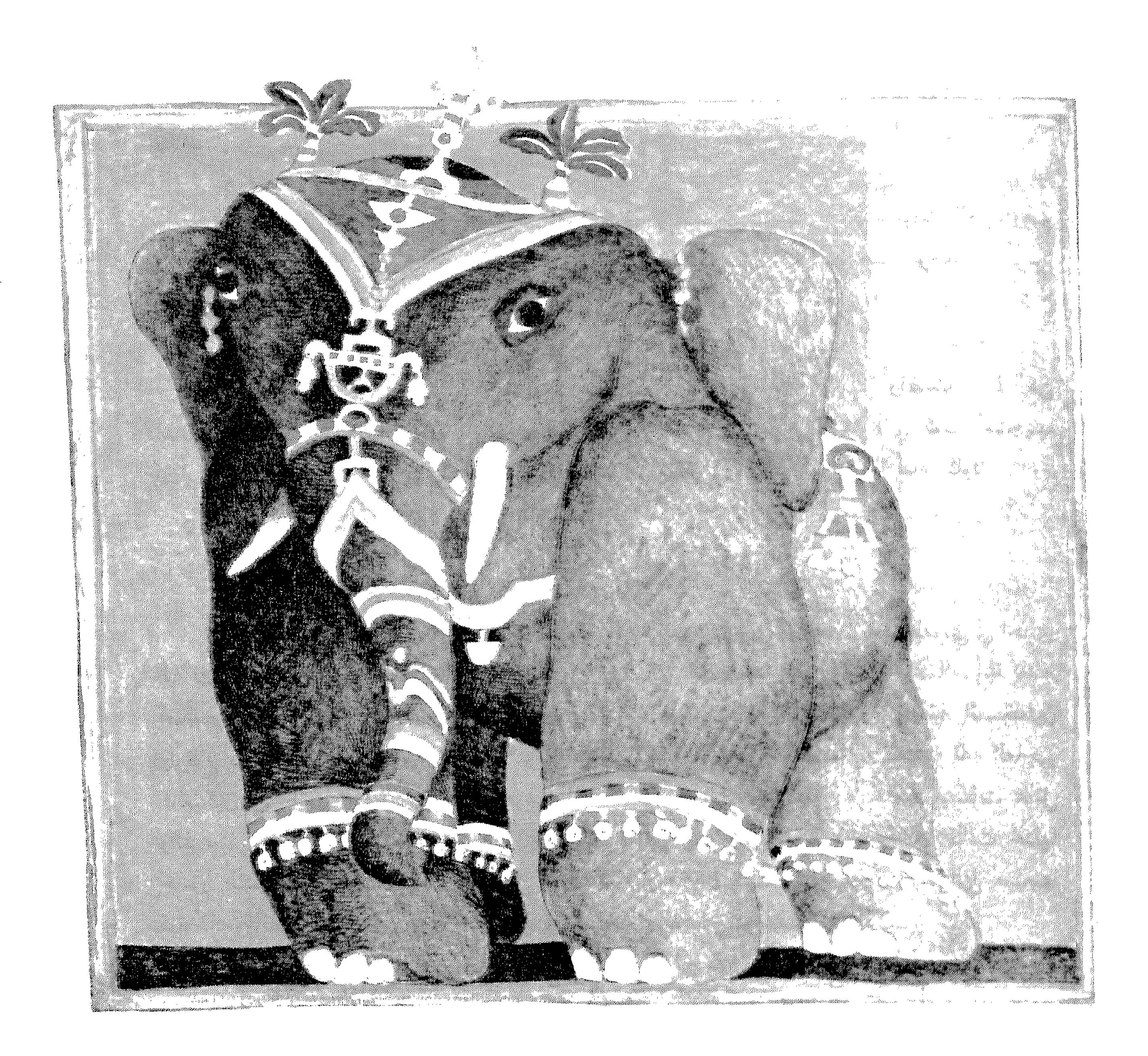
لن أسبق الأحداث..

كان رأسي يدور نشوة حين تنحني أمامي أشجار الغابة وتتمزق أغصانها وهي تفسح الطريق لجرمي الضخم، وكان رأسي يدور عذوبة حين يشير الناس نحوي قائلين: فيل أبرهة.. أنظروا إلى قوته..

كانت قوتي أسطورة تحملها الرياح وتسبقني بها إلى الكائنات، وكان جيش أبرهة أسطورة بسبب هذه القوة.. أعرف أن اسم أبرهة سيذهب في التاريخ علمًا على الكراهية والعناد، وأعرف أنه أصغر من أن يذكر في كتاب الله، إنما يشير الله إليه فينسبه إليّ، يغفل اسمه ويذكر اسمي.. ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾.

أصحاب الفيل المشار إليهم هو النظام الحاكم لأبرهة، وأنا الفيل الذي ينتسبون إليه.. أرأيت كيف ينسب الله تعالى بشراً لحيوان.. إن هذا يعني أن الحيوان أعلى مرتبة، ولا ريب أنني أفضل من أبرهة..

كان هو إنساناً كافراً وكنت حيواناً على الفطرة، والإنسان أعلى مراتب الخليقة في الأرض،



ولكنه حين يكفر بالله يفقد مزيته ويصير الحيوان أفضل منه وأكرم.. بل إن تراب الأرض يفضله عندئذ..

لا أريد أن اسكر من القوة..

كان أبرهة ملكاً يجلس على عرش صنعه الخوف والذهب، وخلفه يقف عشرات العبيد وهم يحركون الهواء بمراوح من ريش النعام.. وأمامه ينحني كل شيء.. هامات الرجال ونفوس الشعب وأعلام الجيش..

أنا الوحيد الذي لم يكن ينحني أمامه..

رفضت أن أفعل.. ضربوني بالسياط عاماً كاملاً لانحني أمامه ولكنني رفضت.. لم أكن أعانده، ولا كنت أتحداه، وان تصور بتغفيله أنني أتحداه، كل ما في الأمر أنني كنت أستجيب لفطرتي في الحرية.. لقد خلقني الله لتنحنى أغصان الأشجار لي.. لا لأنحني أنا أمام الملوك..

لم تعلمني الغابة أن أنحني لأحد..

كانت طفولتي جنة من البراءة

أذكر حلمًا لأشجار ملتفة وأعشاب طويلة وعشرات من بيوت النمل.. هذه طفولتي في احدى غابات أفريقيا.. وهذا هو حلمي في نفس الوقت.. كنت ابنا لفيل أبسط أعماله أنه اقتلع أضخم أشجار الغابة.. كان أبي يجري فاصطدم بالشجرة.. عاد للخلف وفرد أذنيه الضخمتين وارتفع ذيله من الغضب وثنى زلومته لأعلى واندفع بسرعة الريح نحو الشجرة.. غرز نابه العاجي كالسكين في لحمها الخشبي، ولف حولها زلومته وضرب الشجرة لأعلى فانخلعت بصوت هائل وانتزعت من الأرض ككتلة طينية تضم جذورها الغائرة وخرج الماء من الحفرة التي كانت تحتلها جذور الشجرة، وجاءت أمي تجري على الصوت، أمرها أن تستحم في مياه الحفرة التي صنعتها قوته.. وكانت الشجرة الصريعة تنظر إلى أمي بلحائها المكفهر واستسلامها المكسور..

كان أبي ملكاً على الغابة بلا منازع..

حتى الأسود كانت تخشى أبي.. وكنت أنا الوحيد الذي لا يخشاه.. كنت أحس أن كتلتي الصغيرة هي الصورة المتطورة لكتلته الضخمة، وكنت أعرف أن قوته حين تنحدر للشيخوخة ستولد في جسدي بشكل ما، وكان أبي يهزم كل شيء وينهزم أمامي ضاحكاً متضاحكاً وهو سعيد.. ثم مات أبي ذات يوم..

كان يعرف أنه سيموت.. وقبل أن يبدأ رحلته نحو مقبرة الفيلة استدعاني وقال لي: انني راحل ولن أعود..

سألته: لماذا لن تعود؟. قال: دعك من الأسئلة السخيفة.. افهمني الآن فربما لا أحدثك بعد اليوم.. انصت الى كلماتي جيداً.. قلت له: إنني أسمعك يا أبي.. مزاجك اليوم معتكر.. قال: هذه عكارة النهاية.. إن قوتي تتسرب مني.. ولقد عشت فيلاً شريفاً ومت فيلاً شريفاً.. قلت له: لا أفهمك يا أبي.. قال لم أوظف قوتي في خدمة قوة ظالمة.. هذا هو الشرف عندنا.. قال: لم أظلم أحداً.. لم أضرب أحداً.. لم أقتلع شجرة بلا سبب. إلا أن تعترضني أو تعترض



طريقي.. أنا مطمئن على نفسي.. لكنني رأيت حلمًا غريباً عنك بالأمس، لا تسألني ما هـو الحلم.. فقط تذكر هذه الكلمات.. ستجيء عليك لحظة يجب عليك فيها أن تختار..

إذا صادفتك هذه اللحظة فليكن الشرف هو اختيارك.

قلت له: لا أفهمك يا أبي.. ما هو الحلم الذي رأيته؟.

قال: لا يهم أن تفهمني.. المهم أن تذكر كلماتي هذه ذات يوم..

استدار أبي واندفع في ظلام الغابة.. من يومها لم يعد..

مات أبي وصرت ملكاً متوجاً على الغابة، ونسيت وصيته في زحام الحياة وزهو القوة.. ومرت بي الأيام سكرى بالانتصارات حافلة بالصراع.

ثم جاء يوم.. وهبط الغابة بشر ضئيل الحجم بارد السحنة غبي الملامح.. وراحوا يحفرون الأرض ويسوونها.. ولم نفهم نحن الفيلة شيئاً.. ووسط عماء الفهم تم اصطيادنا.. ولقد أدركت يومئذ أن الله قد كرم علينا هذا المخلوق الضعيف المسمى الانسان..

لقد حفروا لنا أرض الغابة وغطوها لتبدو آمنة، فلما سرت عليها هويت بكتلتي الضخمة وسط فخ أعده لي الإنسان.

وهكذا تم اصطيادي.

جننت في البداية.. رحت أضرب الشباك فتستجيب لضرباتي وتتمدد دون أن تنكسر.. ثم بدأت رحلة عذاب طويلة كانت نهايتها قصراً غريباً..

في غرفة بنيت من الحجارة القاسية وضعت.. وجاء في اليوم الثاني رجل قصير وقميء حوله جند كثيرون ووزراء كالخدم.

كانوا ينحنون له بمناسبة وبلا مناسبة، وحدثوه أن صيدي كان بفضل توجيهاته، وكانوا ينافقونه ويعظمونه ويعبدونه.. أشاروا إليّ وقال أحدهم: هذا أعظم فيل في الغابة، هذا ملك الغابة قد صار خادماً لأبرهة.. وجندياً في جيشه..

لم أفهم كيف أصير جندياً في الجيش، ورفعت زلومتي وهويت بها على الهواء فشقته بصوت رائع، وتراجع أبرهة مثل طفل جبان وثار خدمه من الوزراء والقادة وارتفعت السياط تهوى على جسدي.. قاومت في البداية وأعانني سمك جلدي ولكنني مع ازدياد الضرب وشدتـه بدأت أتوجع.. وتراجعت قليلاً إلى الخلف..

قال أبرهة القميء: لا تضربوه.. الجوع أفضل من الضرب.. أدبوه بالجوع.. وانصرف فانصرفوا خلفه..

لم أفهم لماذا غضب الملك.. هل أغضبه أنني أظهرت جبنه أمام حاشيته التي تعبده.. ثم لماذا يجوعني هذا القزم الذي يبدو أصغر من أنفي نفسه.. ان زلومتي أضخم منه وأكثر استدعاءً للهيبة.. لم أدرك مدى شروره إلا وسط أوجاع الجوع.. ان ضرب السياط أهون من لـذع الجوع.. انني حيوان لا بد أن يأكل طناً من الطعام كل يوم.. وحين جـعت أصبحت موظفاً عند أبرهة.. قتلني الجوع فتعلمت الجبن.. كنت أرفع زلومتي حين أراه. علموني كيف أحيي الطاغية بالجوع.. عليهم وعليه اللعنة..

تعلمت من الجوع ما لم أتعلمه من ضرب السوط..

كنت في الغابة حراً لا تخضع لقمة عيشي لمشيئة أحد، وحين ضاعت حريتي ضاعت معها كرامتي وضاع مذاق لقمة العيش نفسه.. لا أنكر أن معظم مشاكلي في الغابة كانت هي الصراع الذي لا يهدأ مع الكائنات والوحوش بهدف السيطرة على المكان واخضاعه.. ولا أنكر أن مشاكلي في الحصول على الطعام كانت قائمة وواردة ولا أنكر أنني كنت أعاني وأقاسي، ولكن أي قدر من المعاناة يمكن احتماله في وجود الحرية، وأحياناً تضيع الحرية ويتوفر الأمن والطعام، وتبدو كل مشاكل المخلوق وقد حلت إلى الأبد، فهل تظن الفيل منا يحس بالسعادة..

بعد تجربتي في السجن أدركت أن لا شيء يساوي الحرية، ولعلي أدركت شيئاً أخطر، ان ضياع الحرية يعني ضياع القدرة على الحب، ويعني ضياع مذاق الخبز الحقيقي، سأحكي لكم فيما بعد كيف اكتشفت هذين الاكتشافين، لا أريد أن أسبق الأحداث.. بدأ خدم أبرهة في سياسة تجويع طويلة لقهر ارادتي على تنفيذ ما يريدونه..

كانوا يريدون كسر ارادتي وقد فعلوا..

دربوني على تحية الملك.. وربطوا نصيبي من الطعام بقدر استلطاف الملك لحركات التحية، ودربوني على الهجوم على البشر، ودربوني على الهجوم على الحصون، ودربوني على تحطيم الحصون، وفي كل مرة كان حصولي على الطعام رهناً بتنفيذ الأوامر..

وبهذا الارتباط بين تنفيذ رغباتهم وحصولي على الطعام صرت موظفاً.. حين لم تعد أوامري تصدر إليّ من عالمي الداخلي، لم أعد بريئاً وحراً.. صرت قوة هائلة تخضع لعقل الغير. وليس

هناك حدود لدناءة الغير إذا كفر بخالقه. . من أين لي أن أعلم أن هذا العقل الذي يصدر إليّ الأوامر هو نفسه الأداة التي ستقودني إلى المأساة. .

بوصفي فيلاً لم أكن أعرف غير الهجوم والتحطيم، لم أكن أعرف وجه الحق في الهجوم من عدمه، ولا كنت أعرف هل يستحق المكان المطلوب تحطيمه التحطيم أم لا، إن الجندي لا يسأل لماذا يهجم، انه يسأل متى يهجم. .

ولم يكن من حقي أن أسأل إذن. .

وهكذا قادني حظي العاثر إلى المأساة لأن السؤال كان ممتنعاً عليّ في الأصل. . ان مهمتي كقوة مسيرة أن أطيع، ولقد كانت مأساتي انني أطيع جباراً وأحمق في نفس الوقت، أو أطيع أحمق جباراً في حمقه، والحمق والجبروت من الصفات التي تقود الى تحطيم المرء لنفسه. .

دعوني أذكر كيف بدأت القصة. .

إن بداية القصة هي نفسها بداية المأساة.

بدأت المأساة بخبر سمعه أبرهة. .

سمع أن العرب تعظم بناء يسمى الكعبة، وتحج إليها، وساءه أن يقع ذلك فجمع وزراءه ومهندسيه وقال لهم:

ـ أريد أن أبني معبداً يحج إليه العرب بدلاً من الكعبة. .

إنحنى الوزراء وقالوا: سمعاً وطاعة. .

التفت أبرهة إلى كبير المهندسين ينتظر قراره. . قال كبير المهندسين: يا مولاي. . نحن على استعداد لبناء معبد أكبر من الكعبة وأعظم. . ولكن المشكلة كلها أن العرب لا يحجون إلى الكعبة لأنها بناء عظيم. .

انتفض أبرهة واقفاً وسأل: لماذا يحجون الى الكعبة إذن؟.

قال كبير المهندسين: إن الكعبة بناء قائم في الصحراء. . والصحراء من بين كل الأمكنة التي خلقها الله هي العرى النظيف الذي لا يقبل أنصاف الحلول. . إنها تجرف من القلب كل النزوات والأوهام التي تسلم إلى التفكير الخاطىء، وبهذا العرى يتحرر الإنسان من نفسه ويسلم نفسه إلى «كلي» مجرد لا صورة له. . «كلي» أبعد من كل ما هو بعيد، ومع ذلك فهو أقرب من كل ما هو قريب. .

قال أبرهة حانقاً: لا أفهمك أيها المهندس. . لماذا يحجون إلى الكعبة. .

قال كبير المهندسين: الكعبة يا مولاي هي أبسط أثر معماري في العالم. . إنها مجرد مكعب من الحجر، وقد عرف من بنى الكعبة أن أي جمال في تناسق البناء أو كمال في خطوطه أو عظمة فيه لا يمكن أن يوفي الفكرة الإلهية حقها، وهكذا قصر نفسه على أبسط شكل يمكن أن يتصوره العقل. . مكعب من الحجارة. .

هذا المكعب البسيط رمز لضعة الانسان وعجزه أمام الله. . هي رمز للتوحيد. .

صرخ أبرهة يقول: أيها المهندس. . لم تجب على سؤالي. . لماذا يحجون إلى الكعبة. .

قال المهندس بهدوء بالغ: هي رمز يا مولاي.. يقولون إنها رمز لبيت الله..
قال أبرهة بخبث ودهاء: يقولون.. من الذي يقول.. هل تصدق أنت ما يقال؟.
تغير وجه كبير المهندسي وقال: ليست المشكلة هي التصديق أو التكذيب، المشكلة الهندسية أن أي بناء معماري لا بد أن يحدد شيئاً أو يقول شيئاً أو يشير إلى شيء.. الكعبة هي البناء المعماري الذي لا يفعل ذلك.. هي البناء المعماري الوحيد الذي يرمز للمطلق المجرد الكلي الذي لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء.. والسؤال الآن يا مولاي.. ما الذي تريد منا أن نقوله في المعبد الجديد الذي انتويت إنشاءه ليحل مكان الكعبة..
أنت ترى يا مولاي انني أسأل سؤالاً هندسياً بحتاً.. وهذا السؤال يحتاج إلى إجابة.. وعلى الإجابة يتوقف شكل عملنا في معبدك المزمع إنشاؤه..
لم يكد المهندس ينتهي من كلامه حتى وقع شيء غريب..

نهض أبرهة من كرسي العرش وهمس من بين أسنانه ـ خيانة في القصر.. هذا الكلام خيانة.. اقبضوا على كبير المهندسين.. تقدم الحراس وأمسكوا كبير المهندسين.. كان وجهه ممتقعاً ولكن لوناً من ألوان النبل الإنساني كان يشيع في صفحة الوجه الشاحب، عاد أبرهة يقول: فضحتك كلماتك.. أنت تؤمن باله الكعبة.. أنت لا تريد بناء معبد يحتل مكانها.. اعترف..
حاول كبير المهندسين أن يرد ولكنه فتح فمه وفكر لحظات ويبدو أنه اقتنع أن أحداً لن يفهمه فعاد يغلق فمه..
قال أبرهة صارخاً: اعترف.. اعترف أنك لا تؤمن بالآلهة التي نعبدها، قال المهندس وقد قرر أن يتكلم أخيراً: مولاي.. أنا أؤمن بالوحدة الهندسية القائمة في الكون.. وبالتالي أؤمن بإله واحد.. انني أعترف بذلك.. قال أبرهة: هذه خيانة.. ما الذي قادك إليها.. قال المهندس: مبلغ علمي في الهندسة..
قال أبرهة: سوف تنسى في أيام السجن الأولى كل علمك في الهندسة.. ضعوه مع الفيل وجوعوا الفيل ودعوه يقتله.. وهكذا وصلني كبير المهندسين..

فوجئت أن باب حجرتي يفتح وفوجئت برجل يقذفونه تحت أقدامي.. تحركت في الغرفة بدافع الفزع المباغت.. لكنني لم ألمس كبير المهندسين.. لم أفهم لماذا ألقوه إليّ..
تأملني المهندس وزاد لونه شحوباً وهمس يقول: بسم الله خالق الحيوان والوحوش..
لم يعجبني رأيه في شخصي كوحش.. رفعت خرطومي وكدت أهوي به على رأسه فأدق عظامه، ولكنني بدلاً من ذلك وجدت نفسي أضع خرطومي على المهندس بحنان بالغ.. أحببته فجأة.. لا أعرف لماذا ولا كيف.. فوجئت أن في صدري سلاماً لا نهائياً للرجل، وتأملت تعبير عينيه وذكرت تعبير عيني أبي حين كان يجيش بالحنان ويضع خرطومه على رأسي ويحركه يميناً ويسرة..
أدهشت حركتي كبير المهندسين فوضع يديه على خرطومي كأنه يحمي نفسه، وقع بعد ذلك

شيء أعجب.. رفعت خرطومي ووضعته تحت جسده كوسادة ثم رفعته فجأة ووضعته على ظهري..

كانت هذه أول مرة أضع فيها إنساناً على ظهري.. كان ظهري منطقة محرمة تماماً على البشر، هي منطقة من مناطق السيادة عند الفيلة، وأي فيل شريف ويحترم نفسه لا يسمح أن يركب الإنسان ظهره، ولكنني للمرة الأولى اكتشفت أن هناك شيئاً اسمه الحب، وأن للحب قوانينه القاهرة.. أحببت هذا الرجل مثل حبي لأبي.. وتذكرت وفاة أبي وفاض قلبي حناناً، وهكذا استقر المهندس على ظهري فرحت أتمشى به في الغرفة.. وفوجىء أبرهة بهذا المشهد..

صرخ أبرهة حين شاهد كبير المهندسين يعتلي ظهري:

ـ هذا المهندس ساحر.. لقد سحر الفيل.. ضحكت.. نحن نضحك في عالم الفيلة بأن نحرك آذاننا ونرفع ذيلنا.. ونفعل نفس الشيء في حالة الهجوم والغضب، فانظر كيف يرتبط الضحك والغضب عند الفيلة في مظهر تعبيري واحد..

جن جنون أبرهة حين رأى كبير المهندسين يعتلي ظهري، وسحبوه من ظهري ومضوا به..

وعوقبت بالجوع وضرب السياط لأنني استسلمت لسحر المهندس، ولم أفهم لماذا القوة إليّ ولا فهمت لماذا يضربونني بالسياط لأنني حملته، ان عقل الفيلة ليس كبيراً مثل جسمها الضخم، ولو كان عقلنا في ضخامة جسمنا لكنا سادة الأرض، ولعلمنا الإنسان كيف نركب ظهره ونبطحه..

عرفت بعد يومين أن كبير المهندسين ألقي في السجن تمهيداً لتعذيبه وقتله، وبدأ صغير المهندسين الذي احتل مكان كبير المهندسين يبني معبداً لأبرهة ليحج إليه العرب بدلاً من الكعبة..

كان صغير المهندسين رجلاً عملياً.. واقعياً.. متفهمًا.. وحين ناقشه أبرهة فيما قاله كبير المهندسين قال: يا مولاي.. نحن عبيدك.. أنت تأمر ونحن نطيع.. ماذا تريد.. جلالتك تريد معبداً يحج إليه العرب.. ما دام جلالتك قد أراد.. فعلينا التنفيذ.. سنبني لك معبداً لم يشيد مثله.. قد تكون تكاليف البناء كثيرة، وربما تكون أكثر من اللازم، ولكن الذهب يسيل من أطراف جلالتك.. بل ويكفي رضاك.. هذا هو الذهب الأصلي..

انتهى صغير المهندسين من كلماته فانشرح صدر الملك انشراحاً.. وأضاءت أسارير وجهه بنور الظلمة الغبية.. وعلى الفور بدأ بناء المعبد الجديد، كان أبرهة يغدق عليه، ولا يبخل في سبيله بشيء، وكان صغير المهندسين الذي صار كبير المهندسين الآن يشرف على البناء، وكان عنده صندوق صغير يملؤه له أبرهة بالذهب، فاذا انتهى ما في الصندوق أعاده المهندس لأبرهة لملئه، ويبدو أن هذا المهندس كان عملياً واقعياً متفهمًا فأغدق على من حوله فأغمض من حوله عيونهم عما يغدقه على نفسه..

وبدأ البناء يرتفع وراح صندوق الذهب يقطع رحلته بين يد المهندس وقصر الملك.. حتى إذا تهرأ، الصندوق من كثرة استعماله كان البناء قد انتهى..

كان المعبد مبنياً من الحجارة المطعمة بالفضة، وكانت محاربيه من خشب الصندل المعطر.. وكانت أبوابه من الذهب الابريز البندقي الأحمر.. وانتظر أبرهة أن يحج الناس إلى معبده..

انتظر أبرهة طويلاً فلم يحج لمعبده أحد..

كان هناك سدنة للمعبد وكهنة له.. وكان السدنة والكهنة يطلقون في المعبد أثمن أنواع البخور، وكانوا يعطرون جوه بأجمل العطور، وكان العطر الناعم لخشب الصندل يمتزج بأريج البخور فيصنع جواً أسطورياً يحمله الهواء وتصلني رائحته فأحس - أنا الفيل - أنني أعود لطفولتي في الغابة.. إن للفجر في الغابات رائحة عجيبة، ان الأمطار المنهمرة تغسل الشجر طوال الليل، وللشجر رائحة خاصة حين يستحم في المطر ويجففه نور القمر أو ضوء الشمس..

وكنت أذكر طفولتي في الغابة ويلوح لي وجه أبي ووجه أمي.. وكان هذا الاحساس يوقظ داخلي لوناً من الحنان والقلق في نفس الوقت، ان ذكرياتي القديمة كانت هي حريتي. وكان وعيي بهذه الذكريات يوقظ داخلي طعم السجن وادراكي بموت الحرية..

وكان هذا الاحساس يحزنني كثيراً، وأحزان الفيل أضخم من جسده أو هي مساوية لوزنه..

ولقد كانت أحزاني ثقيلة مثل وزني..

ويبدو لي أنني لم أكن وحدي الحزين.. كان أبرهة حزيناً هو الآخر، مرت سنوات على افتتاح المعبد ولم يدخله أحد من العرب.. ولا حج إليه عربي واحد.. وبدأ أبرهة يتحول من الحزن إلى الغضب، ووقع حادث في المعبد فزاد غضب أبرهة..

دخل أحد البدو المعبد ذات يوم.. لم يكن أحد من الناس يعرف هذا البدوي.. ولكن دخوله المعبد كان خبراً طيرته الألسنة لأبرهة، وانصرف البدوي من المعبد، وفوجىء كهنة المعبد أن هذا الزائر قد قضى حاجته في المعبد..

لا أحد يعرف هل كان الفعل ارادياً هدفه احتقار أبرهة، أم أن الزائر فعل ما فعل بشكل عفوي نتيجة اضطراره وغربته.. لا أحد يعرف حقيقة نوايا هذا الزائر البدوي المجهول، ولكن أبرهة استحال إلى عاصفة حين بلغه الخبر.. حمل أبرهة ما وقع على أنه احتقار له وتهوين من شأن معبده ورفض لفكرته.. وظل أبرهة يدور في قصره يومين وهو يهدد ويتوعد، وفي نهاية اليومين أصدر قراره الخطير..

قال أبرهة: سوف أهدم الكعبة حتى لا يجد العرب أمامهم مفراً من الحج إلى معبدي..

ونفخت أبواق الحرب..

بدأت أستعد للحرب..

كنت سعيداً لدرجة يستحيل على فيل مثلي أن يعبر عنها، ان التعبير عن المشاعر مشكلة عند أهل الأدب، فما بال الفيلة، كنت سعيداً كأنني حر..

إنني أشكل القوة المدرعة للهجوم في جيش أبرهة.. ويتوقف على إدائي كل شيء.. أو

فلنقل بتواضع إن أهم شيء يتوقف على هجومي واختراقي.. وفي الحرب آكل ضعف ما آكله في السلام، كما أنني أشرب ضعف ما أشربه في أوقات السلام، كما أنني أستحم في الحرب أربع مرات كل يوم، ولا يتاح لي أن أستحم غير مرتين في غير أوقات الحرب لم يكن هذا مبعث سعادتي وحده..

اعترف - كحيوان - ان امتلاء بطني يحمل لي سعادة قصوى وخدراً رائعاً، ولست وحدي في ذلك، كل أنواع الحيوان تسعد بالطعام وتكتئب بالجوع ويصيبها الجنون إذا استمر.

كان هناك سبب آخر لسعادتي.. ان قدر الحرية الذي يمنح لي في الحرب يفوق القدر الممنوح لي في الأيام العادية..

باختصار.. الحرب عندنا موسم..

أخرجوني من بيت الفيلة الكئيب الذي أسكن فيه، وأخرجوا بقية الفيلة التي تتبعني بوصفي القائد الأعلى لهم. وبدأ تدريبنا على هدم بناء حجري قال المهندسون إنه يشبه الكعبة..

وضعوا السلاسل الحديدية حول البناء وربطوا نهاية السلسلة في أجسام ثلاثة من الفيلة..

وبدأوا يضربون الفيلة بالسياط لكي تهدم المبنى.. لم تستطع الفيلة أن تفعل. وجاء دوري..

كنت وحدي.. ربطوا السلسلة جيداً حولي وبدأت أشد.. في البداية شددت مرة فوجدت البناء ثابتاً في الأرض.. ولكنني عاودت الشد.. ضربوني بالسياط فالتفت لهم وتوقفت عن الشد ولوحت بخرطومي غاضباً فجرى الجميع من حولي. كان خرطومي يشق الهواء ويمزقه، وروعهم غضبي فابتعدوا مسافة كافية، استنجدت بكل ما لديّ من قوة حيوانية هائلة، واستنجدت بكل الغضب المجنون الذي ثار داخلي بسبب اهانتهم لي، واندفعت كالأعصار أشد السلسلة، وأزت حلقاتها وتمددت وانهار البناء..

هلل قادة الجيش وأصابهم الفرح، وأضيئت المشاعل وأريقت الخمر المعتقة من الدنان وذهب قائد الجيش إلى أبرهة.. انحنى له وقال:

□ مولاي.. نجح الفيل العظيم في مهمته.. الجيش رهن اشارتك.. قال أبرهة: غدا نتحرك نحو الهدف الأصلي.. الكعبة.

أتيح لي خلال رحلة الجيش إلى بلاد العرب أن أرى أبرهة كثيراً وأن أدرس شخصيته عن كثب، كما أتيح لي - بوصفي جندياً في الجيش أن أتأمل القضية التي خرجنا نحارب من أجلها.

رأيي في أبرهة أنه كان جباراً بالغ القوة، كما كان طاغية شديد الحمق، والطغيان والحمق قوتان تكفي إحداهما لتدمير حاملها، ولهذا خيل إليّ أن هذا الخروج المثير لأبرهة سيكون هو آخر خروج له..

لا أعرف لماذا راودني هذا الاحساس.. أما القضية التي خرجنا نحارب من أجلها فكانت تخرج عن نطاق إدراكي كحيوان.. لم أكن طرفاً في الصراع بين أبرهة وما تبقى لديه من قوة العقل المدركة، لم أكن داخل رأسه والجنون ينتصر على العقل ويرجح فكرة هدم الكعبة.. أيضاً لم

أكن أعرف حتى هذه اللحظة ما هي الكعبة.. أو ما هي أهميتها.. أو ما هي أهمية التعرض لها.. كل ما عرفته أن أبرهة أراد.. وإذا أراد الحاكم المطلق ساق أمته كالخراف وراءه نحو الهلاك.. لا لسبب إلا لأنه أراد..

يعلم الله أنني بريء..

أقسم بالله أنني بريء.. إنني أرفع خرطومي لأعلى وأصرخ معولاً أنني بريء.. لا علاقة لي بفكرة هدم الكعبة، ومعلوماتي كحيوان لا تتيح لي أن أدرك قداسة الكعبة..

يعلم الله أنني بريء.. ولكنني أريد - أمام التاريخ الحيواني والتاريخ الإنساني - أن أعلن براءتي.. إنني فيل دفعوه دفعاً لهدم ما لا يعرف.. وساقوه سوقاً لتحطيم ما لا يدرك.

لن أسبق الأحداث.. ولكنني لا بد أن أضع براءتي أمام أنظار الكون قبل أن أحكي الهول الذي وقع..

بدأت رحلتنا بداية لطيفة.. كان الجو ربيعاً والجيش بديعاً والمقاومة صفر.. في هذا الوقت من أوقات التاريخ، كان جيش أبرهة - وسط جيوش الأرض هو أقواها بلا تردد.

اعترضنا جيوش قوم من اليمن والعرب، قبائل ساءها أن يحاول أبرهة هدم الكعبة، ولكن هذه الجيوش ذابت أمام قوتنا كما تذوب ورقة الشجر في جوف الفيل، وتم أسر واحد من أشراف اليمن اسمه ذو نفر حين تصدى بجيشه لأبرهة، وتم أسر نفيل بن حبيب الخثعمي وكان قد خرج لحرب أبرهة.. وهكذا أبيدت كل الجيوش التي اعترضتنا ونحن في طريقنا إلى مكة.. هذا إسم المدينة التي نتجه إليها..

مرة أخرى - أعلن براءتي من معرفة شيء عن مكة.. أريد أن يبدو الأمر واضحاً لأن هذا يفسر تصرفاتي فيما بعد..

أخيرا لاحت مكة عند الأفق..

وقفنا أخيراً عند أبواب مكة.

بعث أبرهة رسولاً إلى مكة يسأل عن سيد هذا البلد، ويبلغه أن الملك لم يأت لحربهم وإنما جاء لهدم هذا البيت، فان لم يتعرضوا له فلا حاجة له في دمائهم، فإذا كان سيد البلد لا يريد الحرب فليحضر إلى الملك، وتم ابلاغ هذا لسيد مكة، وكان عبد المطلب.. وقال عبد المطلب لرسول أبرهة: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة. هذا بيت الله الحرام.. وبيت خليله ابراهيم عليه السلام، فإن يمنعه فهو بيته وحرمه، وأن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه.. وانطلق الرسول مع عبد المطلب إلى أبرهة.

كان عبد المطلب وسيمًا عظيم الهيبة، لما رآه أبرهة أجله وأعظمه، وأكرمه عن أن يجلس تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه الثمين وأجلس معه عبد المطلب.. قال لترجمانه: سله ما حاجتك؟ قال عبد المطلب: حاجتي أن يرد على الملك مئتي بعير أصابها لي.. قال أبرهة لترجمانه: قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك،

ثم قد زهدت فيك حين كلمتني. . أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك وقد جئت لهدمه لا تكلمني فيه. . قال عبد المطلب: اني أنا رب الابل، وان للبيت رباً سيمنعه. .

قال أبرهة: ما كان ليمتنع مني. .

قال عبد المطلب: أنت وذاك. .

أمر أبرهة أن يردوا على عبد المطلب ما أخذوه من ابله وصرفه فعاد عبد المطلب إلى مكة.

قال لقومه: اهجروا مكة. . شاهدت جيشاً لا قدرة لأحد على مقاومته. . اخرجوا إلى شعاب الجبال فادعوا الله أن يمنع بيته

قال عبد المطلب كلمته وانخرط في البكاء. .

نهض إلى باب الكعبة وأمسك بحلقة الباب ومعه نفر من مؤمني قريش وراحوا يدعون الله ويستنصرونه.

قال عبد المطلب وهو يشدد قبضته على حلقة الباب ويزداد ارتعاشاً اللهم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك. .

انصرف الجميع من الكعبة. . وأخليت مكة تماماً فلم يعد فيها مخلوق ووقف أبرهة أمام جيشه الجبار وهو يواجه مكة وقال غدا في الصباح نبدأ الهجوم. .

جاء الصباح المشؤوم أخيراً. .

نفخت أبواق الحرب وتحرك الجيش. . كانت مهمتي تأتي بعد حركة الجيش كان المفروض أن يطوق الجيش مكة حتى لا يفاجئنا أهلها بأي هجوم. . ثم اندفع كالأعصار فأدخل مكة وأنهي مهمتي في تحطيم الكعبة. .

كان هذا هو المقدر المحسوب. . ثم فوجئت حين صدر إليّ أمر الهجوم أنني لا أستطيع. . في البداية. . انكشف الغيب داخلي عن معنى وصية أبي. .

□ قال: ستجيء عليك لحظة يتعين عليك فيها أن تختار فليكن الشرف هو اختيارك، وعيت فجأة أنني في مهمة ليست شريفة على المستوى الكوني. . وهذا هو المستوى الوحيد الذي تخضع لبداهته أنواع الحيوان والنبات. .

وبدأت أرتعش من الخوف. . كان الخوف يبلل جسدي كله بالعرق. . وكانت عظامي ترتعش من هول مجهول يخفي ويله الوبيل في خفائه. . بركت على الأرض. .

صدر إليّ أمر الهجوم فبركت. . حبسني حابس لا أستطيع أن أتحدث عنه، فوجئت أنه يقف جواري مباشرة. .

وثمة صوت مهموس وأمر يصدر منه. . لا تتحرك من مكانك إلا لتهرب، أنت حبيس هذا المكان.

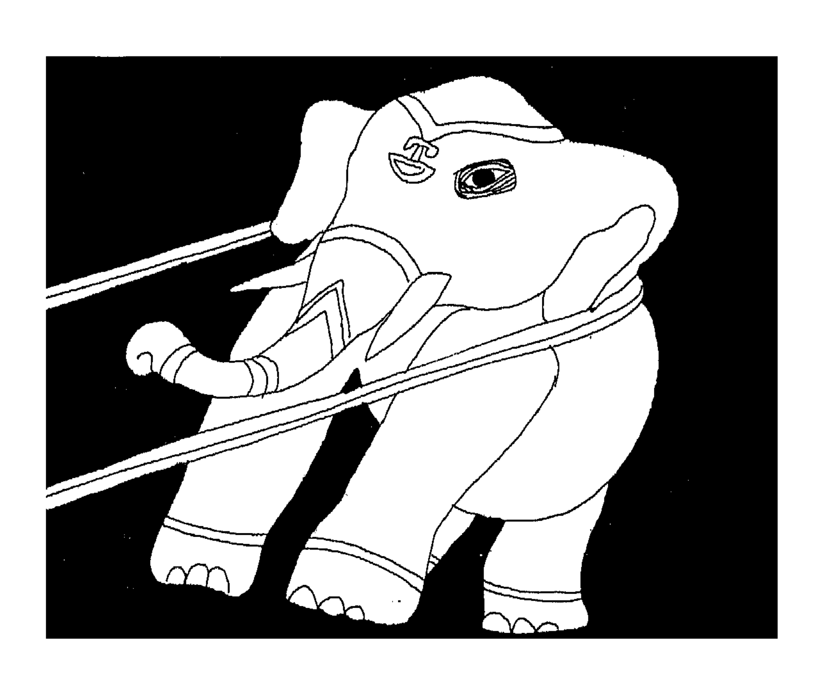
عاودتني ارتعاشة أشد. . قلت للصوت الآمر: سيدي الملاك الكريم انني بريء من كل شيء. . سوف أهرب حين تأذن لي. .

انهالت السياط على جسدي تستحثني لأنهض.. تألمت ولكنني كنت أرقب آلامي كأنني أشاهد فيلمًا سينمائياً لفيل يتألم.. كان كل شيء يبتعد عني ويجري من أمامي ويسرع.. كان الهول الذي أعيشه داخلي كفيلاً بصرفي عن أي ألم دنيوي.. قلت للصوت الآمر انني بريء.. لا علاقة لي بما يحدث.. لن أتحرك من هذا المكان.. لقد بركت وانتهى الأمر.. صرخ أبرهة ماذا يحدث.. ولماذا لا تتقدم الفيلة.. قال قادته: برك الفيل الكبير فجأة، وهو يرفض أن ينهض أو يتحرك.. صرخ أبرهة: أرغموه على النهوض والهجوم.. اقتلوه ضرباً لينهض..

كنت أسمع أبرهة كأنني أسمع تسجيلاً على الفيديو لكلام لا يهمني البتة.. انهالت السياط على جسدي وانهالت السيوف في غمدها على رأسي لأنهض ولكنني تشبثت بالأرض وانخرطت في صلاة كونية تحدثت فيها لخالق الكون والملائكة.. قلت له: انني بريء يارب.. لا علاقة لي بما يقع.. لقد صدر إليّ الأمر أن أحبس نفسي هنا.. وقد فعلت.. ساعدني على الهرب يا رب.. اسودت السماء فجأة فرفعت رأسي ونظرت.. كان قرص الشمس محجوباً بأعداد لا نهائية من الطير الأبابيل..

شاهدت في نفس الوقت ملائكة العذاب.. نهضت من مكاني واستدرت أعدو نحو الصحراء..

يجب أن أفر بنفسي من هذا المكان على الفور..



الطَّيْرُ الأَبَابِيل

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابيلَ تَرْميهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾.

(سورة الفيل - آية ٣ - ٥)

إذا كانت الوداعة هي صفة المخلوقات المرئية في الكون فإن الرعب المهول هو صفة الخلائق الخفية.. لن أصرح بأكثر من هذه العبارة.. ليس مسموحاً لي أن أتحدث عن ذاتي، وفي حقيقتي سر لو انكشف لمخلوق، لتجمد دم المخلوق وانهار وجوده من الخوف.

إنني واحد من الطير الأبابيل.. قائد الاتصال بين الأجنحة الستة للجيش الثامن من هذه الطيور.. عدد الجيوش سر.. عدد أفراد الجيش الثامن سر هو الآخر.. لا نخرج إلا بأمره تعالى، لن أصرح بعدد المهام التي خرجنا فيها، هذا شأنه سبحانه ﴿وكل يوم هو في شأن﴾.. كل ما أستطيع قوله إن هذه المهام مسجلة ومعروفة لرب العالمين.. أما الخلائق فبيننا وبينهم ستائر مسدلة وحجب كثيفة، وهذا من رحمة الله بعباده..

مهمتان صرح الحق عز وجل بذكرهما في كتابه الأخير للبشر الفانين.

المهمة الأولى: ضرب مدن لوط.

قال تعالى ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾..

وفي هذه المهمة لم يذكرنا الله تعالى بالاسم في سياق الآيات.. المهمة الثانية التي ذكرنا الله تعالى فيها بالإسم.. كانت ضرب أصحاب الفيل.. قال تعالى ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل، وارسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول﴾..

وصلني الأمر أول واحد..

صرخت فاجتمع الجيش.. أرعشت صرختي قلب أبعد النجوم فارتعشت ذراتها من الشؤم،



وتجمدت الدماءِ في عروق الجبال وكللت هاماتها بثلج الموت الأبيض، وسرى في الجو كله تيار رعب غامض مروع. بعد صرختي بجزء على مليون جزء من الثانية، كان الجيش الثامن كله قد حط فوق أغصان الخوف وأشجار الرعب ووحشة الخراب والخلاء، سأل قائد الطيور: من يستدعينا من أعماق الجحيم؟.

قلت: هذه مشيئة الله.

سجدت الطيور رعباً وهي عمق الرعب الرعيب في الأصل..

قال قائد الطيور: ما هي مهمتنا؟.

قلت: ضرب جيش يتجه لهدم الكعبة.

أحنت الطيور مناقيرها وغمستها في الجحيم.. غاصت فيه بمناقيرها وعادت بحجارة من سجيل.. في نفس الوقت تم تصوير الجيش المهاجم وتم تقدير القوة اللازمة لتدميره.. ومنح كل واحد من الطير الأبابيل قوة تكفي لتدمير جيش أبرهة واصطفت تشكيلاتنا في الجحيم ثم خرجت بلا صوت نحو العدو..

كان جيش أبرهة يعتمد على المشاة والفرسان والمدرعات.. أما المدرعات فهي الفيلة.. أي أن جيش أبرهة كان يفتقر إلى سلاح الطيران.. ومن هنا جاءت ميزتنا الأولى على جيشه..

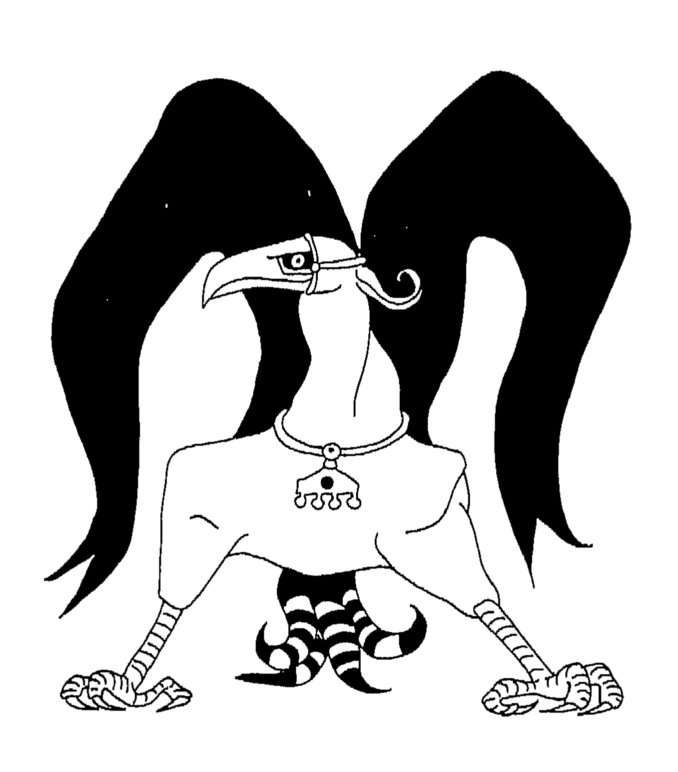
كنا في طريقنا لقصفه من الجو..

لم تكن المدفعية قد اكتشفت بعد.. كما أن المدفعية لا تؤثر فينا.. كنا في طريقنا لقصفه بحجارة من سجيل..

هذه الحجارة سر رهيب سأفسح النقاب عن طرف منه لكنني لن أزيد السر غير خفاء وتعمية..

بعد قرون من ضربنا لأبرهة، سيكتشف البشر سر الطاقة الكامنة في النواة.. وسيخترعون قنابل ينسبونها إلى الطاقة النووية.. وسيكون لهذه القنابل قدرة تدميرية ليست للأسلحة التقليدية، هذه القوة النووية تبدو جوار الحجارة القادمة من سجيل لعبة أطفال أبرياء.. أو عبث صبيان أغرار.. هذا كل ما أستطيع الافصاح عنه بالنسبة للقوة التدميرية التي استخدمت مع جيش أبرهة.. هذه آخر حدود أملك الطيران إليها من الحديث.. لا أريد أن أطيل في الحديث، كان عددنا هائلاً ونحن ننقض على جيش أبرهة.. كنت أول من رأى سلاح المدرعات في جيش أبرهة.. كان هناك فيل ضخم قد برك وبركت وراءه فيلة كثيرة، واستطعت أن ألمح ارتعاشته رغم ارتفاعي الهائل، عرفت أنه يرتعش من ذبذبات الهواء حوله.. كان الفيل باركاً ثم نهض فجأة وانطلق يجري نحو الصحراء محاولاً أن يفلت بجلده، ألقيت أول حجر من الجحيم وسط الجيش.. انفجر جيش أبرهة داخل نفسه.. كان الانفجار محكوماً بحيز مكاني معين.. لم يكن مسموحاً للقوة التدميرية أن تنفجر بشكلها الطبيعي في المنطقة، ولا كان مسموحاً لها أن ترفع صوتها وهي تنفجر.. كان الانفجار بلا صوت وكان محكوماً بجيش العدو فقط.. كان الانفجار مأموراً لا حراً.. لو ترك حراً لدمر الكعبة والمنطقة كلها إلى الأبد ولاستحال انقاذها بعد ذلك..

كان الانفجار صامتاً هو الآخر.. كان صوته يموت خوفاً قبل أن يولد.. وأسقطت بقية الطير الأبابيل ما تحمله في مناقيرها من عذاب الجحيم.. فيما بعد.. سيكتب المؤرخون أن أبرهة عاد ولحمه يتساقط في الطريق قطعة بعد قطعة.. هذا الوصف ليس دقيقاً.. الصحيح أن جيش أبرهة تحول إلى عصف مأكول.. وهذه صورة لطعام هضمته البهائم وقضت حاجتها وعصفت الشمس والرياح بما بقي من آثار.. وهبت الرياح تكنس ما بقي من جيش أبرهة.



عنكبوت الغار

﴿ ألاّ تَنْصُروهُ فَقَدْ نَصَرَهُ الله. إذْ أخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَـروا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إذْ هُمَـا في الغَارِ. إذْ يَقُـولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إنَّ الله مَعَنَا. فَأنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ، وَأيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى، وَكَلِمَةَ اللهِ هِيَ العُلْيَا، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

(سورة التوبة ـ آية ٤٠)

أنا عنكبوت ولا كل العناكب. . لو وضعت عناكب الدنيا في كفة، لرجحت كفتي ولا فخـر. . لست في مجال الادعاء والتفاخر. . إنما أذكر الحقائق. . لا أظن أنني أحتاج لتقديم نفسي إلى القارىء. . فهمتم. . فهمتم انني عنكبوت الغار الذي اختبأ فيه رسول الله ﷺ. . أنا المسؤولة عن نجاة الرسول. . أنا التي حميته. . نسيجي رقيق هفهاف تطيره أقل هبة من هبات الهواء، ورغم هذا النسيج الضعيف. . وقفت أمام حديد السيوف الكافرة التي خرجت تطارد النبي، واستطعت أن أهزمها. أسفر الصراع بين حرير العنكبوت الضعيف وحديد السيوف عن هزيمة الحديد. . انهزم الحديد أمام الحرير. . وجلست في بيتي الذي يضرب به المثل في الضعف. . ان أوهى البيوت لبيت العنكبوت. . جلست في بيتي أحمي بيت الاسلام الكبير وأحرس نبي الله محمد بن عبد الله ﷺ.

ليس هذا فحسب ما وقع لي. . وقع لي ما هو أروع من ذلك، رأيت النبي. . أعرف أن هذا النبي عندما يموت، سيقصد قبره الملايين للبكاء والدعاء.

وسيتصور كل واحد من الباكين الداعين صورة لرسول الله في عقله. أنا رأيته. . عشت معه ثلاثة أيام. . عاش ضيفاً في حراستي ثلاثة أيام. . آه. . يدور قلبي حين أعاود تذكر أيامه. . كانت أياماً مهيبة. . كنت أحب ـ قبل أن أراه العناكب والطعام والحياة. . بعد أن رأيته لم أعد أستطيع أن أحب سوى الحقيقة. . تغيرت بعد أن رأيته. . هل رأيتم عنكبوتاً تبكي قبلي. بكيت أنا العنكبوت حين انتهت فترة ضيافتي له وخرج من الغار قاصداً المدينة. . قلت له يا رسول الله سوف أفتقدك. .

لم يسمع ما قلته له عليه الصلاة والسلام. . عدت أقول له يا رسول الله أعطني يدك أقبلها. . أو دعني أقبل طرف ثوبك. . لم يسمعني ومضى. . غير أنه وهو يخرج من الغار اضطر



أن يحطم بيتي الذي بنيته له. . لم أفهم لماذا فعل ذلك. . أحياناً أقول إنه كان لا بد أن يحطم بيتي لكي يخرج. . كان بيتي أنا باب الكهف. . وكان لا بد من فتح الباب. . ومد الرسول يده إلى بيتي وأزاح حرير البيت بلطف. .

حاولت أن أقترب منه لأقبل يده. . لم يلاحظ أنني أريد أن أقبل يده. . استردها قبل أن أنحني عليها لتقبيلها. . وخرج.

وانكفأت على الحرير الممزق الذي كان بيتي وقلت: مس الحرير يد رسول الله قبلي. . وبكيت. .

ظللت أبكي حتى ذاب بيتي في دموعي. . وعاد الغار كما كـان . . أحكي قصتي من بدايتها. . أرجو أن يعذرني القارىء لأنني مضطربة. .

كنت من عناكب الجبال. . وعناكب الجبال هي أتعس العناكب حظاً. . ان طعامنا الأساسي هو الذباب والحشرات. . وقد ولدت في كهف مهجور في غار موحش في جبل ثور. . وهو جبل من جبال مكة. . ومكة مدينة صغيرة لم أرها في حياتي أبداً. . وأحيانا نسمع من الحمام وهو يطير تسبيحات نفهم منها أن هذا الحمام يعيش في حمى بيت الله في مكة. . وكنت أحاول أن أتصور شكل مكة أو منظر بيت الله فلا أستطيع. . كنت أعيش حبيسة في غار ثور. وهو غار موحش أثناء النهار مخيف أثناء الليل، هو غار يقع جنوباً في اتجاه اليمن، ولا أحد يزورنا، حتى الوحوش تهرب من وحشة الجبل وتفضل عليه جبالاً مأنوسة تضم غيرها من الخلائق.

باختصار. . كيف أنا سيدة هذا الجبل ومليكته. .

وجاء يوم. .

كنت مدلاة من سقف الغار في خيط من خيوط الحرير الذي صنعته. . وكانت الدنيا شديدة الحرارة، فرحت أؤرجح نفسي ذهاباً وإياباً في الغار. . ثم سمعت صوتاً لا ينتمي لهذه الأرض وهو يسأل:

ـ من يسكن هذا الغار من مخلوقات الله.

انكشف الحجاب عني وأدركت أنني أستمع لصوت سيد من الملائكة، أوقفت نفسي عن الاهتزاز وحنيت جسمي كله وسجدت سجود تحية.

رددت على الصوت الملائكي قائلة:

ـ تتشرف بالحديث اليك عنكبوت الغار ميمي ابنة موما حفيدة مامو.

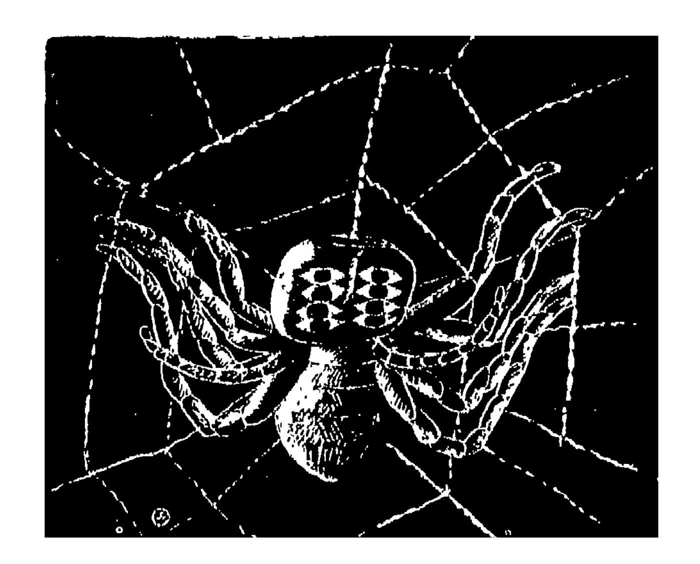
قال الصوت الملائكي: اخرجي الى باب الغار. .

حركت خيط الحرير إلى باب الغار وخرجت.

قال الصوت: بعد قليل، سيهبط الغار اثنان من رجال الله. . محمد ﷺ، وصاحبه في الدنيا والآخرة أبو بكر.

سألت ـ ولم أزل ساجدة ـ: من يكون محمد ﷺ.

قال الصوت: هذا آخر أنبياء الله في الأرض. ورحمة الله التي أرسلها للعالمين. . أنت خادمته مع صاحبه ثلاثة أيام في الغار. .



سألت ودهشتي تتعاظم ـ ما الذي يـجيء به لهذا الغار الموحش.

قال الصوت: ـ خرج مهاجراً تطلب القبائل الكافرة دمه.. كم يلزمك من الوقت لبناء بيتك على باب الكهف.

قلت وأنا أقيس الزوايا: أربع ساعات من العمـل المتواصـل الذي تتخلله فتـرتان من الراحة..

قال الصوت الملائكي آمراً: اشتغلي بغير راحـة.. إن الله يكلفك بـأمانـة الحراسـة.. وتستودعك العناية الإلهية مصير الرسالة الخاتمة.. ومستقبل حضارة كاملة.

زاد سجودي وهمست ـ سمعاً وطاعة.

انصرف سيد الملائكة.. ونـاديت الصمت والوحشـة والانقطاع أن يحضـروا.. وبدأت أعمل..

نظرت في غددي السبع التي تصنع الحرير.. الغدد مليئة.. تأملت باب الغار.. الباب واسع.. رحت أقيس الزوايا وأحسب بسرعة من أي زاوية أبدأ.. سأحتاج الى خمس دعائم صلبة من الحرير.. وسنخرج منها ستة وعشرين خيطاً كدعائم تكميلية.. وسنحتاج إلى خمسة وتسعين خيطاً لتثبيت الجدران.. بدأت أصنع الحرير.. هذا النسيج الهفهاف أقوى من أي صلب يتحول إلى خيط دقيق قطره واحد على ألف من البوصة.. هذا قطر خيطي أنا العنكبوت.. لا يعرف الناس أن العناكب تستطيع أن تقيس الزوايا وأن تقسمها، وأن تقدر متانة المواد وشدة الضغط، وأن تحسب حساب آلاف المشاكل الهندسية المعقدة التي تواجه عملية البناء.. لا يعرف الناس أن العناكب تنسج ضروباً من الحرير تقضي بها كل حاجة.. نستعمله شركاً ومائدة وفراشاً وملاءة

لف وجهاز انذار وطريقاً للفرار وقيداً وسبيلاً للانتقال ودرعاً للحماية أي أننا كعناكب نصنع أكثر المواد نفعاً وأكثرها تعدداً للنفع.

وما تفرزه غدد العنكبوت حرير ولا ريب كالحرير الذي تخرجه دودة القز، ولكن هناك فروق بين حرير دودة القز ونسيج العنكبوت. وهذه الفروق تجعل نسيج العنكبوت أفضل، فهو أرق وأنعم وأمتن من أي حرير آخر.. فوجئت أن الرسول يدخل الغار مع أبي بكر.. توقفت عن العمل لحظة.. نظرت في وجهه النبيل المهيب الذي يشبه صفحة الذهب، وأحسست بخشوع عميق.. بعدها قلت له: أهلاً بك ومرحباً يا رسول الله..

لم أكد أكمل تحيتي له حتى بدأت أنسج بيتي على باب الغار.. انحدرت انحداراً عمودياً من فتحة الغار إلى أرضه، وأنا أصنع خيط الحرير، ثم شددته وثبته في الأرض بمادة حمضية أفرزتها من غدتي، ثم صعدت متسلقة بسرعة إلى باب الغار، ورحت أهبط وأرتفع وأميل إلى اليمين واليسار وأنا أنسج بيتي.. انتهى النسيج في ثلاث ساعات وست دقائق وعشرين ثانية.

وصل الكفار إلى باب الغار.. سيوفهم اللامعة تقف وجهاً لوجه أمام حريري العنكبوتي .. قال أحد المشركين:

لو دخل ها هنا أحد، لم يكن نسج العنكبوت على بابه..

ابتسمت داخل بيتي ابتسامةً واسعةً.. قال أبو بكر للنبي بصوت خافت:

- لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا.

قال رسول الله ﷺ - لا تحزن، ان الله معنا.

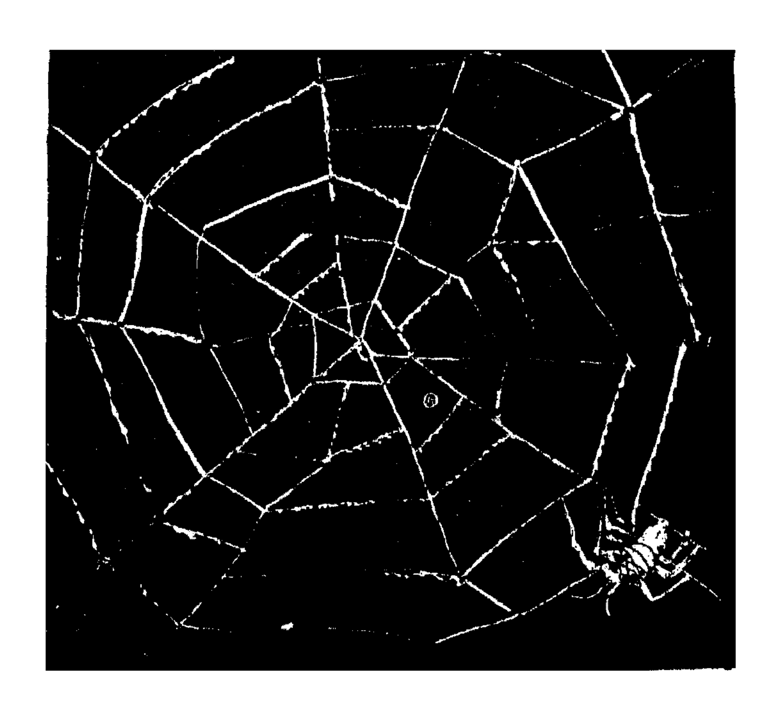
لم يكد الرسول يقول كلماته حتى امتلأ المكان بالملائكة فجأة. امتلأ بصوت يقول:

﴿ألا تنصروه فقد نصره الله. إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار. اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا. فأنزل الله سكينته عليه، وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم﴾.

لم يكد ينتهي الصوت حتى امتلأ الغار فجأة حولي بالملائكة.. فوجئت بملائكة تقف أمام بيتي العنكبوتي وتقف خلفه.. سألت أقربهم لي.. ماذا حدث؟.. قال: جئنا بأمر الله نحمي نبيه الكريم.. قلت صارخة: ولكنني مكلفة بحمايته.. مكلفة بحراسته.. لماذا تكسرون قلبي.. لن يجرؤ أحد عليه.. انه ضيفي أنا.. خادمته أنا. بكيت من فرط الانفعال فأدهشني أنني أستطيع أن أبكي..

التفت إلى الرسول وأردت أن أشكو له.. رأيته مشغولاً بالصلاة.. كان يصلي وخلفه صاحبه أبو بكر..

وسجدت معهما حين سجدا..



موضع الآيات في القرآن الكريم

١ - ورد ذكر غراب ابني آدم في سورة المائدة. . آية رقم ٣١.
٢ - وورد ذكر ناقة صالح في سورة هود. . آية رقم ٦٤.
٣ - وورد ذكر طير ابراهيم في سورة البقرة. . آية رقم ٢٦٠.
٤ - وورد ذكر ذئب يوسف في سورة يوسف. . آية رقم ١٧.
٥ - وورد ذكر حوت يونس في سورة الصافات آية رقم ١٤٢.
٦ - وورد ذكر بقرة اسرائيل في سورة البقرة آية ٦٧.
٧ - وورد ذكر عصا موسى في سورة طه. . آية رقم ١٧ - ٢١.
٨ - وورد ذكر هدهد سليمان في سورة النمل. . آية رقم ٢٠.
٩ - وورد ذكر نملة سليمان في سورة النمل . . آية رقم ١٧ - ١٨.
١٠ - وورد ذكر دابة الأرض في سورة سبأ. . آية رقم ١٤.
١١ - وورد ذكر حمار عزير في سورة البقرة. . آيات رقم ٢٥٩.
١٢ - وورد ذكر كلب أهل الكهف في سورة الكهف . . آيات ١٨.
١٣ - وورد ذكر طين عيسى الذي تحول إلى طير في سورة المائدة. . آية رقم ١١٠.
١٤ - وورد ذكر الطير الأبابيل في سورة الفيل ــ آية رقم ٣.
١٥ - وورد ذكر فيل أبرهة في سورة الفيل . . آية رقم ١.
١٦ - ولم يرد ذكر عنكبوت الغار الا في السنة المطهرة. . رواه أحمد في المسند.

مراجع الكتاب

لاعتقادي ان هذا الكتاب فن من لون معين، فقد استعنت فيه بنوعين من المراجع . .

(١) المراجع الدينية

- ☐ قصص الأنبياء في القرآن.
- ☐ تفسير القرطبي والمنار.

(٢) المراجع العلمية:

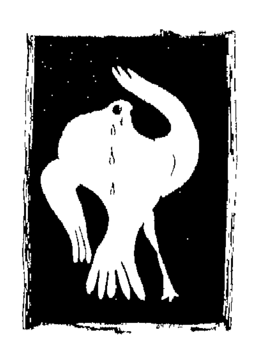
- The animal Kingdom موسوعة علمية من ثلاثة مجلدات لسبعة من علماء متحف التاريخ الطبيعي في أمريكا. جورج جودوين، وشالز بوجرت، ودين امادون، وتوماس جيليـارد، وكريستوفر كوتس، وجيمس اتز، وجون باليستر. . تحت اشراف فريدريك دريمر. . مطبعة جراي ستون. نيويورك.
- موبي ديك ـ رائعة أدبية تأليف هرمان ملفيل.
- دنيا الحيتان لروى تشابمان اندروز ترجمة د. محمد صابر سليم.
- دنيا الحشرات لفردينانلين ترجمة د. أحمد أبو النصر.
- عالم الطير في مصر د. أحمد محمد عبد الخالق.
- سلوك الحيوان د. أحمد حماد الحسيني.
- أضواء على قاع البحر د. أنور عبد العليم.
- الصيد في أفريقيا ـ فرانك هيبين.
- الـطريق إلى مكة ـ محمـد أسد (ليـوبـولـد فايس).

الفهرس

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت٤٠٢٣٣٩٩٠ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب. ٨٠٦٤ ـ هاتف . ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



- يقدم لنا القرآن الكريم، في سياق قصص الأنبياء والأولياء، مجموعة من أفراد المملكة الحيوانية، التي أدّت دورًا في التاريخ، كغراب ابني آدم، وناقة صالح، وطير إبراهيم، وذئب يوسف، وحوت يونس، وبقرة بني إسرائيل، وعصا موسى، وهدهد سليمان، ونملة سليمان، ودابة الأرض، وحمار عزير، وكلب أهل الكهف، وطين عيسى، وفيل أبرهة، والطير الأبابيل، وعنكبوت الغار.
- وعلى امتداد أربعة عشر قرنًا، بقيت هذه المجموعة من قصص الحيوان متوارية في الظل .. حتى انحنى عليها الكاتب الإسلامي الفنان أحمد بهجت، فجعل من هذه المجموعة أبطالا لكتابه هذا.
- يقدم المؤلف، في هذا الكتاب، تجربة فريدة من نوعها حين يكتب قصص الحيوان الذى ورد ذكره في القرآن، من وجهة نظر الحيوان ذاته، وبأسلوب المذكرات، ملتزمًا بالبناء الأصلى للقصة كما وردت في القرآن الكريم .. مستعينًا بآخر ما وصل إليه العلم في تحديد سلوك الحيوان وطباعه . . مطلقًا العنان لفنه فيما بقي من مشاعر الحيوان وأحاسيسه ووجهة نظره.
- هذا الكتاب يُعَدّ بحق أول مؤلَّف عن عالم الحيوان كما جاء في القرآن الكريم وفي ظل النبوات.
- كتب بأسلوب مدهش في رقته . . وفي سخريته . . نجح المؤلف أن يمزج بين الدين والعلم، في كتاب ممتع يدعوك للتفكير والتأمل . . وللضحك أحيانًا . . وللبكاء أحيانًا أخرى . . وللإيمان في كل الأحايين.
- وقد سبق نشر بعض أجزاء من هذا الكتاب وحققت نجاحًا هائلاً بين القراء والنقاد . . حتى إنها ترجمت إلى الألمانية والفرنسية والإنجليزية . . وقريبا إلى لغات أخرى إن شاء الله.
- ويسر دار الشروق أن تقدم عصارة إيمان وفكر وإحساس كاتبنا الموهوب أحمد بهجت مزدانة بلوحات الفنان المبدع إيهاب شاكر، وبإخراج الفنان الكبير حلمي التوني.

ابراهيم المعلم